"بيروتس أحد أعظم كُتّاب الأدب الغرائبي في عصره" بورخيس

حبل الروح

ليو بيروتس

ترجمها عن الألمانية

أحمد الزناتي

حبل الروح

الكتاب: حبل الروح

المؤلف: ليو بيروتس

العنوان في اللغة الألمانية: Sankt Petri-Schnee By Leo Perutz

ترجمة: أحمد الزناتي

تصميم الغلاف: إسراء النجّار

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

عدد الصفحات: 204

الترقيم الدولي: 978-1-7386435-4-7

الطبعة الأولى: 2022

جميع الحقوق محفوظة

منشورات حيـــــاة

البريد الإلكتروني: hayatpublishing1@gmail.com

يمكنكم طلب كتبنا من المتجر الالكتروني:

hayatbookstore.com

حبل الروح

ليو بيروتس

ترجمة

أحمد الزناتي

منشورات حياة

مقدمة

وُلد ليو بيروتس في مدينة براج سنة 1882. ينحدر ليو من عائلة أغلبها من يهود الطبقة المتوسطة العليا غير المتديِّنين. التحق بالمدرسة نفسها التي التحق بها ماكس برود وفيليكس ويلتش، وهما صديقان مقربان من فرانتس كافكا. بل وعمل بيروتس في شركة التأمين نفسها التي كان يعمل بها فرانتس كافكا. عمل بيروتس لاحقًا في مدينة تريستي الإيطالية في الوقت نفسه الذي عاش فيه جيمس جويس والأديب الإيطالي إيتالو سفيفو.

بالرغم من فتور مشاعره ناحية الحماسة الشعبية القومية التي اندلعت عند إعلان الحرب، ظلَّ بيروتس محافظًا على نزعته المُعادِية للقومية والمناهضة لكره الأجانب. استُدعي بيروتس في تلك الأثناء لأداء الخدمة العسكرية على الجبهة الشرقية حيث تعرض للإصابة برصاصة في الرئة. وبعد فترة النقاهة أمضى بيروتس الفترة المتبقية من الحرب مشتغلًا في أحد الصحف. نشر روايته الأولى «الرصاصة الثالثة» في سنة 1915، وأتبعها بنشر رواية بالاشتراك مع الكاتب باول فرانك بعنوان معجزة شجرة المانجو وبدأ يكتسب شهرة داخل الأوساط الأدبية في النمسا.

في العقد الثاني من القرن العشرين كان بيروتس قد امتلك أسلوبه الأدبي المميز الذي سَيَلفْت إليه أنظار الوسط الأدبي محليًّا وعالميًّا حيث أصدر رواية Der Marques de Bolibar أو «ماركيز بوليبار»

التي نُشرت للمرة الأولى في سنة 1920 (للرواية ترجمة إنجليزية أنجزها جراهام روسون في سنة 1927).

في سنة 1933 نشر بيروتس رواية St. Petri-Schnee «ثلج القديس بطرس» أو «حبل الروح». وهي رواية رمزية تسعى إلى تسليط الضوء على خطورة تصاعد الموجة الفاشية التي التهمت القارة الأوروبية، مما أدَّى إلى حظر الرواية من الحكومة النازية. في سنة 1940 حصل بيروتس على الجنسية الفلسطينية، وبعدها بسنوات قليلة وتحديدًا سنة 1945 فكر في العودة إلى أوروبا. وبعد إعلان قيام دولة إسرائيل شعر الرجل بأن سنوات شقائه وبؤسه الحقيقية قد بدأت، فقد كره بيروتس الدولة العنصرية الوليدة، وبرغم انتشار أعماله في أوروبا، بل حتى في أميركا الجنوبية بعد تبنِّي بورخيس فكرة ترجمة رواياته إلى الإسبانية، نضب إبداعه الأدبي. كان الباعث نفسيًّا قويًّا؛ إذ وجد بيروتس داخل إسرائيل الروح القومية المعادية للآخرين، وهي الروح نفسها التي حاربها في أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية، كما وجد أن السياسة الفاشية التي مُورست ضد اليهود إبان الحُكم النازي، كانت تُمارس وبصورة سافرة مَقيتة ضد أبناء الشعب الفلسطيني، فكان يقسِّم وقته بين موطنه المُتبَنى إسرائيل وموطنه الضائع النمسا الذي تحوَّل إلى أطلال كئيبة بعد انتهاء الحرب. عندما نُشرت رواية بيروتس في فرانكفورت عام 1953 لاقت ردود فعل ومراجعات إيجابية، إلا أن الناشر ما لبث أن أعلن إفلاسه بعد ذلك بوقت قصير وتعذَّر توزيع الكتاب. في الخامس والعشرين من أغسطس سنة 1957 توفي بيروتس، وبعد وفاته بفترة وجيزة ظهرت رواية جديدة بعنوان Der Judas des Leonardo «يهوذا ليوناردو».

كان خورخي لويس بورخيس قد عدّ بيروتس واحدًا من أعظم كُتَّاب الأدب الغرائبي في عصره، وسعى إلى ترجمة أعماله إلى اللغة الإسبانية في الخمسينيات داخل الأرجنتين باعتباره مؤسس الواقعية السحرية في ثوبها الشرق أوروبي، وقال عنه الأديب النمساوي روبرت موزيل إن بيروتس ابتكر جنسًا أدبيًّا يخصُّه وحدَه، بينما أشار إيتالو كالفينو، وجراهام جرين وألفريد هتشكوك وفريدريش دورينمات إلى أنهم من كبار مُعجبيه، برغم ذلك بقي الكاتب التشيكي/ النمساوي ليو بيروتس (2نوفمبر 1882 – 25 أغسطس 1957) خارج دائرة أضواء الأدب العالمي لفترة طويلة بعد وفاته.

المترجم

1

حينما أخلى الليل سبيلي كنت شيئًا بلا اسم، كنت مخلوقًا بلا هوية، لا يعرف شيئًا عن مصطلحات الماضي والمستقبل. بقيتُ راقدًا فوق السرير، ربما أكون قد بقيتُ لبضع ساعات وربما لجزءٍ من الثانية.

طوَّقني نوع من الجمود الذي تعاظَمَ مداه ليصل إلى حالة أعجز عن وصفها الآن. لو وصفت حالتي بأنها كانت عبارة عن شعور بالوعي المُسَرْبَل بالغموض، والممزوج بفقدان الوعي التام، لَمَا وفيَّتُ هذا الوضع الاستثنائي والغريب حقَّه في الوصف. ربما كان من الأسهل أن أقول إنني كنتُ أسِبح في الفراغ، إلا أن هذه الكلمات أيضًا لا تنبيء بشيء. كل ما كنت أعرفه أن مخلوقًا ما كان موجودًا، لكني لم أكن أعرف أن هذا المخلوق هو أنا.

ولا أعرف كم دامت تلك الحالة ولا متى عاودتني الذكريات الأولى، كانت الذكريات تطفو على صفحة عقلي، ثم ما تلبث أن تتبدَّد بسرعة بحيث لا أقدر على الإمساك بها. من بينها ذكرى لم تبرح تؤلمني -برغم افتقادها إلى قوام محدد- أو تقذف في قلبي الرعب. كنت أسمع صوت دقات أنفاسي العميقة كما لو أن كابوسًا يجثُم على صدري.

كانت أولى الذكريات العالقة بذهني عادية مبتذلة، خطر ببالي مثلًا اسم كلب اقتنيته ذات يوم لفترة قصيرة، وتذكرت أني أعرت شخصًا مجلَّدًا من نسختي من الأعمال الكاملة لشكسبير ولم يردّها إليَّ ثانية،

ثم تذكرت اسم شارع ورقم منزل لا أستطيع ربطهما بحدث معين في حياتي، ثم تراءت لي صورة سائق دراجة بخارية يقطع شارعًا ريفيًّا خاليًا من المارَّة، حاملًا على ظهره أرنبين برِّيَـيْن.

متى حدث ذلك؟

تذكرتُ تعثُّر خطاي بينما كنت أحاول تفادي سائق دراجة بخارية، ولما نهضت من عثرتي لاحظت أنني كنت أرتدي ساعة يد وأن عقاربها كانت تشير إلى الثامنة، وأن نظارتي كُسرَت، وأني لم أكن أرتدي سوى ساعة يد فقط من دون معطف ولا قبَّعة. كانت هذه هي نقطة الانطلاق التي بلغتُها حينما بدأت أحداث الأسابيع الماضية تضرب ذاكرتي بغتةً بعنف لا سبيل إلى وصفه، بداية الأحداث ووسطها ونهايتها، تذكَّرتها كلها في لحظة واحدة، وكانت الذكريات تنهار على رأسي مثل عوراض وأحجار منزل متصدّع. رأيت البشر والأشياء الذين عشت بين ظهرانيهم، وكانت هذه الأشياء هائلة الحجم، مخيفة الهيئة، بَدَت أمامي بالغة الضخامة ومثيرة للفزع وكأن هؤلاء بشرٌ وكأن تلك الأشياء لا تنتمي إلى عالمنا، بل إلى عالم آخر.

إلا أن شيئًا يَحِيك في صدري كان يريد الانطلاق بقوة: التفكير في السعادة، أو في الخوف من هذه السعادة، التفكير في اليأس أو الشوق المُفرِط.. على أي حال ليست هذه إلا كلمات هزيلة واهية. كان الشيء الذي أقصده فكرة لا يقوى أحد على احتمالها لمدة ثانية واحدة.

كان هذا أول لقاء لعقلي الواعي مع التجربة المُروِّعة التي مررتُ بها.

لم أُطِقْ تَحمَّل المزيد، سمعت صوت صراخي. لا بد أنني حاولت إزاحة الغطاء عن جسمي بسبب الآلام المبرحة التي شعرتُ بها أعلى ذراعي، ثم سرعان ما فقدت الوعي، وكان فقدان الوعي هو طوق

النجاة. ولما أفقت من نومي مجددًا كنا في وَضَح النهار، كنت قد استعدتُ وعيي كاملًا من دون أن يطرأ علي وعيي أي تبدُّل.

وجدت نفسي نزيل غرفة داخل مستشفى، كانت غرفة لطيفة مفروشة بأثاث فاخر، وأقرب إلى نوعية الغرف باهظة الثمن أو المخصصة للمرضى من ذوي الحظوة. بالقرب من النافذة جلست ممرضة عجوز يداها مشغولتان بغزل قطعة من الكروشيه، بينما ترشف قهوتها بين دقيقة وأخرى.

فوق السرير المقابل رجل مشعث اللِّحية، وجنتاه متهدِّلتان ورأسه مغطًّى بضمادات بِيض. لم يَحِد ببصره عني وهو يحاصرني بعينين واسعتَيْن حزينتيْن وقَلَق واضح يكسو ملامحه.

خِلتني أرى انعكاس صورتي على المرآة لبضع لحظات. رأيتني مستلقيًا، شاحبًا، هزيلًا، بذقن غير حليقة، ورأسٍ مغطًّى بالضمادات. لكن خُيّل إليَّ أنني رأيت رجلًا غريبًا، ربما كان مريضًا شاركني الغرفة حينما كنت فاقد الوعي، ولابد أنه نُقِل من غرفتي في الدقائق التالية، لأنني حينما فتحتُ عيناي كان قد اختفى، وكان سريره قد اختفى أيضًا.

ها أنا الآن أستطيع تذكُّر كل شيء. كانت الأحداث التي جاءت بي إلى هنا رائقة، واضحة المعالم في ذهني، إلا أنها كانت ترتدي وجهًا آخر بعد أن سقط عنها وجهها البشع الكئيب. وكان بعض هذه الأحداث حتى هذه اللحظة مُفزِعًا، وبعضها الآخر مشوب بغرابة وغموض لا سبيل إلى تفسيرهما، إلا أن هذه الأحداث لم تُخِفْني، ولم أعد أرى الناس على هيئة أشباح عملاقة متراقصة مثيرة للفزع، بل رأيتهم في وَضح النهار بحجم دنيوي، رأيتهم كبشر طبيعيين مثلي ومثل الآخرين، رأيتهم مخلوقات تنتمي إلى هذا العالم، إلا أنهم كانوا مرتبطين بفترة وجودي السابق في

هذه الأحداث، فاندمج الكل في قوام واحد، اندمج وجودي في العالم بالأيام وبالبشر والأشياء، وصاروا جزءًا لا يتجزأ من حياتي.

تنبَّهَتْ الممرضة إلى استيقاظي فنَهَضتْ من جلستها، كان تعبير وجهها ينمُّ عن شيء من البلاهة الراضية بحالها، وفي اللحظة التي أبصرتُ فيها وجهها هالَني الشبه الهائل بين ملامحها وملامح المرأة العجوز التي خرجت هادرةً من زمرة حشود الفلاحين الغاضبين، مُهدِّدةً الكاهن المُسن بسكين الخبز وهي تصرخ: «الموت للكاهن!».

تعجَّبتُ من وجودها الآن في غرفتي تمرِّضني بهدوء وبملامح طافحة بالبلاهة، إلا أن كل ملامح الشبه سرعان ما تلاشت حالما اقتربَتْ منِّي. كنت قد توهَّمتُ الأمر، لأنها حينما كانت واقفة قبالة سريري رأيتُ وجهًا غريبًا كُلِّيًّا، فتأكدتُ أنني لم أرَ هذه المرأة من قبل قَطُّ.

تنبَّهَتْ الممرضة إلى رغبتي في الكلام، لكنها رفعَتْ يديها مُحذِّرةً في إشارة إلى ضرورة ألا أكلف نفسي مشقة الكلام لما فيه من أذى على صحتي. في تلك اللحظة داهمني شعور الـديجاڤو deja-vu، شعور أن كل ما حولي: أي السرير، وحجرة المستشفى والممرضة لم يكن غريبًا عليَّ وأنني سبق وأن رأيته قبل ذلك. بالطبع لم يكن ذلك الشعور إلا ضربًا من الوهم، إلا أن الحقيقة الماثلة وراء ذلك الشعور، لم تكن أقل غرابة من ذلك الوهم.

تذكَّرتُ أنَّ هذا النوع من الرؤى كثيرًا ما كان يراودني في أثناء عملي كطبيب بإحدى قرى مقاطعة فيستفاليا، وأنني تنبَّئتُ في رؤيا صادقة بالحالة التي وصلتُ إليها الآن. هذه هي الحقيقة، أستطيع القسم على ذلك، فقد لوحِظتْ على أراضي مقاطعة فيستفاليا هذه الظواهر كثيرًا.

«كيف وصلتُ إلى هنا؟».

سألتُ الممرضة، فهزَّت كتفيها من دون إجابة. في الأرجح كان محظورًا عليها أن تتكلم معي بشأن هذه النقطة تحديدًا.

«منذ متى وأنا هنا؟».

سألتُ مجددًا، وبدا وكأنها تفكر قليلًا، ثم أجابت:

«هذا هو الأسبوع الخامس»، أجابَتْ بعد هنيهة من التفكير.

كنت أعلم أن ما تقوله مستحيل، فالمطر ينهمر بالخارج والوقت ما يزال شتاءًا. لا يمكن لإقامتي أن تكون قد زادت عن بضعة أيام لا أكثر، لنقُل أربعة أيام أو خمسة على أقصى تقدير، حيث كانت الثلوج تنهمر يوم الأحد، وهو آخر أيام إقامتي في قرية مورفيدي، والثلج ما يزال يتساقط، لماذا تكذب الممرضة إذن؟

حدَّقتُ في وجهها: « مستحيل.. أنتِ تكذبين».

ارتبكتْ الممرضة العجوز وقالت: «ربما ستة أسابيع»، ثم أضافَتْ بنبرة مترددة:

«هذا هو الأسبوع الخامس على خدمتي بهذه الغرفة، سبقتني إلى العمل هنا ممرضة أخرى، وكنتَ أنتَ نزيل الغرفة لمَّا جئتُ إلى هنا».

«ما تاريخ اليوم؟».

سألتُها، لكن بدتْ وكأنها لم تفهم سؤالي.

«ما تاريخ اليوم؟ ما التاريخ؟».

كرَّرْتُ سؤالي.

«2 مارس1932»، أجابَتْ الممرضة أخيرًا.

«الثاني من مارس».

لم تكذِب الممرضة هذه المرة، تبيّنتُ صدق كلامها من ملامح وجهها، فالتاريخ المذكور مطابق لحساباتي.

كنت قد التحقتُ بوظيفة طبيب وحدة محلية في قرية مورفيدي في الخامس والعشرين من يناير، وبقيت أعمل طوال شهرٍ في هذه القرية الصغيرة حتى جاء يوم الأحد المشؤوم الذي وقعت فيه الطامة الكبرى.

لم تَزِدْ مدة وجودي هنا عن خمسة أيام، لا شك في ذلك. لماذا كذبت عليَّ الممرضة إذن؟ ومَن كلَّفها بذلك؟ مَن صاحب المصلحة لإقناعي بأنني قضيت في هذه الغرفة خمسة أسابيع كاملة في حالة غياب تام عن الوعي؟

من العبث مواصلة الضغط عليها. لأنها عندما لاحظَت إحجامي عن طرح مزيد من الأسئلة تطوَّعتْ من تلقاء نفسها لأن تخبرني أني استعدتُ وعيي أكثر من مرة، ففي إحدى المرات بينما كانت تُغيِّر ضمادة أسقطَتْ إحدى الآنية فانتفضتُ مذعورًا وسألتُها عمن هناك وعيناي مغمضتين، كما زعَمَتْ أني شكوت أكثر من مرة من الآلام، وأني سألتها شيئًا لأشربه، إلا أني سرعان ما كنتُ أغرق في النوم. والحقيقة أنني لم أستطع تذكُّر أي شيء من ذلك.

«قِلَّة قليلة من الناس يتذكَّرون ما جرى».

قالتها الممرضة ثم عادتْ إلى مقعدها ناحية النافذة لتستأنف غَزْل خيوط الكروشيه التي كانت في يديها.

بقيتُ مضطجعًا فوق السرير مُغلِقًا عينيَّ، مفكرًا فيما انقضى وانتهى بلا رجعة.

أما «هي» فكنت أعرف أنها ما تزال على قيد الحياة، وأنها فرَّتْ من الساعة الأخيرة المروِّعة كما فرَّتْ من براثن الثأر، كان يقيني من ذلك راسخًا رسوخ الصخور. كانت أقوى من الاستسلام، أما الرصاصة التي كانت موجَّهة إليها، فقد أصابتني أنا، فأمثالها لا يقضون نَحبهم بسهولة، وأيًّا ما كانت قد اقترفتْ من إثم، وأيًّا ما كان حجم الشعور بالذنب الذي تحمله، فلسوف تجد «هي» دائمًا من يرمون بأنفسهم بينها وبين انتقام القَدَر.

كنتُ أعرف كذلك أن الأمر قد قُضي وأنها لن تعود مرة ثانية، وأن الطريق الذي اختارَتْه لن يعيدَها إليَّ مجددًا. لا بأس، فقد ضممتها بين أحضاني لمدة ليلة واحدة، ولم تفارقني ذكرى هذه الليلة قَطّ، ولن يقوى أحد مهما كان أن يسلبني هذه الذكرى، ستبقى ذكراها ممتزجة بحياتي امتزاج اللون الأحمر بقطعة حجر «ألمندين»[1] داخل قطعة الجرانيت، ربطتني هذه الليلة معها في عروة لا تنفصم. فقد ضممتُها بين ذراعيَّ، وشعرتُ بحرارة أنفاسها وبدَقَّات قلبها واختلاج أوصالها، ثم رأيتُ ابتسامة الأطفال على شفتيها وهي تستيقظ.

هل راح كل شيء؟

كلا. لأن ما تمنحه امرأة في ليلة أبدية مثل تلك الليلة، لا يفنى، ربما تكون الآن بين أحضان رجل آخر، سأتقَبَّل تلك الحقيقة راضيًا.

وداعًا يا «بيبيشي».

«بيبيشي» كان اسم التدليل حينما تخاطب نفسَها.

«آه يا بيبيشي المسكينة».

---

(1) أحد أنواع الأحجار الكريمة الثمينة لونه أحمر كالعقيق (المترجم).

كم سمعتُ هذا الصوت الرقيق الحزين يخرج من ثغرها الرقيق.

«أنت غاضب مني.. لكني لا أعرف السبب»، كانت هذه الجُملة المكتوبة فوق قُصاصة ورق جلبَها إليَّ أحد الصبيان. كَم مرَّ على ذلك؟

وذات مرة عندما كانت علاقتنا سطحية، أقصد خلال الفترة التي كانت تتظاهر فيها بيبيشي بعدم اكتراثها بي، سقطتْ مني قطرة من الحامض المُركَّز ولسَعتْ إصبعها فقالت:

«هذا مؤلم.. لستَ رفيقًا بِيبيشي!».

أخذَتْ تتذمَّر وهي تنظر إلى إصبعها الصغير بدهشة وحزن، ولما أفلتَتْ مني ضحكة على كلامها، رمقَتني بنظرة باردة مستنكِرة، وانتهي الموضوع عند هذا الحد. لكني لن يُكتب لي أن أرى تلك النظرة مجددًا. راحتْ تلك النظرة إلى الأبد منذ تلك الليلة.

سمعتُ وَقْع خطوات تدنو مني ففتحت عيني. كان كبير الأطباء في رفقة مساعديه واقفين إلى جوار سريري، ومن ورائهم رجل هائل الجسم يرتدي سترة مخطَّطة باللونين الأزرق والأبيض يدفع طاولة متحركة مُحمَّلة بالضمادات عَبْر الباب. تعرَّفتُ عليه فور رؤيته برغم تنكُّره في هذا الزِّي.

ما أزال أذكر هذا الجسد العملاق، وهذه الذقن الناعمة الغائرة، وتلك العينين العميقتين الزرقاوين، كان مرتديًا سُترة الأمير براكاستين، آخر سلالة عائلة روريك. لكني لم ألمح أثر النَّدَبة فوق شفته العليا بعد أن نما له شارب كَثٌّ، وصار شعره الأبيض متهدلًا فوق جبينه بدلًا من إزاحته إلى الوراء وكانت كفَّاه سمراوين خَشنَتَيْن.

أكان هو أم تُراه كان شخصًا آخر؟

بالطبع كان هو. لم تساورني أية ذرَّة شك في ذلك. فضَحَتْه الطريقة التي حاول بها تحاشي نظرتي. لقد وجد هنا ملاذًا آمنًا ووصل إلى برِّ الأمان، لاعبًا دور معاون تمريض تحت اسم مستعار، ولم يرغب في التعرف عليَّ. حسنًا، لا داعي للخوف منِّي، دعه يستمر في وضعه البائس طالما أن ضميره لا يؤرِّقه، فلستُ أضمرُ أيَّة نِيَّة لفضح أمره.

«صباح الخير هل استيقظت؟».

سمعتُ صوت كبير الأطباء الذي واصل كلامه قائلًا:

«كيف حالك الآن؟ هل تشعر بتحسُّن؟ هل تشعر بأي ألم؟».

لزمتُ الصمت، بينما أواصل التحديق في الأمير باركاساتين، إلا أنه نأى بجانبه متفاديًا نظرتي التي أزعجته.

بعدها رأيتُ شيئًا لم ألحظه من قبل؛ لمحتُ نَدَبة حمراء كبيرة خلف أذنه اليُمنى تمتد إلى ذقنه، كانت ذكرى الليلة التي خان فيها صديقَه ووَلِيِّ نعمته.

«هل تعرف أين أنتَ الآن؟».

سأل الطبيب.

نظرتُ إلى وجهه، كان رجلًا في الخمسينيات من عمره تقريبًا، عيناه تشعَّان بالحيوية، له لِحية مُشذَّبة يتخللها البياض، من الواضح أنه كان يحاول التأكد من أنني استعدتُ وعيي استعادة تامة.

«أنا في المستشفى»، أجبتُه.

«بالضبط»، أكَّد كبير الأطباء وأردف: «في مستشفى محَلي بمدينة أوزنابروك».

انحنى أحد المساعدين فوقي وسألني: «هل تعرفني يا «أمبيرج؟».

«لا، أجبته، من حضرتك؟ من أنتَ؟».

«يا رجل! من المؤكد أنك تعرفني! فكِّر ثانية، لقد عملنا معًا لمدة فصل دراسي كامل في معهد بحوث البكتيريا في برلين. هل تغيَّرتْ ملامحي إلى هذا الحد؟».

«هل أنت د. فريبِه؟»، سألتُ متشككًا.

«تمام! أخيرًا! ها قد عرفتني»، قالها بسرور، ثم بدأ في إزالة الضمادات عن أعلى ذراعي وعن كتفي.

كان د. فريبِه زميلي في معهد بحوث البكتيريا، وكان يعرفها معرفة جيدة. كنتُ أتحرَّق شوقًا لأسمع اسمها ينطلق من بين شفيته، إلا أن شيئًا غامضًا أوْعَز إليَّ للإمساك عن الحديث أو السؤال عنها. أشرتُ إلى طلقة الرصاص التي أصابت ذراعي.

«هل كانت طلقة رصاص؟»، سألته.

«ماذا؟».

أجاب الطبيب بذهن شارد.

«هل اضطررتم إلى استخراج الرصاصة؟».

نظر إليَّ الطبيب ذاهلًا، وقال:

«أيَّة رصاصة؟ لا تعاني إلا من تمزقات في الذراع والكتف».

أثار كلامُه استيائي.

«تمزُّقات؟ هُراء. فالإصابة في ذراعي ناجمة عن طلق ناري، والجُرح في كتفي مصدره طعنة بالسِّكِّين، وأي رجل عادي في مقدوره ملاحظة ذلك، هذا فضلًا عن أن الـ...».

في هذه اللحظة قاطعه المساعد وقال:

«اسمعْ! لا أعرف إلامَ تشير، لكن رجال المرور لدينا لا يتعاملون بالبنادق والسكاكين ضد من يخالفون إشارات المرور».

«لا أفهم عمَّ تتحدث؟».

«من المؤكد أنك تتذكر: قبل خمسة أسابيع على وجه التحديد وفي حوالي الثانية ظهرًا كنتَ تقف في ساحة محطة القطارات وقت الذُّروة المروريَّة، شاخصًا ببصرك إلى الأمام مثل مُنوَّم مغناطيسي، فهتفَ بك ضابط المرور صارخًا، وصاح السائقون، إلا إنك لم تسمع شيئًا ولم تُحرك ساكنًا».

«هذا صحيح»، قلتُ، «رأيت سيارة كاديلاك خضراء».

قال كبير الأطباء: «صحيح أن مدينة أوزنابروك لا تضمُّ إلا سيارة كاديلاك واحدة، ولكن بالنسبة إلى رجل مثلك يعيش في برلين فمنّ المؤكد أنه رأى كثيرًا منها».

«صحيح، ولكن هذه السيارة الكاديلاك كانت...».

«ها، ماذا حدث بعدها».

تابع الطبيب كلامه.

«اجتزت الميدان متَّجِهًا إلى محطة القطارات ثم اشتريت تذكرة وركبت القطار».

قاطعه الطبيب: «لا، لم تصل إلى محطة القطارات، لقد اندفعتَ راكضًا أمام إحدى السيارات التي صدمتكَ، وأسفر الحادث عن إصابتكَ بكسرٍ في قاع الجمجمة وتورُّم دمويٍّ في الدماغ، نُقلتَ على إثرهما إلى هنا. لم

تكن حالتك على ما يُرام، كان من الممكن أن تسوء الأمور، إلا أنكَ تجاوزتَ مرحلة الخطر».

حاولتُ قراءة تعابير وجهِه، من المستحيل أن يكون الرجل جادًّا، لا بد أن كلامه هُراء، من المؤكد كذلك أني ركبت القطار وتصفَّحتُ جريدتين ومجلة، ثم غفوتُ قليلًا، وعندما توقف القطار في محطة مدينة «مونستر» اشتريت علبة سجائر من رصيف المحطة. وفي الساعة الخامسة مساءً، ومع هبوط أول خيوط الظلام وصلت إلى «ريدا»، ومنها واصلت الرحلة راكبًا زلَّاجة جليد.

«معذرة، قلتُ بنبرة متواضعة، ولكن إصابة الرأس ناجمة عن الضرب بآلة حادَّة، كانت ضربة بآلة مِنجل زراعي».

صاح الطبيب: «ماذا؟ وأين قد تجد منجلًا في أيامنا هذه.. في أي بقعة من العالم؟ يستعمل الجميع الآن الماكينات الزراعية».

لم أجد جوابًا. لم يكن الطبيب يعرف أن عِزْبة البارون لا تحوي أيَّة ماكينات زراعية، وأن المحاصيل هناك تُغرس وتُقطَّع وتُدرَس بالطريقة نفسها منذ مائة سنة».

«هناك حيث كنت قبل خمسة أيام، ما يزالون يستعملون آلة المِنجل الزراعي».

تبادل كبير الأطباء نظرة مرتابة مع د. فريبِه.

«هناك، حيث كنتَ قبل خمسة أيام؟»، سأل الطبيب، ثم تابع: «صحيح؟ آه طبعًا. ضربة بآلة مِنجل زراعي، تمام. لا تشغل بالك كثيرًا بالأمر، فهذه الحوادث التي يُستخدم فيها المِنجل سرعان ما تُنسى، حاولْ تصفية ذهنك من الأفكار. أنت محتاج إلى الراحة، ربما تروي لنا كل شيء في وقت لاحق».

ثم التفتَ ناحية الممرضة وقال: «الأكل عبارة عن بسكويت وشاي بلبن وخضروات مسلوقة».

أعطى كبير الأطباء تعليماته ثم غادر وتبعَه مساعداه، وكان الأمير براكاستين آخر من غادر الغرفة دافعًا أمامه طاولة الضمادات، مشيِّعًا إيَّاي بنظرة متشككة بطرف عينه.

ولكن ما معنى كل هذا؟ هل كان كبير الأطباء يستخفُّ بي؟ أم أنه صدَّق حادثة السيارة؟

إن ما حدث في الواقع كان مختلفًا كليًّا عما حُكى، ومن المؤكد أنه يعلم ذلك تمامًا.

2

اسمي جيورج فريدريش أمبيرج، وأعمل طبيبًا.

بهذه الكلمات سأبدأ شهادتي عن الأحداث التي وقعت في قرية مورفيدي، وهي الأحداث التي سأدوِّنها على الأوراق يومًا ما عندما تسمح حالتي البدنية بذلك. لن يكون ذلك في القريب العاجل؛ فأنا عاجز الآن عن تدوين كلمة واحدة على الأوراق، وينبغي أن أخلد إلى الراحة، وأن أصفِّي ذهني، كما أنني عاجز عن تحريك ذراعي المصابة. وأقصى ما في وسعي الآن أن أنقش في ذاكرتي جميع التفاصيل التي وقعت نقشًا راسخًا على نحو لا تفلتُ فيه ولو تفصيلة صغيرة، هذا أقصى ما في وسعي فعله الآن.

ينبغي عليَّ الرجوع بحكايتي إلى الوراء.

كنت قد فقدتُ أمي بعد مرور بضعة أشهر من ولادتي. وكان أبي مؤرِّخًا ذائع الصيت، تخصَّص في تاريخ ألمانيا حتى فترة انتهاء المَلَكية. في السنوات الأخيرة من حياته ألقى محاضرات في إحدى الجامعات الألمانية المركزية حول الجدل الدائر بشأن قوانين الاستثمار والدستور العسكري الألماني في نهاية القرن الثالث عشر، ومعنى النظام الإقطاعي والإصلاحات الإدارية وأهميتها بالنسبة لفترة حكم الإمبراطور فريدريش الثاني. ثم مات أبي عندما كنت في الرابعة عشرة، ولم يترك لي سوى مجموعة هائلة من الكتب، وباستثناء الروائع الأدبية الكلاسيكية لم

تشتمل مكتبته إلا على الأعمال التاريخية التي ما أزال حتى اليوم أمتلك بعضًا منها.

بعدها انتقلت للعيش في كنف خالتي. وكانت امرأة صارمة، شحيحة الكلام، رصينة الطَّابع، لا تغادر شَرْنَقَتها المنعزلة، ولم يكن لدينا الكثير لنقوله. برغم ذلك ستبقى لها أَيادٍ بيضاء عليَّ ما حييت. صحيح أنها نادرًا ما كانت تجود عليَّ بكلمة وَدُوَدة، لكن يُحسب لها أنها أحسنَتْ تدبير مواردها المالية المحدودة حتى يتسنَّى لي مواصلة دراستي.

في سنوات الصِّبا وقعت في هوى الحقل المعرفي الذي تخصص فيه أبي، ولم أترك كتابًا في مكتبته إلا وعاودتُ قراءته مرَّات ومرَّات، لكني عندما أعربت لأول مرة قبيل شهادة إتمام الدراسة الثانوية عن نيَّتي لدراسة التاريخ وارتياد السلك الجامعي، عارضَتْ خالتي ذلك أشد ما تكون المعارضة. كانت فكرة دراسة التاريخ بالنسبة إلى عقليتها فكرة غامضة عابثة، فكرة لا تلائم ظروف الدنيا والحياة. ويتحتم عليَّ أن أتخصص في مهنة عملية، وأن أوطد قدميَّ على أرض راسخة على حد تعبيرها، إما أن أكون طبيبًا وإما أن أكون محاميًّا.

عارضت رغبتها وخضْنا نقاشات حامية. وفي أحد الأيام، وبطريقتها الصارمة أرَتْني خالتي بالورقة والقلم التضحيات المادية الجَسيمة التي تجشَّمَتها لكي تمهِّد طريق الدراسة أمامي على مدار السنوات، فانصعتُ إلى رغبتها صاغرًا، وهل كان أمامي خيار آخر؟ لقد حَرَمتْ نفسها كثيرًا، ووضعتْ مصلحتي نُصب عينيها، وما كان لي أن أُخيِّبَ أملها، ومن هنا التحقتُ بكلية الطب.

وبعد سِتِّ سنوات تخرَّجتُ طبيبًا متوسط الخبرة والمهارة، لا أختلف عن كثيرين غيري، وقضيت سنة الامتياز بمستشفى، لكني كنت طبيبًا بلا مرضى ولا نقود ولا علاقات، والأسوأ من ذلك كله، كنت رجلًا بلا شغف حقيقي حيال مهنتي.

في السنة الأخيرة من الدراسة وتحت تأثير تجربة سأعود لذكرها لاحقًا، انغمست في عادات معيَّنة لم يكن من المفترض أن أسمح لنفسي بالانغماس فيها؛ حيث حرصتُ على التردد على أماكن التقاء أبناء الطبقة العليا، ولمَّا كنت أظهر بمظهر متواضع أسفر تغيير أسلوب حياتي عن زيادة النفقات بشكل مضطرد. ولكن حتى الدَّخل الذي كنت أجنيه من إعطاء الدروس الخصوصية لم يكن كافيًا لتغطية مصروفاتي الشخصية، فاضطررتُ ذات مرة إلى بيع عدد من الكتب النفيسة من مكتبة والدي. في الأيام الأولى من شهر كانون الثاني (يناير) من تلك السنة، عانيتُ من ضائقة مالية مجددًا، وكنت مَدِينًا بمبالغ صغيرة لكنها برغم ذلك أثقلت كاهلي.

من بين ما حَوَتْ مكتبة أبي آخر الطبعات الكلاسيكية لأعمال شكسبير وموليير التي نجَتْ من البيع، فحملتُها إلى صديق يعمل في تجارة الكتب النادرة، فاقْتَنى الكتب مقابل سعر معقول. وبينما كنت أتهيأ للمغادرة ناداني مجددًا، منبِّهًا إياي أن نسخة أعمال شكسبير ناقصة؛ حيث كانت تخلو من السونيتات ومن حكاية شتاء.

للوهلة الأولى ملكني الذهول لأنني كنت أعرف أن المجلد عندي، لكني سرعان ما تذكَّرتُ أنني قد أعرتُه إلى زميل قبل بضعة أشهر. طلبتُ من بائع الكتب القديمة أن يُمهلني حتى ما بعد الظهر، ثم قصدتُ بيت زميلي لاستعادة الكتاب المُعار، لكنه لم يكن في شقته، فقررت الانتظار. وبدافع المَلل امتدتْ يدي إلى جريدة الصباح على الطاولة وبدأتُ في القراءة.

لحظة ساحرة هي تلك اللحظة التي ترجع فيها بالزمن إلى الوراء، مُتأمِّلًا الدقائق السابقة لحدث مفاجئ غيَّر حياتك تغييرًا حاسمًا، لحظة أن تسأل نفسك: ما الذي كان يشغلك آنذاك؟ أين كنتَ تسبح بأفكارك قبل وقوع حدث محوري في حياتك.

في تلك اللحظة كنت جالسًا في غرفة خالية من التدفئة، أرتعد بردًا داخل معطفي الخفيف، وبنصف اهتمامٍ ولتزجِية الوقت فقط وقعتُ على خبر عن اعتقال مفجِّر خطوط سكك حديدية، ومقالة عن فوائد القهوة كمادة غذائية، ومقالة ثالثة عن رياضة الجُمباز. كنت ساخطًا على زميلي، لم يكن سلوكًا مسؤولًا منه ألا يعيد الكتاب في موعده، ثم زاد غضبي لما رأيتُ بقعة دُهن كبيرة وسط الجريدة، ربما كان يتناول زميلي فطوره وهو يطالع الجريدة وسقطت قطعة من شطيرة الزبدة فوقها.

جاءني الحدث الطارئ بوجه عاديٍّ تمامًا، وجه لا يُنبئ بأي شيء، وقع بصري على إعلان في جريدة، هذا هو كل شيء. أعلنت إدارة أطيان البارون مالشين الكائنة في قرية «مورفيدِي»، مركز «ريدا» بمقاطعة فيتسفاليا عن فتح باب التقديم لوظيفة طبيب محلي بالقرية. الحد الأدنى للدخل مضمون سنويًّا، فضلًا عن إقامة وتدفئة مجانية، والأولوية للمتقدمين الحاصلين عن تدريب مُمَارس عام.

لم أفكِّر للوهلة الأولى في أنني قد أكون مؤهلًا لشغل هذه الوظيفة، إلا أن ما أثار انتباهي كان اسم صاحب العزبة، وجدتني أُردِّد الاسم «بارون فسون مالشين»، وخطر بذهني أن اسم «مالشين» بعثَ في ذاكرتي الاسم واللقب كاملين، وأن الاسم ليس غريبًا على أذني، ولكن أين تُراني قرأته أو سمعته؟

أعدتُ التفكير. أحيانًا ما تَسلُك ذاكرتي مسارات عجيبة. خطرت ببالي أغنية، أغنية قديمة لم أفكِّر فيها منذ سنوات بعيدة. دندنتُ بموسيقى الأغنية بيني وبين نفسي، وأعدتُ الدندنة بها، فرأيتني في غرفة جدرانها مكسوَّة بألواح خشب البَلُّوط ورأيتُ طاولة مكدَّسة بالكتب، ورأيتني جالسًا على بيانو أعزف لحن الأغنية، وطاف بذهني نَصُّ كلمات الأغنية: «لم يبقَ لي سوى حُبِّك»، هكذا كان مطلعها. أبي يذرع أرجاء الغرفة ذهابًا وإيابًا، عاقدًا ذراعيه إلى الوراء كعادته، وفي الحديقة بالخارج صوت زقزقة طائر الحسُّون.

«لستُ بحاجة إلى الوفاء». هكذا كانت كلمات الأغنية.

«سعادة البارون فون مالشين».

هكذا أُبلغ الخادم عن قدومه، لبث أبي واقفًا وقال: «ليتفضَّل السيد النبيل بالدخول»، فنهضتُ منصرفًا كعادتي حين يأتي زوَّار إلى أبي. لم يخطر ببالي إلا بعد ذلك بكثير، أن الزائر وصاحب العِزبة في قرية مورفيدي ليسا بالضرورة شخصًا واحدًا، وربما كان هناك عديد ممن يحملون الاسم نفسه. عاودت قراءة الإعلان. ثم جلست إلى مكتبي، وكتبتُ طلب الالتحاق بالوظيفة الخالية. أشرتُ إشارة عابرة إلى والدي، وكتبتُ موجز سيرتي الذاتية بقدر ما قد يثير اهتمام شخص غريب، وقدمت معلومات عن مسار دراستي.

لم أنتظر عودة زميلي. تركت له بضعة أسطر أطلب منه إعادة الكتاب على الفور، ثم ذهبت إلى أقرب مكتب بريد وأرسلت الرسالة. ولم يصلني الجواب إلا بعد مُضيِّ عشرة أيام، إلا أنه لم يُخلف ظنِّي به.

تلقيت ردًا من البارون فون مالشين يقول إنه تشرَّف بمعرفة والدي معرفة شخصية، مُعربًا عن سعادته بأن يسدي خدمة إلى ابن عالِم جليل

حَظِي بتقدير كبير، إلا أن القَدَر لم يُمهله، ووافته المَنِيَّة بكل أسف في وقت مبكِّر. سألني إذا كان بمقدوري استلام الوظيفة هذا الشهر. ولو وافقت على ذلك سيتحتَّم عليَّ السفر عبر أوزنابروك ومونستر، وهناك ستنتظرني سيارة أجرة في محطة قطار مدينة «ريدا»، فضلًا عن ضرورة استيفاء بعض الاجراءات الشكليَّة، مثل إرسال شهادة البكالوريوس وشهادة إتمام فترة التدريب إلى مكتب الوحدة المحلية.

عندما أخبرت خالتي بسفري إلى برلين هذا الشهر لاستلام وظيفة في الإدارة المحلية، اعتبرت ذلك مسألة مفروغًا منها وأمرًا طال انتظاره منذ أمد بعيد. في ذلك المساء لم نتحدَّث إلا عن النَّفقات الواقفة على الأبواب.

اضطررتُ إلى تجديد خزانة ملابسي، وشراء أدوات الجراحة والتوليد الأكثر ضرورة وتوفير مخزون من الأدوية. كانت ما تزال بحوزتي بعض مجوهرات أمي: خاتم من الزُّمرد، وسِوَاران، وزَوْج من الأقراط المتدلِّية المصنوعة من اللؤلؤ قديم الطراز، بِعنا كل هذا، لكن حصيلة البيع لم تَرْقَ إلى مستوى توقعاتنا. من ثمّ لم يكن أمامي بُـدٌّ -وهو ما كان مؤلمًا- من بيع جزء كبير من مكتبة والدي.

وفي الخامس والعشرين من كانون الثاني (يناير) رافقتني خالتي إلى محطة القطار. أصرَّتْ على دفع تكاليف السفر من جيبها. وبينما كنتُ أُوَدِّعها وأُعرب لها عن امتناني على كل ما أسدته إليَّ من عون، لمست مشاعر تأثُّر واضحة بادية على وجهها لأول مرة، أعتقد أن عينيها كانتا مغرورقتين بالدموع.

عندما ركبت القطار، استدارت خالتي بحزم مُغادِرةً محطة القطار من دون أن تَحِين منها التفاتة ثانية ناحيتي. كانت هذه طريقتها، وصلتُ إلى محطة أوزنابروك وقت الظهيرة.

3

توقَّفتُ في المحطة لمدة ساعة ونصف، واغتنمت الفرصة للتجوُّل في أرجاء المدينة.

في مدينة أوزنابروك ساحة قديمة اسمها ساحة حرية الكاتدرائية العظيمة وبرج محصَّن يعود تاريخه إلى القرن السادس عشر يُسمَّى طاعة المواطن. أثار هذان الاسمان فضولي، وبدا لي أنهما على طرفي نقيض، برغم انتمائهما إلى حِقبة واحدة. شَقَقْتُ طريقي عبر البلدة القديمة. لكن الصدفة حالتْ بيني وبين رؤية الساحة أو البرج. هل كانت صُدْفةً حقًّا؟ سمعتُ أنه من الممكن تحريك السفن وتوجيهها على مسافة أميال عبر الموجات الكهربائية. ما القوة المجهولة التي قادتني في ذلك الوقت حتى أنني نسيت ما كنت أبحث عنه، ومشيت في الشوارع المتعرِّجة للبلدة القديمة كما لو أن هدفًا محددًا في ذهني؟

اجتزت الباب الذي قابلني، وكان عبارة عن ممرٍّ عبَرْتُه فوصلت إلى ساحة صغيرة يتوسطها تَمثالٌ حجري لأحد القدِّيسين، في الساحة بضعة أكشاك لبيع اللحوم وباعة الخضروات. اجتزت الميدان وصعدت بعض الدرجات، ثم انعطفتُ إلى شارع جانبي وتوقفت أمام محل لبيع الأنتيكات.

رحتُ أتطلَّع إلى نافذة متجر، لكني لم أكن أعرف أنني أتطلَّع ساعتها إلى المستقبل. لكن لِمَ منحتني تلك القوة المجهولة هذه لمحة عن المستقبل؟ ما زلت حتى اليوم لا أجد تفسيرًا لذلك. لم يكن الأمر سوى صدفة، بالطبع صدفة بحتة. لا أميل إلى الأمور الغيبية لتفسير الحوادث البسيطة، فأنا عمومًا لا أُعير الأشياء وزنًا أكثر مما تستحق. أنا متمسك بالحقائق المادية.

من المؤكد احتواء هذه البلدة القديمة على عدد من متاجر التحف. توقَّفْتُ أمام إحداها، وكان أول متجر صادفني في الطريق. من بين الأشياء القديمة المعروضة من نظارات وعملات نحاسية رومانية ومنحوتات خشبية وتماثيل خزفية صغيرة، لفتَ انتباهي نقشٌ رخامي، لم يكن فيه ما يدعو للدهشة، لكن هالَني حجمه الهائل. كان من الواضح أنه نسخة طبق الأصل من عمل فني ينتمي إلى العصور الوسطى، حيث تُمَثِّل رأس رجل. رأس ذو ملامح جريئة، جامحة، لكنها لا تخلو من نبالة وسموّ.

برغم ذلك أظهرت زوايا الفم تلك الابتسامة المتحجِّرة التي يجدها المرء في المنحوتات القوطية. لكنني أدركت أنها لم تكن المرة الأولى التي أرى فيها هذا الوجه الضخم، المفعم بالحماسة، المُزدان بجبهة ضخمة لكنها لا تخلو من نَبالة واضحة.

لقد التقيتُ به في مكانٍ ما، ربما رأيته في كِتاب أو رأيته منقوشًا على صفحة جَوْهَرة قديمة، لكني لم أُفلح في أن أتذكَّر وجه مَن هذا. وكلما فكرت في شكل الوجه زاد وجومي. كنت أعلم أن هذه الملامح الحادة لن تفارقني، وأنها ستلاحقني حتى في أحلامي. ثم داهمني بغتة خوفٌ طفولي من هذه الصورة، لم أعد أرغب في النظر إليها، فاستدرتُ مغادرًا. بعدها سقطت عينيَّ على كومة من الكتب والنشرات المغَبَّرة المربوطة

بخيط. كان بإمكاني قراءة عنوان الكتاب الذي كان في الأعلى. كان العنوان: «لماذا يختفي الإيمان بالله من العالم؟».

سؤال عجيب!

هل كان للعنوان مبرر بهذه الصيغة؟ وأيَّة نتيجة متهافتة قد يكون مؤلف الكتاب قد خَلُص إليها؟ وما الإجابة المبتذلة التي كان يخبِّئها لقرائه؟ هل ننحى باللائمة على العلم؟ على التقنية؟ على الاشتراكية؟ أم ربما حتى على الكنيسة في النهاية؟

برغم أنني لم أكن أعير اهتمامًا إلى هذه الموضوعات، لم أستطع صرف ذهني عن التفكير في الكتاب، ولا عن السؤال الذي طرحه العنوان. تملَّكتني حالة توتر عصبي حادة، ربما كان سببها الأساسي الخوف من بيئة العمل الجديدة ومن حياة القرية ومن مهمة لم ألمس في نفسي القدرة على الاضطلاع بها، وربما كان هذا الخوف المكتوم هو الذي دفعني للبحث عن شيء يلهيني عن أفكاري. استحوذت عليَّ رغبة قوية في اكتشاف سبب اختفاء الإيمان بالله من العالم، كان عليَّ أن أعرف ذلك على الفور. استولَتْ عليَّ هذه الرغبة مثل الهوس. اعتزمت دخول متجر الكتب واقتناء الكتاب، بل واقتناء المجموعة الكاملة من الكتب لو رفَضَ صاحب المكتبة بيع المجلد وحده، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، لأنني وجدتُ باب المكتبة مُغلقًا.

كان وقت استراحة الغداء، ولم يخطر ذلك ببالي. كان صاحب المحل قد عاد إلى بيته لتناول طعام الغداء. كنت أتضوَّر جوعًا مما زاد ذلك من تعكير مزاجي. هل يتحتم عليَّ الوقوف هنا وانتظار تاجر الخُردة هذا ريثما يتفضَّل عليَّ ويُعاود فتح متجره؟ وينتهي بي الأمر بتفويت موعد القطار؟ لماذا جئتُ إلى المدينة من الأساس؟ ألم يكن من الأجدر بي البقاء في المحطة وتناول غدائي هناك بسلام، مُوفرًا على نفسي تجشُّم هذه المشقَّة.

ربما يعود صاحب المتجر في أيَّة لحظة، من المرجّح أنه يعيش بالقرب من هنا في واحد من تلك المنازل القديمة سيئة التهوية ذوات الواجهات الرمادية القذرة والنوافذ المُعتمة، ربما يكون الآن جالسًا وراء إحدى هذه النوافذ يلتهم وجبته على عَجَل، أو لا يُستبعد أنه لم يغادر المحل على الإطلاق، وهذا مُحتمل أيضًا، ربما كان يجلس في غرفة مجاورة وقد أغلق الباب حتى لا يزعجه متطفِّل في أثناء تناول الطعام. لمحتُ جَرَسًا مُعلَّقًا فوق الباب فقرعتُه، لكن أحدًا لم يفتح لي الباب.

قلت لنفسي باستياء: «لا بد أنه يأخذ نوم القيلولة الآن».

فجأة تمثَّل تاجر الخُردة هذا في ذهني بوضوح: شيخ أصلع ذو لِحية رمادية خفيفة، مُسْتَلْقٍ فوق الأريكة يُشخِّر، وقد سحبَ الأغطية حتى ذقنه، بينما عُلقَّتْ قبعته المُزيَّتة المتصلِّبة على مِسمار إلى جوار الباب. إنه نائم ومن المفترض أن أنتظر هنا حتى يستيقظ. سأنسى الأمر برُمَّته. لماذا لا يتواجد في متجره وقت قدوم الزبائن الغرباء؟! يبدو أنه لا يكترث ببيع بضاعته، لا بأس، فليس من الضروري شراء الكتاب.

اختلستُ نظرة إلى النقوش القوطية البارزة، وكانت نظرتي طافحة بالشكِّ والرِّيبة وكأنني اقترفت فعلًا آثمًا، ثم غادرت المكان، ما إن وصلتُ الممرَّ حتى خطرت ببالي فكرة ترك ورقة إلى بائع الكتب القديمة، وأن أطلب منه شحن الكتاب عبر البريد، فرجعتُ إلى المحل مسرعًا. لم يتبقَّ أمامي مزيد من الوقت. كان المحل ما يزال مُغلقًا، دوَّنتُ اسم الحارة ورقم المنزل واسم صاحب المحل. كان يُدعى «جيرسون» وكان الكتاب معروضًا في الواجهة الزجاجية، كان في مقدوري أن أوفِّر على نفسي مشقَّة العودة إلى المحل ثانية. لكن لم يكن في مقدوري أن أتخيَّل أنني سأعثر على الإجابة عن هذين السؤالين المؤرِّقين في قرية مورفيدي، أقصد سؤال:

لماذا اختفى الإيمان بالله من العالم؟! وسؤال: أيٌّ من الأحياء والأموات ينطبق عليه ملامح التمثال الرخامي؟

وقبل انطلاق القطار بعشر دقائق كنت واقفًا في الميدان المقابل لمحطة القطارات، وهنا واجهت تلك المقابلة غير المتوقَّعة من السيارة الكاديلاك الخضراء. سأوجِز فأقول: جاءت السيارة من الناحية اليمنى بينما كنت أنتظر إشارة ضابط المرور، وخلف عجلة القيادة جلستْ امرأة كنتُ أعرفها جيدًا.

4

الآن، وأنا راقد في غرفة المرضى هاته، وذراعي اليمنى مُمددة على الأغطية كما لو كانت نائمة أو مُخدَّرة، وعيناي تبحثان عن نقطة ارتكاز وسط الخطوط الحمراء والمسامير والنجوم المنقوشة فوق الجدار. أقول الآن، وفي هذه اللحظة العبثية، أشعر بتسارع نبضات قلبي وبتصاعد أنفاسي لأن ذهني مشغول بالتفكير في بيبيشي، بينما كنت في أثناء وجودي في الساحة المقابلة لمحطة القطار، رابط الجأش، مذهولًا من هدوء أعصابي.

يغلب ظني أنَّ لقائي بها كان طبيعيًّا وغير خارج عن المألوف، لكن ما أثار دهشتي أنه كان لقاء اللحظة الضائعة أو ربما لقاء اللحظة الأخيرة. لقد أعياني البحث عن هذه المرأة الجالسة خلف عجلة قيادة السيارة الكاديلاك الخضراء في برلين ولمدة سنة كاملة من دون طائل، والآن وفي اللحظة التي خرجتُ فيها لبدء حياة جديدة، وهي حياة لا أعقِد عليها تطلعات كبرى ولا يحدوني فيها أدنى ذرَّة من أمل، أشعر بهذه اللحظة أمامي مُمِلَّة كئيبة. والمدينة التي كنتُ أفارقها كما يفارق المرء معشوقة باردة أنانية، تلك المدينة الفعمة بملامح قاسية عدائية، ها هي تكشف لي عن ابتسامة ناعمة للمرة الأولى.

«انظر ماذا أحمل لكَ! «هكذا قالتْ»، «أهكذا أفكِّر فيكَ وأنتَ تريدُ المغادرة؟»».

هل ينبغي الآن الرجوع والبقاء؟ هل كان هذا الغرض من اللقاء؟ لو كان الحال هكذا فقد فات الأوان. أم أن الأمر كان مجرد كلمة وداع أُرسِلَتْ إليَّ من العالَم الذي خلَّفتُه ورائي؟ وداع ساخر. أم أنها كانت إشارة أخيرة آتية من الشاطيء الآخر؟ لم يكن الأمر هذا ولا ذاك. كان اللقاء مجرد استعادة ومقدمة لحدث أكبر، لكني لم أجرؤ حينذاك على التفكير في هذا الأمر.

كانت المعلومة الوحيدة المعروفة عنها في معهد بحوث البكتيريا أن اسمها «كاليستو تساناريس» وأنها تدرس الكيمياء العضوية، وبمرور الوقت لم تزد معلوماتنا عنها إلا نذرًا يسيرًا. كانت قد غادرت أثينا وهي في الثانية عشرة من عمرها، وعاشت في كَنَف أمها في فيلا تقع ناحية «تيرجارتين»، ولم تكن تخالط إلا أبناء الطبقات العليا في المجتمع، وقد تُوفي والدها الذي كان يعمل كولونيل في الجيش اليوناني ومساعدًا للملك.

كان هذا كل شيء وكان علينا أن نكتفي بذلك، لأن «كاليستو تساناريس» لم تكن تخوض معنا في شؤونها الشخصية، وكانت تحرص على أن تبقى على مسافة من الآخرين، حتى وإن انغمسَتْ في محادثة قصيرة في أي وقت. لم يكن حديثها يتجاوز مناقشة الأمور التِّقْنِية مثل أن موقد بنسن لا يعمل بشكل صحيح، أو السؤال عما إذا كان من المستحسن إلقاء نظرة على جهاز التعقيم عالي الضغط.

عندما ظهرتْ للمرة الأولى في المعهد أَسَرَتْ تلك الطالبة اليونانية لُبَّ الجميع، وسعى كل واحدٍ منا إلى أن يلفتَ انتباهها، فأُحِيطَتْ بشتَّى صنوف الاهتمام والعناية، فكانوا يسألونها عن خططها العلمية مستقبلًا ويقدِّمون إليها كافة أشكال المشورة والدَّعم. إلا أن اهتمامهم بها أخذ في

التضاؤل لَمَّا لمسوا منها لاحقًا أنها تقابل ألوان الاهتمام بالصدِّ والإعراض البارد، وإن لم يختفِ اهتمامهم بها كليًّا. كانت تُوصَف بالفتاة المُتغطرسة والمُتعجرفة والمُدلَّلة ومُفرطة الحساسية، ومن المؤكد «بالحمقاء» كذلك.

قيل أيضًا: «نحن الأكاديميون لا نساوي في نظرها شيئًا، عليكَ أن تمتلك سيارة ميرسيدس على الأقل لكي تلفتَ انتباهها». بدا أن إعراضها عن مخالطة غيرها كان مقصورًا على قاعات المعامل فقط، لأنها عندما كانت تغادر المعهد في المساء، كانت تجد «فرسانًا معجبين» ينتظرون قدومها ويفتحون لها باب السيارة.

كنا نستطيع تمييز المعجبين، كلٌّ على شاكلته، وكان لكل معجب وطراز السيارة التي يستقلّها سِمة مميزِّة. فاعتدنا أن نسجِّل بدقة ما إذا كان «البطريرك أبراهام» هو من أقلَّها اليوم السابق، أو أنها شُوهدت تركب سيارة «الرشيق صاحب الضحكة الساحرة». كان «البطريريك أبراهام» شيخًا ذا لِحية بيضاء وهيئة تنمُّ عن انحداره من عِرقٍ سَامٍ، أما الرشيق الضحوك فكان رجلًا في ريعان الشباب بوجه ودودٍ إلى أقصى حد.

إلى جانب ذلك كان هناك «صانع البيرة المكسيكي»، و«صائد الطرائد الكبرى» و«أمير كاليكا»[1]. في إحدى المرات بَقِيَتْ تواصل عملها بالمختبر حتى ساعة متأخرة، فجاء صائد الطرائد الكبيرة يسأل عنها. كنا نعرف أنها في غرفة تبديل الملابس، وتعاملنا معه مثل دخيل غير مرغوب فيه، وأخبرناه بلهجة حادة أنه غريب عن المعهد ومن ثَمَّ لن يُسمح له بدخول المختبر، وطلبنا منه الانتظار بالخارج. نال صاحبنا وصلة التوبيخ

(1) كاليكا: دولة تقع حاليًّا داخل ما يُعرف بالاتحاد الفيدرالي الروسي جنوب شرقي الجزء الأوروبي من روسيا في سهوب بحر قزوين، وينتمي شعب الكاليك قليل العدد الى أسرة الشعوب المنغولية الأصل. (المترجم).

وغادر المكان بهدوء، مما أثار استيائي لما عُرف عني من أني مبارز من طراز رفيع. كم وددتُ بشدة منازلة «صائد الطرائد الكبرى»، لا بسبب غيرتي منه، وإنما بسبب رغبتي في أن أداعب خيالها أو أن أنجحَ على الأقل في جذب انتباهها.

وقبيل نهاية الفصل الدراسي أُصبت بوعكة صحية اضطرَّتني للبقاء في المنزل، وعقب عودتي إلى المعهد علمتُ أن «كاليستو تساناريس» قد انقطعت عن الدراسة. ثم علمتُ لاحقًا أنها ودّعَتْ زملاء المعهد فردًا فردًا وأنها سألت عني، لكنها لم تُفصِح عن خططها المستقبلية إلا بكلمات مبتورة.

من بين ما تردَّد في المعهد أنها هجرت الدراسة لتتزوج عما قريب بأمير «كاليكا» لكني لم أصدِّق تلك المزاعم، لما أبدَته كاليستو في أبحاثها العلمية من حماسة متوقِّدة وطموح جامح يكاد يقارب الهَوَس، فضلًا عن أن ذلك المدعُو «أمير كاميكا» لم يُرَ في انتظارها خارج المعهد منذ شهرين، ويبدو أنه فقد وسامته الإسبانية الطابع. على مدار نصف عام كنت أعمل معها في غرفة واحدة من الصباح حتى وقت متأخر بعد الظهر. ولو لم تخُنِّي الذاكرة لم أتبادل معها في أثناء تلك الفترة أكثر من عشر كلمات، باستثناء التحيَّة لدى حضورها وانصرافها.

في البداية كنت مقتنعًا أنها ستظهر في المختبر مرة أخرى عمَّا قريب وتبدأ عملًا جديدًا. لم أستطع استيعاب حقيقة أن الأيام التي كنتُ أراها فيها كل يوم وأسمع صوتها، وأراقب مشيتها وحركاتها بأمِّ عيني، قد ذهبت بلا رجعة. وبعد عدة أسابيع من الانتظار العابث بدأت في البحث عنها.

لعلَّ هناك وسائل دقيقة ومؤكدة للعثور على مكان شخص في برلين والوصول إلى محل إقامته، وربما كان في مقدور مكتب تحريات خاص حسمَ هذه المهمة في غضون أيام قليلة، لكنني لم أرَ سبيلًا سوى أن أسلك طرقًا أخرى. كان من اللازم أن تكون مقابلتي «بكاليستو تساناريس» من قبيل الصُّدفة البحتة، أو على الأقل أن تراها هي صُدفة بحتة.

في المساء كنتُ أشقُّ طريقي عبر صالات الطعام في المطاعم الفاخرة التي لم أكن حتى أعرف اسمها. عادةً عندما تتجوَّل في مكان لا تنوي البقاء فيه ينتابكَ شعور بأنك شخص مثيرٌ للانتباه أو مثير للشك، كنت أدَّعي دائمًا أنني أبحث عن طاولة شاغرة أو أنني على موعد مع شخص، وكنت أُلقى على مسامع النُدُل الذين يصادفونني أسماءَ وهمية مُخترَعة، كأن أسأل مثلًا عن القنصل «شتوكشتروم» أو القاضي «باوشتلوت»، وكنت أسارع إلى مغادرة المكان بإيماءةٍ ساخطة عندما يخبرونني أنهم لا يعرفون أحدًا بهذا الاسم. في بعض الأحيان كنت أجلس إلى طاولة وأطلبُ شيئًا خفيفًا، وفي مرة فاجأني نادلٌ بقوله: إن السيد القنصل «شتوكشتورم» قد غادرَ للتوِّ، وهو رجل ضخم الجُثة، فارع الطول، يضع نظارة طبية ذات إطار بلاستيكي!

كنت أفتش عن بيبيشي في الخامسة صباحًا في قاعات الفنادق الكبيرة بين الأزواج الراقصين، وكنتُ أقف أمام بوابات المسارح في ليالي العرض الأول، مراقبًا توافد السيارات، وكنت أحرص أشد الحرص على حضور مناسبات المعارض الفنية أو عروض الأفلام الصوتية [غير الصامتة]. وفي إحدى المرات تمكنت بشقّ الأنفس من الحصول على دعوة للتجول في أروقة السفارة اليونانية، إلا إني لم ألمح طيفها حتى هناك، فتملَّكني قنوط شديد للمرة الأولى.

تذكَّرتُ أن أحد زملائي أخبرني أنه رأى بيبيشي في إحدى الحانات، فصرتُ دائم التردد عليها، وكنت أجلس لساعات، ليلة وراء ليلة، أرتشف كؤوس الكوكتيل، مراقبًا بوابة الحانة. في بداية الأمر كانت تنتابني قشعريرة لهفة خافتة كلما فُتح الباب. وبمرور الوقت لم أعد أهتم بالنظر على الإطلاق، تعوّدتُ، دون قصدٍ منِّي، على حقيقة أن الأشخاص الذين لا أكترث لهم ولا يعنيني أمرهم، هم من يدخلون من الباب. وهكذا كانت نتيجة بحثي عنها أقل من هزيلة، حيث لم أخرج إلا بأغاني الرقص وأسماء المقطوعات الموسيقية المعزوفة حديثًا، أمَّا بيبيشي فلم أرَها قَطُّ.

ذات مرَّة قابلتُ «صائد الطرائد الكبرى». كان جالسًا بمفرده إلى طاولة في أحد البارات، يدخِّن سيجارًا ثَخينًا، شاخصًا ببصره إلى الأمام. كانت أمارات التقدُّم في السن باديةً على وجهه بشكل ملحوظ. عندما رأيته جالسًا غارقًا في وحدته راودتني فكرة مُفادها أنه هو أيضًا فقد أثر بيبيشي وأنه ما يفتأ يطاردها هنا وهناك في أرجاء برلين بسيارته بتوتِّر دائم. انتابني فجأة نوع من التعاطف حِيال الرجل الذي كنت أرغب في القتال ضده ذات مرة. كنا رفاقَ القَدَر. كدتُ أقوم لأصافحه، لكنه لم يتعرف عليَّ، وبدا منزعجًا من نظراتي. غَـيَّر مكانه وجلس حتى لا أرى وجهه، ثم ما لبث أن أخرج صحيفة من جَيبه وبدأ في القراءة.

بقيتُ أبحث عن بيبيشي حتى اليوم الأخير. الغريب أن فكرة احتمال أنها قد غادرتْ برلين قد راودتني بينما أقف أمام شباك التذاكر، أقطع تذكرة السفر إلى أوزنابروك. وهنا، في أوزنابروك، في الساحة المقابلة لمحطة القطار، رأيتها. توقفت السيارة الكاديلاك الخضراء على بُعد عشر خطوات تقريبًا مني، وكانت بيبيشي ترتدي معطفًا وقبعة رمادية اللون.

وفي تلك اللحظة كنت سعيدًا، بل في غمرة سعادتي. لم تكن تحدوني أيَّة رغبة في أن تراني بيبيشي أو أن تتعرَّف عليَّ، كان يكفيني أن تكون هناك، بحسبي أني رأيتها. أعتقد أن الأمر برُمَّته لم يستمر إلا بضع ثوان. سَوَّتْ ملابسها، وألقَتْ بما تبقى من السيجارة واستأنفتْ السيارة مسيرتها.

وفي اللحظة التي بدأتْ فيها في الابتعاد عني، ببطء في البداية، وسريعًا بعد ذلك، في هذه اللحظة وحدها أدركتُ أنه كان يتحتَّم عليَّ أن أفعل شيئًا، وكان يتحتَّم عليَّ أن أقفز إلى أقرب سيارة أجرة لأقتفي أثرها، لا للتحدث معها، لا، وإنما كيلا تغيب عن بصري من جديد. أردت أن أعرف إلى أين هي ذاهبة، وأين منزلها. لكني في الوقت ذاته أدركت أنني قد صرت رجلًا صاحب مسؤولية وأني لم أعد أملك وقتي كما كنت في السابق.

غادر قطاري في غضون دقائق، وكانت سيارة تنتظرني في محطة «ريدا».

«لا يهم»، صرخ صوت بداخلي، «عليكَ أن تتبعها».

ولكن فات الميعاد. كانت السيارة الخضراء قد اختفتْ في أحد الشوارع الواسعة المؤدية إلى وسط المدينة.

«وداعًا يا بيبيشي!»، قلتُ في نفسي بهدوء. ها أنا ذا أفقد أثركِ للمرة الثانية. منحني القدرُ فرصة لكني أضعتُها. قَدَر؟ ولِمَ أقول القَدَر؟ وضعك الله في طريقي يا بيبيشي. وضعكِ الله، لا القدر. لماذا يزول الإيمان بالله من العالم؟ أشرقَتْ الفكرة في ذهني مجددًا، ولوهلة رأيتها وجه الرخامي المتجمِّد خارج نافذة متجر الأنتيكات.

نهضتُ وجُلت ببصري في أرجاء المكان. وقفت في منتصف الساحة، طوقّني جحيم من الضوضاء، صرخ سائقو سيارات الأجرة في وجهي، وقفز سائق دراجة نارية من دراجته أمامي مباشرة، مُلوِّحًا بقبضته في وجهي. لوّحَ ضابط المرور بإشارة عدة مرات متتالية، لكني لم أفهمه. هل ينبغي التوقف أم مواصلة السير؟ إلى الأمام؟ أم إلى اليمين؟ أم إلى اليسار؟ قفزتُ خطوة إلى اليمين فسقطتْ الصُحف والمجلات التي كنت أحملها فوق الأرض. انحنيتُ لألتقطها وسمعت صوت بُوق يدوِّي وراء ظهري، فتركتها وقفزتُ إلى الجانب.

لا! لابد أنني احتفظت بالصحف لأنني قرأتها لاحقًا في أثناء ركوب القطار؛ لذا حملتها وانتحيتُ جانبًا وأنا أقفز ثُمَّ.. ثُمَّ ماذا حدث بعد ذلك؟ لم يحدث شيء. صعدت إلى الرصيف وذهبت إلى محطة القطار. اشتريت تذكرتي وحمَلتُ أمتعتي. ثم اتخذتُ مقعدي في القطار.

5

ولما وصلت إلى محطة «ريدا» لقيت في انتظاري زلَّاجة كبيرة مزوَّدة بأربعة مقاعد.

اعتنى بأمتعتي فتى يافع لا تشِي ملامحه بأنه سائق. رفعتُ ياقة المعطف وسحبتُ البطانية فوق ركبتي، ثم انطلقنا لنشقَّ طريقنا عبر أرض بور قاحلة، تحيطنا أشجار عارية الأغصان وأسفل الزلَّاجة القشُّ المكسوُّ بالثلوج. أثارتْ رتابة هذا المنظر الطبيعي المُقفر الكآبة في نفسي، وزاد من كآبتي ضوء النهار الخافت الذي شارف على نهايته.

غَـفوتُ، وكان التعب ينال من جسمي دائمًا عندما أكون على سفر، ولم أستيقظ إلا عندما توقَّفتْ الزلاجة أمام كوخ. سمعتُ نباح كلبٍ وفتحتُ عينيَّ الناعستين فرأيتُ ذلك الرجل الذي يمسح الأرض هنا في غرفتي بالمستشفى وهو يقف متظاهرًا أنه يراني للمرة الأولى في حياته. كان الأمير براكساتين واقفًا إلى جانب زلَّاجة، مرتديًا معطفًا قصيرًا من الفراء وحذاءًا عالي الكعب، يبتسم في وجهي. كان أول ما لفتَ انتباهي النَّدَبة التي تعلو شفته العليا، مَحِيطة على نحو رديء، مُخلِّفةً أثر جرح لم يندمل. فكَّرت: أيَّة إصابة تلك التي أصابته؟ كان فمه يشبه منقار طائر كبير. سألني:

«هل استمتعتَ برحلتكَ يا دكتور؟ لقد أرسلتُ إليكَ الزلَّاجة الكبيرة لحمل الأمتعة، لكني أرى أنك لا تحمل سوى تَينك الحقيبتين الصغيرين».

كان نفسه الرجل الذي تسلل إلى غرفتي في المستشفى مُتأبِّطًا مكنسةً تحت ذراعه، يتحدث إليَّ بنبرةٍ ودودة لا تخلو من سموٍّ وكأنه يتحدث إلى أحد رؤسائه. خِلتُه بالطبع صاحب عزبة «مورفيدي».

«هل أتشرَّفُ الآن بالحديث إلى البارون فون مالشين شخصيًّا؟».

«لا، لستُ البارون، أنا ناظر العزبة».

قاطعني ثم واصل: «أنا الأمير أركادي براكساتين، نعم أنا روسي الأصل، مجرد ورقة شجر طاحت بها الريح العاتية، واحد من المهاجرين الذين يحكون القصة نفسها، قصة امتلاكهم قصرًا في بيتروجراد وآخر في موسكو، ثم انتهى بهم الحال للعمل كنُدُل في المطاعم، لكن الحظ ابتسم لي ولم أعمل نادلًا، بل ناظرًا لهذه العزبة».

كان الروسي ما يزال قابضًا على كفِّي وهو يتكلم، وكانت نبرة كلامه تفوح برائحة لا مبالاة مغموسة في الحزن، وبمسحة خفيفة من السخرية من الذات التي تُحْرُج المستمع إليها. كنتُ أودُّ تقديم نفسي إليه، لكن يبدو أنه لم يرَ أهمية للأمر، ولم يترك لي فرصة للكلام.

«مفتِّش، ناظر، إداري سَمِّني كما تشاء».

واصل كلامه:

«لا بأس أن أكون طاهيًا، بل ربما تكمن مواهبي أكثر في مجال الطهي. في مسقط رأسي كانت فطائر السمك التي أُعدِّها بيدي، وحساء فِطر الكريمة من الوجبات التي تحظى بسمعة طيبة في أرجاء الحي، آه... كانت أيامًا جديرة بأن تُعاش، لكن هنا، في هذه البلدة، وفي هذه المنطقة... بالمناسبة هل تلعب الورق يا دكتور؟ ربما «القُمار» أو «الكوتشينة»؟ لا تلعب؟ ألف خسارة! هل تعلم أن هذه المنطقة ليست إلا سياجًا كبيرًا من الوَحدة؟ سترى بنفسك، لا حياة اجتماعية هنا».

أخيرًا أطلق الرَّجل يدي وأشعل سيجارة، شاخصًا ببصره كالحالم إلى السماء حالكة السواد والقمر الشاحب، بينما رحتُ ألفُّ نفسي داخل البطانية وأنا أرتعد من البرد. بعدها أخذ يواصل مناجاته الذاتية قائلًا:

«لا بأس من هذه الوَحدة بالنسبة إليَّ، لكن الحياة هنا ليست إلا عقابًا. أحيانًا عندما أرتدي ملابسي في الصباح الباكر أقول لنفسي: ها أنت تحيا حياة بائسة، لكن لا تلومنَّ إلا نفسكَ، لأنها كانت إرادتك. آنذاك عندما اعتقلني البلاشفة -ولن أعرف حتى تحين لحظة موتي لِمَ فعلوا ذلك- أقول كنتُ أخشى على حياتي، نعم، حتى أنني ارتعدتُ خوفًا وأنا جاثٍ على ركبتي، ضارعًا إلى الله وأقول: «ما أزال شابًّا، ارحمني، أريد أن أعيش، فقال لي الربُّ: «لتذهب إلى الجحيم، أنتَ شهيد الإيمان السليم عندي، لذا اذهبْ وعِشْ حياتك.. وهكذا عشتُ هذه الحياة. أمَّا الآخرون، الذين اقترفوا الخطايا وأضمروا الشرَّ في قلوبهم، وراهنوا وشربوا وبدَّدوا الذهب والفضة ولم يبكوا على خطاياهم، فَهُم اليوم سعداء، مثلهم مثل الفلاحين الذين يكتفون بقليل من النبيذ المحلي والبُرغل ولا يجهدون أذهانهم في التفكير. أمَّا أنا، كما ترى، لا أتوقَّف عن التفكير، هذا بيت الدَّاء عندي يا حضرة الطبيب، أن ذهني دائم التفكير، هل تتعاطف مع هؤلاء الحُمر (البلاشفة)؟».

أخبرته أنني غير مهتم بالسياسة. ويبدو أنه استشعر من نبرة صوتي الحَنق ونفاد الصبر، لأنه تراجع خطوة إلى الوراء وخبط بكفِّه على جبينه وشرع يلوم نفسه:

«ها أنا ذا أقف وأتكلم، وأثرثر في السياسة، بينما في المنزل ترقد طفلة مريضة. تُرى ماذا ستقول فيَّ الآن يا دكتور؟ أمَرني البارون صديقي ووليُّ نعمتي: أركادي فيودوروفيتش، أن انطلقْ الآن للقاء الطبيب وقال: لو لم

يكن به تغب من أثر السفر فاطلب منه التوقف والتوجُّه إلى زيارة الطفلة المريضة. إنها فتاة صغيرة، ترقد هنا في الكوخ، ترتعد من الحُمَّى منذ يومين، ربما كانت مصابة بالحُمَّى القرمزية».

نزلتُ من الزَّلاجة وتبِعتُ خطواته تجاه المنزل. في هذه الأثناء قام المُدِّرب بفك أسرجة الخيول المربوطة والسماح لها بالحركة. خرج ثعلب صغير مقيَّد بالسلاسل من بيت الكلب مُزمجرًا وتعالى صوته بالعُواء.

ركله الشاب الرُّوسي ولوَّح بقبضته في وجهه وصرخ: «أغلق فمك، أيها الوغد الملعون، اللعنة عليك ثلاث مرات! اختفِ داخل حفرتك. ما زلتَ لا تعرفني، لكن يتحتَّم عليك الآن أن تعرفني. أنت لا تصلح لأي شيء، فأنت تلتهم العَلَف هنا بلا نفع!».

دخلنا المنزل. عَبر ممرٍّ مضاءٍ بإضاءة شبه معتمة، وصلنا إلى غرفة مظلمة باردة، لم أكن قادرًا على رؤية شيء واصطدمتْ ذقني بحافة كرسي، فقال الشاب الروسي: «واصلْ السير إلى الأمام يا دكتور»، لكني ما لبثتُ أن توقَّفتُ لأنصتَ إلى عزف كمان قادم من الغرفة المجاورة. كانت الحركات الأولى من سوناتا «تارتيني»[1].

كان ذلك اللَّحن الموسيقي الكئيب الذي تتراقص فيه الأشباح يأسِرني كلما استمعتُ إليه، وكان مقترنًا عندي ببعض ذكريات الطفولة. أنا في شقَّة والدي، في يوم الأحد. غادر الجميع وتركوني بمفردي. سيهبطُ الظلام ويلفُّ المكانَ السكون، صوت بكاء الرياح الخافت يتناهى إليَّ من داخل المدخنة، يعتريني الخوف لأن كل شيء حولنا مسحور، خوف طفوليٌّ هائل من أن أكون وحيدًا، خوف من الغَدِ ومن الحياة.

---

(1) المقصود جيوسيب تارتيني وهو مُلَحِّن وعازف إيطالي من عصر الباروك، أشهر وأهم معزوفاته سوناتا الكمان «Violin Sonata No. 3 in G minor» المعروفة باسم سوناتا الشيطان Devil's Trill. (المترجم).

وقفتُ لوهلةٍ مذعورًا مثل طفل يوشك أن يجهش بالبكاء، لكني سرعان ما استعدتُ شتات نفسي وسألت: «من تُراه في هذا المنزل يلعب الحركة الأولى من سوناتا معزوفة الشيطان لتارتيني؟».

فما لبث الشاب الروسي أن أجابني وكأنه كان يسْترقُ السمع إلى أفكاري: «إنه فيديريكو. حَدَسْتُ أني سأراه اليوم هنا. لم يَرَه أحد منذ الصباح الباكر. ها هو يعزف على الكمان بدلًا من تعلُّم درس اللغة الفرنسية في المنزل، تفضَّل بالدخول يا دكتور!».

توقَّف عزف الكمان عندما دخلنا الغرفة. من طَرَفِ السرير نهضَتْ امرأة في منتصف العمر، ذات وجنتيْن متهدِّلين، تبدو على ملامحها أمارات التَّعب والسهر طوال الليل، ورمقتني بنظرة قلقة متشوِّفة. سقط شعاع الضوء لمصباح الكيروسين الخافت على اللِّحاف والوسائد وعلى الوجه الناحل للمريضة الصغيرة، التي كان عمرها ربما يتراوح بين الثالثة عشر أو الرابعة عشر. أعلى السرير عُلِّق تمثال من خشب البلوط الأسود للسيد المسيح ناشرًا ذراعيه، كان الصبي الذي عزَفَ مقطوعة الشيطان جالسًا بلا حَراك وسط الظلام عند حافة النافذة والكمان مستقرٌّ فوق ركبتيه.

سأل الروسي عندما أنهيتُ فحص الطفلة: «ما الأخبار؟».

قلت: «أنت مُحقٌّ تمامًا، إنها مُصابة بالحُمَّى القرمزية، سأبلغُ عمدة القرية بالعدوى».

قال الروسي: «البارون هو عمدة القرية وأنا أدير أشغاله؛ لذا سأملأ النموذج وأرسله لك للتوقيع غدًا».

بينما كنت أغسل يدي أَمْلَيتُ على المرأة التعليمات اللازمة طوال الليل. بصوت طافح بالخوف والإثارة راحت تكرر كل نقطة من التعليمات الطبية لـتُفهمني أنها لن تنسى شيئًا، بينما لم يغب بصرها عنِّي لحظة واحدة. التفتَ الروسي إلى الصبي الذي كان ما يزال جالسًا عند حافة النافذة بلا حَراك.

«هل ترى يا فيديريكو مدى الإحراج الذي أوقعتَني فيه؟ أنتَ ممنوع من المجيء إلى هنا، لكنك تضرب عرض الحائط بالكلام وتأتي كل يوم مهرولًا وكأنك محمول على بساط الريح. وها أنتَ ذا إلى جوار سرير مريضة بالحُمَّى القرمزية. هذه نتيجة عصيانك. ماذا ينبغي لي أن أفعل الآن؟! سأخبر والدكَ أنني وجدتكَ هنا».

«سوف تصمت يا أركادي فيودوروفيتش».

شقَّ صوتُ الصبي ظلام الغرفة وأردف: «أعلم أنك ستلزم الصمت».

«صحيح؟ هل أنت متأكد مما تقول؟ ربما تهددني؟ وبماذا تهددني يا فيديريكو؟ أنا أتحدث معك بجديَّة الآن. ما قصدكَ بهذه الكلمات؟ أجِبني!».

لكن الصبي لم ينبس ببنت شفة وهو ما أثار قلق الروسي الذي تقدَّم خطوة إلى الأمام وتابع كلامه قائلًا:

«مثل بومة ساكنة في جُنح الظلام تجلس هنا وتهدِّدني دون أن تفتح فمها. هل تحسبني خائفًا؟ ومِمَّ أخاف؟ اسمع! لقد لعبت معك من قبل لكنني لم أفعل ذلك لتزْجِية الوقت، وإنما لتشتيت انتباهك. أمَّا بالنسبة للأوراق التي وقَّعْتَها بخطِّكَ فـــ...».

«أنا لا أتحدَّث عن لعبة (أحمر وأسود)»[1]، قالها الصبي بصوت خافت من الغطرسة والاستياء، ثم تابع:

«أنا لم أهدِّدك، لكنك ستلزم الصمت يا أركادي فيودوروفيتش، ببساطة لأنك رجل نبيل».

بعد دقيقة من التفكير قال الروسي: «هذا ما تعنيه إذن، لا بأس، دعنا نفرض بصفتي رجلًا نبيلًا أنني سألتزم الصمت مرة أخرى إرضاءًا لخاطرك، ولكن هذا لا يعني أنك لن تعاود المجيء إلى هنا غدًا».

أجاب الصبي: «هذا مؤكد بالطبع.. سآتي غدًا وكل يوم».

سحبتْ الفتاة الصغيرة يدها من تحت الأغطية وسألت بصوت خفيض من دون أن تفتح عينيها:

«فيديريكو! هل ما تزال هنا، فيديريكو؟».

هبط الصبي بصمت من فوق حافة النافذة وقال:

«نعم، ما زلت هنا، يا إلزي، أنا إلى جوارك. الطبيب أيضًا إلى جوارك، ستستردين عافيتك عمَّا قريب وستنهضين مجددًا».

في غضون ذلك بدا أن الشاب الروسي قد حسم أمره فقال: «هذا من رابع المستحيلات، لا يمكنني السماح لك بمواصلة هذه الزيارات، لن أقدر على تحمُّل المسؤولية أمام والدك».

قاطعه الصبي بتلويحة من يده: «لن تتحمَّل أية مسؤولية، أركادي فيودوروفيتش، فأنا أتحمل المسؤولية الكاملة. أنت لا تعرف شيئًا عن الأمر ولم ترني هنا من قبل».

---

(1) Trente et Quarante «ثلاثون، وأربعون، وتُسمَّى أيضًا روج إت نوير، لعبة ورق فرنسية تُلعب في كازينوهات القمار». (المترجم).

حتى هذه اللحظة كنتُ أقرب إلى الاستمتاع مني إلى الانزعاج بسبب الطريقة التي تعامل بها الروسي مع الصبي المراهق، وبدا لي أن الوقت قد حان للتدخُّل بنفسي.

قلت له: «أيها الشاب المحترم، ليس الأمر بهذه البساطة. ينبغي أن أُدْلي بدلوي في الأمر كطبيب. لقد صرتَ حاملًا للمرض وناقلًا له من جرَّاء وجودك في هذه الغرفة، وهو ما يمثِّل خطورة بالغة على المحيطين بك. هل تفهم ذلك؟».

لم يُجب الصبي. كان يقف في الظلام وكنتُ أشعر بنظراته، فتابعتُ كلامي: «لذا، ستبقى في فترة عزل صحي تحت المتابعة الطبية لمدة أسبوعين. سوف أهتم بالأمر، ولكن بالطبع يجب أن أبلغ والدك بهذا».

سألني: «هل أنت جاد؟».

لاحظتُ أن نبرة صوته قد تبدّلت بعد أن فقدتْ شيئًا من ثباتها.

أجبته: «بالتأكيد، أنا مُتَعب ومُنْهك القوى، ولستُ في مزاج يسمح لي بالمُزاح».

«لا، لا يجب أن تخبر والدي»، ناشدني الصبي بهدوء وإلحاح، «بحق السماء لا تقل له أنك رأيتني هنا».

«للأسف ليس أمامي خيار آخر».

شرحتُ بنبرة لا مبالية قدر الإمكان:

«أعتقد أنه يمكننا الانصراف الآن، ليس لدي ما أفعله هنا اليوم. علاوة على ذلك فأنتَ لا تتحلَّى بالشجاعة الكافية في نظري، سيدي الصغير. عندما كنت في مثل سنِّكَ كنت أتحمَّل عواقب أفعالي بمزيد من الشجاعة».

غشي الصمتُ الغرفة هنيهة من الوقت، لم أكنْ أسمع شيئًا سوى لُهاث أنفاس الطفلة المحمومة وطقطقة مصباح الكيروسين. قال الصبي فجأة: «أركادي فيودوروفيتش: أنت صديقي. لماذا لا تساعدني.. ها أنت ذا تقف وتسمح لي بالإهانة».

قال الروسي: «ما كان يجب أن تقول ذلك يا دكتور، إنه في موقف لا يُحسد عليه، الأحرى بنا أن نبذل جهدًا أكبر لمساعدته. ألا تعتقد أنه يكفي إذا عـقَّـمنـا ملابسه وملابسه الداخلية في المنزل؟».

«ربما يكون هذا كافيًا، لكنكَ سمعتَ بأذنيك أن الشاب النبيل يعتزم العودة إلى هنا غدًا وكل يوم».

وقف الشاب الصغير مستندًا إلى حافة النافذة وهو يحدِّق إليَّ، ثم قال: «وماذا إذا وعدتكَ بعدم المجيء إلى هنا مجددًا؟».

«هل تعوّدتَ على العودة في قراراتك بهذه السرعة؟ ثمَّ من يضمن لي الوفاء بكلمتكَ؟».

ساد الصمتُ الغرفة من جديد فعاد الروسي إلى الكلام قائلًا:

«لا ينبغي أن نظلم فيديركو يا حضرة الطبيب. إنكَ تتحدث هكذا لأنك لا تعرفه جيدًا، أما أنا فأعرفه حق المعرفة، إذا قطعَ وعدًا أوفَى به، أضمنه برقبتي».

«عظيم، فليعطني وعدًا الآن».

«سأعطي وعدًا لك أنت يا أركادي فيودوروفيتش»، لأنكَ صديقي الصدوق كما أنك رجل نبيل، لن أخطو باب هذا المنزل طالما كانت إلزي مريضة، هل يكفيكَ ذلك؟».

كان السؤال موجهًا إلى الروسي، إلا أنني أجبتُ قائلًا:

«يكفيني».

اقترب الصبي مثل ظلٍّ يتحرك، وقال:

«إلزي: هل تسمعينني؟ لن آتي إلى هنا بعد الآن، لقد سمعتِ ذلك، لقد أعطيتُ كلمتي، كنت مضطرًا إلى فعل ذلك. تعلمين أنه إذا اكتشف أبي وجودي معكِ فسيأمر بإرسالكِ بعيدًا عن هنا، بعيدًا جدًا، وربما حتى إلى المدينة لتعيشي مع غرباء؛ لذا من الأفضل ألا آتي. هل تسمعينني يا إلزي؟».

همسَتْ المرأة: «إنها لا تسمعك يا سيدي الصغير، إنها نائمة».

أخذَتْ المرأة المصباح ووضعته فوق المنضدة فانكشفت على ضوئه ملامح وجه الصبي للمرة الأولى. وكان الشعور بالاختناق هو أول ما انتابني، ولو سألني أي شخص سؤالًا الآن، كالرجل الروسي مثلًا، فلن أقدر على أن أنبس بكلمة. شعرت بانقباضٍ ناحية القلب، وسقط الترمومتر من يدي، وكانت ركبتاي ترتعدان، وبشكل غريزي أردتُ الاستناد إلى ظهر الكرسي.

عقب ارتباك الثواني الأولى، وعندما تمالكتُ أعصابي وأعدتُ التفكير وقلت لنفسي: إن ما رأيته من المستحيل أن يكون حقيقيًّا وأنه لم يزد عن كونه مجرد هلوسة ناجم عن أعصاب متوترة وذاكرة مخاتلة. لقد أخْفَتَ وجه الصبي الحقيقي ذكرى صورة أخرى لم تتوقف عن مطاردتي طوال اليوم.

هاجس مزعج يتحتَّم عليَّ التخلُّص منه سريعًا. انحنى الصبي ورفع الترمومتر من فوق الأرض وأعطاني إياه. في هذه اللحظة وبعدما نظرت إلى هذا الوجه للمرة الثانية، ورأيته رؤية مختلفة عمَّا رأيته سابقًا، صار واضحًا إليَّ الآن أن الأمر لم يكن إلا خداع حواس. وبشكل عصي على

التفسير كانت ملامح وجه الصبي تحمل ملامح النقش الرخامي القوطي الذي كنت قد رأيته قبل ساعات قليلة وسط ركام الخردة القديمة خلف نافذة تاجر التحف حينما توقَّف بي القطار في مدينة أوزنابروك.

لم يأسر انتباهي تشابه الملامح الخارجية بقدر ما أسرتني تعابير وجهه التي لم تختلف عما رأيته في تفاصيل التمثال؛ إذ وجدتُ فيه ذلك التجاور الغامض بين العنف الوحشي وحسن الطلَّة البهي، وهو ما أذهلني في تفاصيل التمثال. كان الأنف والذقن مختلفين بالطبع؛ كانا أقل تحديدًا وأكثر نعومة. بدا لي أن الشخص الذي يحمل تلك الملامح قادر على تجسيد أشدَّ المشاعر وحشية وأشدَّها رقة في آن واحد، كان أشدَّ الأشياء حدَّة وإدهاشًا مجتمعة في هذا الوجه: تَينك العينان الزرقاوان النجلاوان المتألقتان بلمعة فضية.

عندما كنت أمام نافذة متجر الكتب استطعتُ انتزاع نفسي بقرار مفاجيء من سيطرة صورة التمثال الرخامي، أما هنا فلم أملك سوى الوقوف مدهوشًا محدِّقًا في ذلك الوجه وفي تَينك العينين. ربما كانت طريقة لا تخلو من سخافة، لكن لا يبدو أن الصبي أو ناظر العزبة قد لاحظا ما يعتمل بداخلي. كتمَ الروسي تثاؤبه وسألني:

«هل أنت جاهز يا دكتور؟ هل نذهب الآن؟».

ثم ما لبث أن التفتَ إلى فيديريكو من دون انتظار ردٍ مني قائلًا:

«الزَّلَّاجة بالخارج. الزَّلَّاجة الكبيرة. هناك مكان متسع لأكثر من ثلاثة أفراد، وبالتالي ستركب معنا يا فيديريكو».

قال الصبي: «شكرًا.. أُفضِّل المشي، أعرف طريقًا أقصَر».

«من المؤكَّد أنك تعرف الطريق جيدًا، تعرفه عن ظهر قلب».

سَخِرَ الروسي من ردِّ الصبي: «لا أخشى عليك من أن تضلَّ الطريق».

لكن الصبي لم يُجِب. اتجَّه ناحية السرير متأبطًا آلة الكمان وراح يحدِّق إلى الطفلة النائمة، ثم سحب معطفه وقبعته، وبإيماءة خفيفة سار أمامي مغادرًا الغرفة.

قال الروسي عندما بدأت الزَّلَّاجة في الانطلاق:

«لقد أهنتَــه متعمِّدًا يا حضرة الطبيب، أستطيع أن أتبيَّن ذلك من بريق عينيك، لقد صنعتَ منه عدوًّا لك، ليس من مصلحتك أن يكون فيديريكو عدوكَ».

كنا قد اجتزنا الغابة وأخذنا نشقُّ طريقنا عبر الظلام فوق الحقول الثلجية والريح تصدح بألحانها الحزينة على أسلاك التلغراف.

سألته: «ومن هو والد فيديريكو؟».

«أبوه؟ أبوه الحقيقي مجرد عامل يدوي رقيق الحال يعيش في بقعة ما في شمال إيطاليا، فيديريكو ينحدر من أسرة تعيش في فقر مدقع. لكن البارون تبنَّاه، وربما يُحبُّه أكثر مما يحبُّ طفلته».

«هل للبارون طفلة؟».

أجاب الروسي بنبرة لا تخلو من دهشة: «طبعًا، مريضتك الصغيرة يا دكتور! الطفلة التي رأيتَها في الكوخ. ألم أخبرك أنك ستزور ابنة البارون؟».

«لا، لم تخبرني بذلك. ولماذا يَعهد البارون إلى غرباء برعاية ابنته؟».

تنبهتُ على الفور أنه من غير اللياقة طرح مثل هذا السؤال، فاستدركت قائلًا:

«عفوًا، أنا لا أسألك من باب الفضول، بل بصفتي طبيبًا».

أخرج الروسي عود ثقاب من جيب معطف الفراء الذي يرتديه وحاول إشعال سيجارة، لَزم الصمتَ لهنيهة من الوقت قبل أن يبادر بالردِّ عن سؤالي:

«ربما لأن هواء الغابة أفضل لصحة الطفلة، فالقرية غارقة في الضباب دائمًا وأبدًا، طوال الخريف وطوال الشتاء.. انظُرْ!».

أشار بيده التي كانت تحمل السيجارة ناحية أضواء القرية المتناثرة التي بَدَت وكأنها تلمع من خلال حجاب كثيف أبيض حليبيٍّ وقال:

«ينبعث ضباب كثيف من المستنقعات والمروج ويتسلل ليغمر أرجاء القرية. الضباب يلفُّ المكان دائمًا، يومًا بعد يوم، وليلة بعد ليلة. الضباب أسوأ من الوَحدة، لأنه يوقظ الأفكار القاتمة ويصيب الأرواح بالسُّقم.. ربما يجب أن تتعلم لعب الورق يا دكتور».

6

كان النُّزُل الذي أقمتُ فيه مملوكًا لخيَّاط القرية، وهو رجل فارع الطول، نحيف الجسم، له عينان متورِّمتان ويتحرك بخطوات متثاقلة. كان الرجل قد خدم في سلاح الفرسان في مدينة أوزنابروك، وقاتل في صفوف بلاده إبان الحرب العالمية كعرِّيف، وأصيب في أثناء التقدُّم إلى مدينة وارسو.

تزوَّج للمرة الثانية بعد أن ماتت زوجته الأولى من جرَّاء ورم في الصدر، شاركت زوجته الثانية في توفير منزل الزوجية كما شاركتْ بالمال. كان قد حكى لي كل هذا في الأمسية الأولى بتهمُّلٍ واستطراد وهو يساعدني على إفراغ أغراضي. بعدها نادرًا ما كنت أراه بسبب انشغاله الدائم في ورشته، وأحيانًا كنت أسمعه من غرفة نومي يقطع الحطب في فناء النُّزُل.

أمَّا زوجته فقد كنت أراها بصفة يومية، كانت تُعنى بتنظيف شقتي وترتيب ملابسي وغسلها. في البداية كانت تتولَّى إعداد وجباتي، لكني فضَّلتُ لاحقًا جلب الطعام من أحد المطاعم الصغيرة. كانت امرأة نشيطة، قليلة الكلام، تحب العمل بصمت. في أيام الآحاد، كنت أراها ترتدي تَنُّورة سوداء مطرزة بحواف صفراء وشرائط من الحرير الأصفر على مئزرها، ومنديل أزرق، وهو لباس لم أرَه في أي مكان آخر في القرية.

كانت شقَّتي مكونة من ثلاث غرف، ومنذ اللحظات الأولى انتابني نفور شديد من منظر الأثاث عتيق الطراز، وأدركت حينذاك أنني لن أستطيع تحمُّل العيش طويلًا وسط هذه الزخارف وقطع الأثاث العتيق غير المفيدة أو غير المريحة، أمَّا اليوم فلعلَّني أنظر إلى الشقة بعين أكثر تسامحًا، بل بمسحة من التعاطف بينما أتذكَّر نقوش الحَفْر الضوئي[1] وقرون الأيائل المعلَّقة، ومقعديّ الخيزران المغطَين بالوسائد، وتمثال المرأة حاملة الماء أعلى الموقد، والزهور البلاستيك المغمورة بالتراب في غرفة نومي، كانت كل هذه الأشياء شهود عيان على سعادة غامرة لا حدود لها، لكنني لن يُكتب لي رؤيتها مجددًا.

كان معلِّم مدرسة القرية أول زائر يجلس فوق أحد كراسي الخيزران. والحقيقة أني كنت أراقبه قبل ذلك من نافذة شقتي وهو يذرع الساحة الخارجية أمام النُّزُل ذهابًا وإيابًا أمام الباب الأمامي، مُشاورًا عقله في الدخول، إلا أنه ما يلبث أن يغادر. ثم دخل الشقة في اللحظة التي كنت واقفًا فيها أمام المرآة أحلق ذقني. كان وجهه نحيلًا مُتغضِّنًا، وشعره خفيف طويل ومصفَّف بعناية. كانت ملابسه تنمُّ عن رثاثة، ربما كان المقصود من ورائها إعطاء انطباع أنه مترفِّع عن المظاهر، لكنه لم يخفق في أن يظهر بمظهر «فنان إلقاء».

لم يَزُر غرفتي كمريض كما أخبرني، وإنما زارني بسبب تشكُّكه الفطري في بني البشر. قال إنه اعتاد ألا يتأثر بانطباعات الآخرين وأنه دأب على تكوين رأيه الشخصي حول الآخرين بنفسه، لأن جوهر عمل أولئك الآخرين، في كل مكان، محاولَة فصل الأشخاص الذين يحتاجون إلى

---

(1) الحفر الضوئي Heliogravüre: عملية استخدام الأشعة الضوئية لحفر المعادن، ويطلق على هذه العملية أيضًا اسم الحفر الزِّنكي أو الحفر بالزِّنكوغراف. (المترجم).

بعضهم البعض، وهنا توقف لفترة وجيزة وقال: الذين يمثِّلون شيئًا لبعضهم البعض.

وبينما كان المدرِّس جالسًا فوق كرسي الخيزران راح يحدِّق بإمعان في المدفأة بينما تتساقط قطرات الثلج الصغيرة من حذائه الشتوي الطويل، مُكَوِّنة بحيرات وقنوات مائية متناهية الصِّغر فوق أرضية الغرفة.

انبرى ليقول إنه شخص غير محبوب داخل دوائر بعينها، وعلى الأَخَصِّ عند عِلية القوم في هذه المنطقة، مشيرًا بحركة غامضة من يده إلى حافة النافذة العليا، مشيرًا إلى أنه لم يَضُقْ ذرعًا بكونه شخصًا مكروهًا، فطبعه نابع من ولعه بالصدق ومن مبدأ لا يَحِيد عن قول الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة، رجل ما في قلبه على لسانه، يدعو الأشياء بأسمائها الحقيقية، ومن ثَمَّ فهو من طينة البشر الذين لا يقدِّمون تنازلات، حتى ولو كانت للسَّادة الأكابر. ولا غرابة أن يكون موقفه غير مُرحَّب به بالنسبة إلى دوائر بعينها، ولا سيما مَن لديهم ما يخفونه، إلا أنه لا يُلقي إليهم بالًا على الإطلاق.

ثم ما لبث أن غيَّر الموضوع وقال: «مناخ المنطقة بأكملها مضرٌّ بالصحة، أمَّا فيما يتعلق باجراءات النظام الصحي فنحن في ذيل القائمة، النظام هنا رَجْعيٌّ مناهِضٌ للتجديد، وستجد ما يكفي من العمل بانتظارك، كان سَلُفكَ في العمل يودُّ أن يأخذ قسطًا من الراحة، على الأقل في سنواته الأخيرة، لكن القَدَر لم يمهله. كان قد ناهز الثانية والسبعين عندما وافته المَنِيَّة، أستطيع أن أقول بملء فمي إنني وجدتُ صداقة حميمية في هذا البيت، وجمع بيننا التفاهم في كل شيء، لا أستطيع حصر عدد الأمسيات التي أمضيتُها في هذه الغرفة، مستمتعًا بمحادثات دافئة وأنا أتناول شطائر الخبز والزبدة وأجرع زجاجات البيرة».

أشار الرجل إلى أحد نقوش الحَفْر الضوئي في سقف الغرفة، التي تُظهر أحد ملوك مسرحيات شكسبير جالسًا على عرشه، بينما تجثو امرأتان عند قدميه، وفي الخلفية وقف سفير دولة أجنبية غريب الهيئة يجرُّ الخيول والجِمال.

قال: «كانت هذه اللوحة آخر هدايا عيد الميلاد التي أهديتُها إليه، وقد أدخلَتْ السعادة على قلبه وكانت تُمثِّل لديه مكانة خاصة، إلا أنها الآن ضمن أملاك الوَحدة المحلية مثلها مثل بقية المقتنيات. طرحت إدارة الوَحدة المحلية جميع ممتلكات الراحل في مَزَاد علني. لم يكن المَزاد فوق الشُّبهات، تربَّح عديد من الأشخاص مالًا وفيرًا في الخفاء، على أي حال لا ينبغي أن يفخروا بذكائهم كثيرًا، فهم معروفون، والقول الفصل في الأمر لم يصدر بعد!».

جلسَ الرَّجل صامتًا لهنيهة من الوقت وهو غارق في تأمل اللوحة. وعندما أخبرته برغبتي في زيارة صاحب العزبة عرض على الفور أن يرافقني ويرشدني إلى الطريق. بالطبع لم أكن لأضلَّ الطريق إليه بمفردي، لأنني كنتُ أرى من شارع القرية حيث أسكن، وعلى مسافة معينة، مبنى مرتفعًا مكوَّنًا من طابقيْن ومشيَّدًا من الحجر الرَّملي له سقيفة صخرية زرقاء، متواريًا خلف مجموعة من أشجار الزَّان عارية الأوراق، مغمورة بالثلج.

في أثناء سيرنا تطرَّق بنا الحديث إلى صاحب النُزل وزوجته الأولى، فقال المُدرِّس: «ماذا قال لك؟ هل قال إنها ماتت؟ هل قال من جرّاء ورم في الصدر؟ يستلزم الأمر وقتًا طويلًا لتموت بهذا المرض! إنها ما تزال على قيد الحياة، لقد هربت، تلك المرأة الطيِّبة، نعم، هربت مع وكيل مصنع الأسمدة. هل قال لك إنها ماتت وذهبت إلى بارئها؟ لقد انطلى عليك الأمر. إنها حيَّة تُرزق، أضمن ذلك برأسي».

أخبرتُه أنه لا يحتاج أن يضمن ذلك برأسه لأنني لا أكترث إن كانت امرأة الخيَّاط على قيد الحياة أم ماتت، إلا أن الحَنق اجتاحه وأصرَّ على أن يحكي لي كل التفاصيل.

«بالمناسبة زوجته الحاليَّة تخونه أيضًا، الفرق الوحيد أن عُشَّاقها يعيشون هنا في القرية، في البداية تورطتْ في علاقة مع الابن الأكبر لحدَّاد القرية، ثم انتقلتْ إلى ابنه الأصغر. أما الخيَّاط فيسرق المال من منديل النقود المعلَّق في صدرها وينفقه على شرب البراندي، المكان كله غارق في وَحْلٍ وقذارة... حتى القشطة الموجودة في الحليب زَنِخَة الرائحة والمذاق!».

لَمَّا ودَّعني في المنتزه كنا إلى جوار بئر يعمل بالبَكَرة أمام أَجَمَة من شجيرات الورد. قال بنبرة لا تخلو من استهجان خفيف: «أنتَ مفرط السذاجة، سيلاحظ الجميع عمَّا قريب أنك سهل الخِداع، لو أردتَ يومًا معرفة حقيقة أي شخص في القرية اسألني فقط. أعرفهم كما أعرف أصابع يدي، للأسف الشديد».

ثم عاد أدراجه عبر الحديقة المغطاة بالثلوج من الطريق التي أتينا منها، ضاربًا عناقيد التوت الأحمر بعصاه التي كان يحملها. نفخَتْ الرياح معطفه الرقيق وبدا منظره من بعيد كما لو أنه يحمل كل حكاياته التافهة عن سكان القرية في كيس بُنِّي كبير فوق ظهره المَحْنِي. وأمام بوابة المنتزه التفتَ ناحيتي مجددًا، ملوِّحًا بقبعته الخضراء بحركة وداع مسرحية مُفْتَعَلة.

7

استقبلني البارون فون مالشين في غرفة مكتبه، وهي غرفة واسعة منخفضة السقف، جدرانها مكسوَّة بألواح من خشب البلوط، ونوافذها مفتوحة على شرفة واسعة مطلَّة على الحديقة. كانت سحب دخان السيجار الكثيفة تحلِّق فوق المكتب، فتعلق برفوف المكتبة، ثم ما تلبث أن تصعد متشظيَّة إلى الأعلى ناحية العوارض الحاملة للسقف التي نخرتها الديدان. فوق الجدران تراصّتْ مجموعة من الأسلحة القديمة، من بينها قطع ثمينة ونادرة.

رأيت مِطرقة تعود إلى القرن السادس عشر وفأسًا حربيًّا بولندي الطراز مُزوَّدًا بمَقْبَض مكسوٍّ بالجلد، وتمثالًا لمحارب فدائي سويسري، وخنجرًا إسبانيًّا دائري الشكل، ورُمح صيد يعود إلى القرن السادس عشر وصولجانًا حربيًّا يعود للقرن الخامس عشر، وسيفًا هائل الحجم مزوَّدًا بمَقْبَضَين، وسيفًا آخر من النوع المعروف بـ شيافونيسكا[1]. وبينما كانت عيناي تبديان الإعجاب بالسيف ذي المقبضين، الذي بدا لي أنّه عربي الصنع، أطْلعتُ البارون على حالة ابنته.

(1) نوع من السيوف القديمة المُصمَّمة على شكل حرف S، كان يُستخدم من قِبَل الفرسان في مملكة المَجَر في القرن الخامس عشر. (المترجم).

أصغى إليَّ باهتمام بالغ وفهمتُ من تعليقاته المقتضبة أنه زار الطفلة في وقت مبكِّر من صباح اليوم، وأن زوجة حارس كوخ الغابة ممرِّضة متمرِّسة، سبق وأن اعتنَتْ بطفلين من أطفالها وُلدا بأمراض مزمنة.

«صغيرتي إلزي في أيد أمينة»، قال البارون، «وطالما أنتَ هنا فقلبي مطمئن».

إلا أنه لم يأتِ على ذِكر الصغيرة إلزي مرة ثانية في أثناء زيارتي، ثم سرعان ما أدار دفَّة الحديث ناحية أبي.

عندما أستحضرُ صورة أبي إلى ذاكرتي، أرى أمامي رجلًا مشغولًا بعمله أغلب الوقت، ولم تتبلوَّر فكرتي عن طبيعة عمله إلا عندما بدأتُ في التفكير وفي مراقبة محيط العمل، في تلك الأثناء لم يكن يخامرني شك في أن الأوراق المكتوبة والمرصوصة بدقَّة فوق سطح مكتبه تحتوي على تعويذات وصلوات تحمي المنزل من اللصوص. كنتُ أُكـنُّ إعجابًا بالغًا بأبي، إلا أن أعماله كانت تثير في نفسي مزيجًا من مشاعر الرَّهبة والفضول في آن واحد، ثم علِمتُ لاحقًا من مدبَّرة المنزل أن أبي يكتب أعمالًا ذات طابع تاريخي عميق، ومن ثم يتحتَّم عليَّ ألا أزعجه، وأن مؤلفاته لا علاقة لها بقصص البحر والمغامرات التي دأَبْتُ على استعارتها من المكتبات العامة، أو تلك التي كنت أراها بين يدي زملائي في المدرسة أو على طاولة الهدايا الخاصة بعيد الميلاد، ومن هنا انطفأ اهتمامي بمؤلفات أبي.

أحتفظُ بذكريات واضحة عن السنوات الأخيرة من حياته. أراه يذرع الغرفة جيئة وذهابًا محنيَّ الرأس، أراه يتفحَّص فواتير مدبَّرة منزلنا السابقة، بوجه شاحب على الدوام، مُرهق، يزفر تنهيدة حارَّة، كان بمقدوري أن ألمح الهموم التي طالما تحدث عنها كثيرًا في تجاعيد جبهته،

وربما كنتُ ألمح أيضًا مشاعر الحزن وخيبة الأمل. أتذكر أبي كرجل غارق في الوَحدة، عاش لأجلي ولأجل عمله فقط.

إلا أن الصورة التي رسمها البارون لوالدي لم تكن منسجمة بأي حال من الأحوال مع ذكراي عنه، ربما كانت صورة أبي في شبابه المبكِّر، الصورة المبكِّرة لرَجلٍ لم أرَ سوى أطلالـه الدارِسَة. أما صورة أبي في ذاكرة البارون فون مالشين فكانت صورة رجلٍ يشعر بالعالم والحياة شعورًا قويًا، صورة رجل يخلب ألباب النساء ويأسِر عقول الرجال، صورة رجل عاشق للصيد وللنبيذ القوي، رجل مثار ترحاب الجميع ومحط اهتمامهم أينما حَلَّ في البيوت النبيلة، رَجُل يبذل نفسه وينثر أفكاره القيِّمة هنا وهناك على شرف زجاجة نبيذ وسيجار.

قلت في نفسي هامسًا: «شيء مذهل».

قال البارون: «نعم. كان رجلًا يتحلّى بخصال فريدة، كان شخصية عظيمة بحق. لا أتوقف عن التفكير فيه، لا أعرف ماذا يتحتم عليَّ أن أفعل لأتحدّث إليه مرة أخرى وأشكره على معروفه».

سألتُه في حيرة: «تشكره؟ علامَ؟».

من وسط سحابة دخان السيجار جاءتني إجابة لم أكن أتوقعها قَطُّ.

«لدي الكثير لأشكره عليه، بل أكثر مما يظن. خَطَفَه الموت مبكّرًا، لقد تحولت الفكرة التي تفتَّق عنها ذهنه بشكل عَرَضي إلى غاية حياتي».

«هل أنت مهتم بتاريخ العصور الوسطى في ألمانيا إلى هذا الحد؟»، سألتُه.

رمقني البارون بنظرة حادة بعد أن فقد وجهه الناحل الحادُّ تعابيره الرسمية ليكتسي بنظرة صارمة، متحمِّسة، متزمِّتة وقال: «أبحاثي التاريخية مكتملة، وأنا الآن منغمس في مجال العلوم الطبيعية».

قالها ثم عاود النظر إليَّ متفرِّسًا وجهي بنظرة متسائلة وكأنما يبحث في ملامحي عن السِّمات المألوفة التي عهدها في أبي. لزمتُ الصمت ورحت أتأمَّل الأسلحة القروسطية المُعلّقة على الجدران.

قال: «يبدو أنك مهتم بمجموعة مقتنياتي الصغيرة». كانت ملامح وجهه مكسوَّة بتعبير مجاملٍ غير شخصي وقال:

«هل لفتَ انتباهك ذلك السيف ذو المقبضين؟».

أومأتُ وقلتُ:

«قطعة شرقية[1] عظيمة، تنتمي إلى أواخر القرن الثاني عشر.. أليس كذلك؟».

«نعم، بالفعل، في حوزتي قطعة ثانية من الورشة نفسها، عبارة عن دِرع واقٍ، اسم السيف محفور على النَّصل. يُطلق عليه «الرَّسُوب»[2]، ومعناه «السيف الماضي الذي يغور في الضربة». لقد شهد هذا السلاح الماضي معارك الحملة الصليبية الثانية، سقط آخر حامليه في مدينة «بينيفينتو» مع قائده نجل الإمبراطور «مانفريد».

ثم أشار إلى سيف آخر قصير ذي أسنان حادَّةٍ مُعلَّق تحت نَصل السيف المشرقي:

---

(1) وردت في الأصل sarazenisch: السراسنة أو الساراكينوس مصطلح استخدمه الرومان للإشارة إلى سكان الصحراء في إقليم البتراء الروماني، ثم أصبح يُطلق على العرب، وفي حقبة العصور الوسطى وخلال الحروب الصليبية توسّع المصطلح ليشمل كل من يدينون بالإسلام ولم يكن يخلو من إهانة للعرب والمسلمين. (المترجم).

(2) وردت في الأصل Al Rasub، و«الرَّسُوب» من أسماء السيوف عند العرب، وهو السيف الماضي الذي يغور في الضربة، والرَّسُوب أيضًا اسم لأحد سيفي الحَرب لابن أبي شَمر، ملك الغساسنة في بلاد الشام، وعليه قول الشاعر الجاهلي عَلْقَمَةَ: مظاهِرُ سِرْبالَيْ حَديد، عليهما عَقِيلا سُيوفٍ: مِخْذَمٌ ورَسُوبُ. (المترجم).

«وهذا السيف، هل تعرفه؟».

أجبتُ: «في فرنسا يُسمَّى هذا النوع من الأسلحة اسم «Braquemar»، وفي ألمانيا «Malchus»، سلاح موغل في القِدم، شبيه بسكاكين القتال التي كان يتقاتل بها المصارعون الرومانيون».

صاح البارون: «ممتاز! أرى أنك ضليع في هذه الأمور، ينبغي أن تأتي لزيارتي كثيرًا يا دكتور كلما سمح الوقت بذلك. بمنتهى الأمانة يا دكتور، يجب أن تعدني بذلك، فالأمسيات طويلة والرفاق قِلّة».

نهض وجلبَ زجاجة ويسكي وبعض الكؤوس، ثم أخذ يذرع أرجاء الغرفة ذهابًا وإيابًا، مُعَدِّدًا أسماء الأشخاص الذين يمكنني أن أنعم بصحبتهم في رأيه.

«هناك صديقي العزيز الشيخ، أقصد الكاهن الذي عمَّدني. ستُذهل يا دكتور من سعة معرفة هذا الرُّوحاني الريفي، وهو إنسان صالح ومحبوب، ولكن، ورجاءًا لا تُسِء فهمي يا حضرة الطبيب، لقد أنهكَتْه السنوات القليلة الماضية بعض الشيء، فقدَتْ الدردشة معه رونقها القديم، كأس ويسكي آخر؟ آه طبعًا تفضَّل! إنه يتعامل مع الدنيا بسماحةٍ يُسيء الكثيرون فهمها اليوم، الأمر لا علاقة له بالبساطة، لا، إنه الانسحاب من الدنيا، لقد أثقلت السنين على كاهل صديقي الشيخ».

أطاح بما تبقَّى من السيجار وتابع قائلًا:

«أنت تعرف بالطبع ناظر العزبة، الأمير براكساتين.. يمكنه أن يعلِّمك أنواع لعب الورق، ناهيك بالطريقة الروسية المميزة للنظر إلى العالم، بالمناسبة إنه آخر فرد من سلالة «آل روريك[1]»، صحيح.. الأمير

(1) آل روريك: أسرة أسّسها السويديون الفايكنج، والأمير المؤسس روريك هو مؤسس القيصرية الروسية التي ظلّت تحكم لمدة ثمانية قرون. (المترجم).

براكاستين ينحدر من سلالة «آل روريك»، لو كان في هذه الدنيا عدل لكان اليوم جالسًا على عرش القياصرة الروس».

قاطعتُه قائلًا: «أو وُجِد مرميًّا بالرصاص في أحد مصانع الرصاص في جبال الأورال!».

توقَّف البارون فون مالشين أمامي وحدَّق في وجهي بنظرة جامدة: «أتظن ذلك؟ اسمح لي أن أتبنَّى وجهة نظر مخالفة. لا تنسَ أن سلالة هولشتاين- جوتورب[1] كانت غريبة على البلاد وبقيت غريبة حتى اتخذتْ من اسم رومانوف لقبًا لها».

استأنف البارون جولته في الغرفة وقال: «أمَّا مساعدتي الشخصية فلن تراها قبل أسبوع من اليوم، بعد أن أرسلتُها إلى برلين بسيارتي أمس. نحن بحاجة إلى جهاز تعقيم يعمل بتردد كهربي عالي الجهد».

سألت: «لأجل الزراعة؟».

كان سؤالي من باب التلطُّف والأدب، فلم يكن يهمني كثيرًا فيمَ يحتاج البارون الماكينة.

أجاب البارون: «لا، ليس للأغراض الزراعية. أنا مشغول بمشكلة علمية محددة للغاية كما أخبرتكَ، والمرأة الشابَّة التي تقدِّم إليَّ النُّصح والمشورة في هذا العمل عالِمة بكتيريا وحاصلة على درجة الدكتوراه في الكيمياء».

---

(1) عائلة هولشتاين- جوتورب: جاءت من ليتوانيا أو ألمانيا وصاروا مُلاَّكًا للأراضي الروسية وحصلوا على مكانة رفيعة عندما تزوج القيصر إيفان الرابع من أنستاسيا رومانوف في عام 1547، أبقى آل هولشتاين-غوتورب على لقب رومانوف، تأكيدًا لنسبهم من ناحية الأم إلى بطرس الأكبر، عن طريق «آنا بيتروفنا»، ابنة بطرس الأول الكبرى من زوجته الثانية. (المترجم).

كنتُ أستمع إلى كلام البارون بنصف اهتمام، فلم يكن يعنيني كثيرًا معرفة ما إن كان الرجل مشغولًا بمشكلات علمية أو غيره، لكن كلماته الأخيرة أثارتْ شيئًا ما بداخلي، انتابني هاجس بوجود صلة ما، وداهمني شعور مباغت ممزوج بالسعادة والخوف من خيبة الأمل، لم أجرؤ على تصديق المستحيل.

عالمة بكتيريا! بيبيشي! شابَّة حاصلة على دكتوراه في الكيمياء!

أرسل البارون مساعِدته بالأمس إلى برلين، وبالأمس رأيت بيبيشي في ساحة محطة قطارات أوزنابروك، وستعود بعد أسبوع، لكن من المستحيل أن تعيش هنا، بالقرب مني، فأراها كل يوم، لا، مثل هذه المعجزات لا تحدث، إنه مجرد حُلم، حلم لا تتجاوز مدّته ثانية واحدة، أرسَلَها البارون بالسيارة إلى برلين، ربما في سيارة كاديلاك خضراء، ينبغي أن أسأله، عليَّ أن أسأله فورًا. إلا أن البارون سرعان استأنف حديثه السابق وقال:

«وخذْ عندك أيضًا مُعلِّم المدرسة، لكني لا أودُّ ذكر سيرته، ولا أريد أن أفرض عليكَ حُكمي. أم لعلك تعرَّفت عليه بالفعل؟ تعرَّفت؟ حسنًا، ها أنتَ تعرف كل شيء. صاحبنا يُطلِق على نفسه «الرُّوح الحرُّة»، رحمتك يا رب! أيَّة حُرِّية تلك؟ إنه صاحب أخبث لسان في المنطقة كلها، جالس للسَّاقطة واللَّاقطة، يتشمّم الفضائح، يفتش وراء البشر، لا يمكنك خداعه، يراني عدوه اللَّدود، ولا أعرف لماذا، ولا أستطيع تغيير رأيه فيَّ، لكنه شخص غير مؤذٍ، يعرف طباعه هنا القاصي والداني، ويتركونه يثرثر».

استعدتُ رباطة جأشي مجددًا وأعدتُ التفكير بتمعُّن. كان من المستحيل أن تعيش بيبيشي هنا في هذه القرية، فهي فتاة مُدللة لعوب، تحتاج إلى حياة الرفاهية وراحة المدن الكبرى، ولا تطيق العيش دون

ذلك، يا لها من فكرة سخيفة أن أبحث عن بيبيشي هنا وسط بيوت الفلاحين المغمورة بالدخان، ووسط حقول البطاطا المغطاة بالثلوج، وفي شوراع القرية المليئة بحفر الطين. صرفتُ عن ذهني فكرة البحث عن بيبيشي هنا. برغم ذلك دفعني شيء ما بداخلي لسؤال البارون عن سيارته، السيارة التي أقلَّت مساعدته إلى برلين، لكني طرحتُ السؤال بشكل غير مباشر فسألته:

«ربما أُستَدعى من وقت لآخر، هل يمكن توفير سيارة هنا في القرية في الحالات الطارئة؟».

أفرغ البارون كأس الويسكي خاصته، وكان سيجاره في منفضة الرماد.

قال: «عندي سيارة خاصة بالطبع لكني قلما أستعملها. أنا واحد من تلك السلالة المتحضرة التي ليست في عجلة من أمرها، أُفضِّل امتطاء صهوة الخيل على الجلوس إلى عجلة القيادة، لستُ من هواة هذا العصر الآلي المجنون. بالمناسبة سترى هنا في هذه الحقول تربة خصبة يا دكتور، تربة طباشيرية، تربة مستنقعات، أرض برِّيَّة رملية، تربة جيرية، لن ترى جرَّارات أو ماكينات بذرِ حبوب هنا في العزبة، لن ترى إلا الحصان والفلَّاح والمِحراث. وفي أواخر الصيف سيكون في مقدورك سماع أغاني الرقص القديمة التي تهدر بها ماكينات دَرس الحبوب. هذا كان الحال في أيام جدي وهكذا سيبقى الأمر طالما حييت».

التقط سيجارة من على الطاولة ونفض الرماد بعناية. يبدو أنه نسي أنني سألته عن سيارته وتابع:

«حَرَصْتْ شقيقتي الراحلة على تركيب مصابيح كهربائية في كل غرفة من غرف المنزل، لكني أُفَضِّل، كما ترى، العمل على ضوء

المصباح الزيتي. هل تفاجأتَ يا دكتور؟ أراك تبتسم! لم تَخلِق الرُّوح البشرية أعمالها الكبرى إلا على أضواء المصابيح الزيتية؛ «إنيادة» فرجيل و«فاوست» جوته، لقد صمَّم ذلك الفنان المجهول مُخطَّطَ كاتدرائية آخِين[1] على سبيل المثال على أضواء المصباح الزيتي، وكان يسوع المسيح يعرف نور المصباح الزيتي اللطيف، وكانت عذارى الإنجيل الحكيمات يحملن مصابيح الزيت في أيديهن وهـنَّ يسرِن نحو المُخلّص الفادي[2]. صحيح.. عمَّ كُنَّا نتحدّث؟ آه.. بالطبع يمكنك استعمال سيارتي عندما تحتاج إليها. هل تستطيع القيادة؟ إنها سيارة مزودة بثمانية أسطوانات، من طراز «كاديلاك».. وسوف... ما الذي جرى؟ دكتور هل أنت هل ما يُرام؟ كأس كونياك؟ كوب من الماء؟ ما الذي جرى؟ لقد صِرتَ شاحب اللون مثل ورقة بيضاء! يا دكتور!».

---

(1) كاتدرائية مدينة آخِن: أقدم كاتدرائية في شمال أوروبا وكانت كنيسة التتويج لثلاثين ملكًا من ملوك ألمانيا. (المترجم).

(2) الإشارة هنا إلى آية وردت في إنجيل مَتَّى: (حِينَئِذٍ يُشْبَّهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ عَشَرْ عَذَارَى، أَخَذْنَ مَصَابِيحَهُنَّ وَخَرَجْنَ لِلِقَاءِ الْعَرِيسِ)، (مَتَّى 1:25). (المترجم).

8

لا أجدُ وصفًا آخر لما انتابني من شعور؛ انزاح التوتر عن كاهلي، وتصاعدَ شعور بالدهشة والسعادة من أعماق روحي، وجاشت نفسي بانفعال قوي كنت أحرص على ألا أُظهره، ولكني لم أكن أقوى على كتمانه في الوقت نفسه، كل هذا تسبَّب في تشتُّت الوعي بداخلي.

كنت أسمع صوت البارون وأسمع كل كلمة ينطق بها لسانه، لكنني كنت أشعر أن وجودي قد تلاشى، وشعرت كما لو أنني كنت مستلقيًا على السرير في مكان ما داخل غرفة بأحد المستشفيات، لم يفارقني هذا الشعور الراسخ قط، شعرت بشيء رطب دافئ أعلى جبيني وتحت رأسي فحاولت لمسه، لكن لم أقوَ على تحريك ذراعي وسمعتُ وقع خطوات وئيدة للممرضة وهي تدنُو مِنِّي.

يبدو أنني رأيت في تلك اللحظة بعين قلبي -وللمرة الأولى- نهاية المغامرة التي تورَّطْتُ فيها. والحقيقة أنها لم تكن الرؤيا الأولى فقد راودتني عدة مرات، ودائمًا في الأوقات التي ينال فيها مني التعب، وغالبًا وقت الليل قبل الدخول إلى الفراش، لكن الرؤيا لم تكن واضحة مثلما كانت واضحة هذه المرة التي جاءتني فيها ذلك الصباح. ما الذي حدث لي؟ سألتُ نفسي: أين أنا؟ كنت أتحدث للتوِّ مع البارون، وبيبيشي ستكون هنا في غضون ثمانية أيام، ثم أفقت من غشيتي وفتحت عيني،

فرأيته واقفًا أمامي، مُنحينًا فوقي وهو يحمل كأس الكونياك، جرعت كأس كونياك ثم كأسًا ثانية.

ما الذي جرى لي؟ تساءلت. هل كنت أحلُم؟ نعم، حلُمت في وضح النهار. بيبيشي ستصل، لم يكن حُلمًا، بل حقيقة. ومن فرط الإرهاق وتحت تأثير نوبة إعياء خفيف نطقت بلغوٍ وهراء، فسمعت صوت البارون يقول:

«هذه هي أعصاب أبناء المدن.. ستتحسَّن صحتك مع حياة القرية».

لم أتمالك نفسي من التفكير مجددًا في بيبيشي عندما سمعت كلمة حياة القرية، وشعرت بتبدلٍ حاد في مشاعري، فقبل بضع دقائق لم أعقد ذرة أمل على رؤيتها مجددًا، لكني الآن لا أطيق صبرًا على الانتظار لمدة أسبوع كامل لكي أراها. لكني سرعان ما استعدت أعصابي وانتابني شعور بالخجل مما جرى.

قال البارون: «الهواء فاسد هنا، لنترك الأكسجين يدخل، بقيتُ أدخِّن مثل المدخنة طوال الصباح».

نهض وفتح شباك النافذة فاجتاحتْ عاصفة رياح باردة أرجاءَ الغرفة واختلطت الأوراق على المكتب، ومن المؤكد أن فيديريكو دخل الغرفة في هذه اللحظة. فعندما وقع بصري عليه كان الصبي واقفًا متكئًا على الألواح المصنوعة من خشب البلوط بين السيف ذي المقبضين وسيف كلايمور الإسكتلندي.

كان من الواضح أنه قادم من الأحراش أو من الغابة، حيث كانت نُدَف الثلج الممزوجة بإبر الصنوبر عالقة بسرواله، وأطلَّتْ من حقيبة صيدِه المفتوحة رأسٌ زرقاء متلألاة لأحد طيور الأحراش.

هالني الشبه الهائل للمرة الثانية، لا، لم أتوهَّم ذلك، كان وجه الصبي يحمل ملامح رجل قضى نحبه منذ أَمَد بعيد، كان يحمل ملامح رجل كبير الشأن في قومه. عندما رأيته واقفًا لا يحرك ساكنًا إلى جوار سيفه داهمتني فكرة غريبة: «لقد وُلد الصبي ليحمل هذا السلاح»، وقلت لنفسي: «هذا السلاح صُنع لأجل هذا الصبي».

ثم زادتْ دهشتي لَمَّا رأيته يحمل بين يديه بندقية صيد، لا سيفًا ذا مقبضين. ارتسمتْ على وجه البارون الناحل الجامد ابتسامة شاحبة وقال: «ها قد رجعت! ظننتُ أنك لن تأتي قبل العصر.. ما الأخبار في الغابة؟».

«بالنسبة إلى قاطعي الأشجار فهم على وشك الوصول إلى مجرى النهر، وستبدأ عملية نقل المخلَّفات صباح غدٍ، استعنَّا بعاملين من عُمال السكك الحديدية».

«لا أحبُّ عُمال السكك الحديدية، فاشلون لا يصلحون لشيء أبدًا. من الذي عينهم؟ براكاساتين؟».

التفتَ البارون ناحيتي دون انتظار ردِّ الصبي.

«هذا هو فيديريكو»، قالها البارون ولم يعقِّب بكلمة حول أصل الصبي ولا فصله.

«وهذا هو طبيب القرية الذي وصل بالأمس».

أحنى فيديريكو رأسه انحناءة خفيفة وتعابير وجهه لا تشي بواقعة لقائنا السابق. دنوتُ منه خطوة فأعرضَ عني بنظرة رافضة مندهشة انبعثتْ من حدقتي عينيه الزرقاويْن، فلبثتُ مكاني وأنزلتُ ذراعي نصف المرفوعة. كانت تذكِّرةً بأننا عدوَّان. إلا أن البارون لم يلاحظ نظرته ولا حركة يدي.

«هل تهوى الصيد؟ فيديريكو يعرف كل جُحر أرنب بري يتجول في الغابة. الصيد ممتع هنا، يمكنك أيضًا رؤية الغزلان البرية من حين إلى آخر. ألا تعرف شيئًا عن الصيد؟ ألف خسارة. كان والدك قادرًا على قنص البَّط الطائر في صفحة السماء، يمكنني تعليمكَ لو أردتَ ذلك. لا تريد؟ للأسف الشديد. ولكن ألا تمارس أيَّة رياضة على الإطلاق؟».

«بلى، أمارس لعبة المبارزة».

«المبارزة! هذا مثير للاهتمام. أيهما تفضِّل المدرسة الألمانية أم الإيطالية؟».

أجبته إنني متمرِّس في كلا النوعين فأبدى البارون حماسة وقال:

«حظُّنا من السماء، قلما نصادف هنا مبارزًا جيدًا. هل تمانع في مبارزة قصيرة؟».

«الآن؟».

«لو لم يكن عندك مانع».

«لا بأس، هل سأبارز حضرتك شخصيًّا؟».

«لا، ستبارز فيديريكو، إنه تلميذي في رياضة المبارزة، تلميذ موهوب للغاية لو جاز لي القول، لكن ربما تبدو مُرَهقًا بعض الشيء بعد نوبة الإعياء الخفيفة السابقة».

ألقيتُ نظرة على فيديريكو الذي ارتسمتْ على وجهه ملامح التحفُّز الشديد وهو ينتظر ردِّي، إلا أنه نأى بجانبه لَمَّا رآني أحاصره بنظرتي، فقلت:

«لقد زال عنِّي الإعياء، أنا على أتم الاستعداد للمبارزة».

قال البارون: «عظيم. يا فيديريكو.. اصحبْ حضرة الطبيب إلى صالة الألعاب الرياضية، ها هو مفتاح صندوق سيوف المبارزة، سآتي لاحقًا».

تقدَّمني فيديريكو وهو يُدَنْدِن ببعض الأنغام الإيطالية. كان يهرول بخطى سريعة متلاحقة حتى وجدتُ صعوبة في ملاحقته. في صالة الألعاب الرياضية نزعنا معاطفنا وستراتنا، وسلَّمَني بصمت قناع المبارزة والدروع. ويبدو أنه لم يكن ينوي انتظار مجيء البارون. وقفنا وجهًا لوجه تَفْصِلُنَا مسافة بعيدة.

تبادلنا تحيَّة المبارزة، واتخذنا وضع الاستعداد.

بدأ فيديريكو بضربة سيف مندفعة من المربع الذي يقف فيه، منتقلًا إلى ضربة مزدوجة بسيفه لم أجد صعوبة في تفاديها. في حقيقة الأمر لم أُعوِّل على كثير من المتعة من وراء هذه المبارزة التي لم أقبلها إلا نزولًا على رغبة البارون.

وبرغم شرود ذهني شعرت بثقة بالغة في قدراتي. وبينما كنت أصدُّ ضربات خصمي وطعناته بحركة آليَّة انشغل عقلي بالتفكير في بيبيشي التي سأراها مرة أخرى عمَّا قريب. لكن المبارزة سرعان ما أخذتْ منعطفًا لم أتوقعه. فبعد ضربةٍ أخرجتُ فيها سيفَ فيديريكو عن طَوره، عاجَلَني الصبي بسلسلة من التهويشات[1] التي أدَّاها بمهارة فائقة، فتنبَّهتُ إلى أنني استهنتُ بقدراته، وقبل أن أتمكَّن من تخمين مسار ضرباته التالية، باغتني بحركةٍ لم أتمكَّن من تفاديها، فلامسَ سيفُه كتفي[2] وصاح: «لمسة صحيحة»، ثم عاد متخذًا وضع الاستعداد.

---

(1) التهويشة: في رياضة المبارزة هي امتداد الذراع المسلحة تظاهرًا بالهجوم لأجل الحصول على ردِّ فعل من الخِصم. (المترجم).

(2) في رياضة المبارزة بالسيف يجري احتساب النقاط من خلال جعل السيف يلامس نقاطًا محدَّدة على جسد اللاعب المقابل. (المترجم).

استأتُ من نفسي، وعجزت عن أن أفهم كيف سمحت لنفسي بهذه الخيبة الثقيلة، بعد أن سبق ونِلت جائزتين في السنوات الماضية، واليوم ها أنا ذا أُنازِل مبتدئًا في ميعة الصبا، قلت: «كـفى!».

لاحظتُ أن القميص ممزق من ناحية كتفي الأيسر وأن قطرات من الدم بدأت تنزف من جرح صغير في الجلد، وتنبَّهتُ حينها أن نَصْل سيف خِصمي لم يكن مزوَّدًا بتلك الكريَّات المكسوة بالجلد المفترض أنها تقي من الإصابة بالجروح في أثناء المبارزة. معنى هذا أن الصبي كان ينازلني بسلاح قاتل.

نزع الصبي القناعَ عن وجهه، فسألته: «هل تعرف أن نصل سيفكَ ليس آمنًا؟».

«ولا نصل سيفكَ أنتَ أيضًا آمن».

في البداية لم أفهم قَصْدَه. نظرت إليه مذهولًا، فواصل التحديق إليَّ بثبات. بدأتُ أفهم مراده وقلتُ:

«هل كنت تظن أني لن أوافق على منازلة صبي؟».

لا، الحقيقة أني لم أقل تلك الجُملة وإنما وددتُ لو أني قلتُها، ولكن منعتني تلك النظرة المنبعثة من تَينك العينين الزرقاوين الواسعتين المُشِّعتَين بلمعة فضية، ثم اعتمل بداخلي شعور أعجز عن تفسيره حتى هذه اللحظة. ربما كان شعور الغضب من ملامسة سيفه كتفي، وربما كانت الرغبة في الثأر، أو الرغبة في تعويض الهزيمة التي لحقتْ بي. لا، لا يمكن أن يكون هذا هو السبب الوحيد، كان السبب هو ذلك التعبير الذي يعلو وجهه الغريب، كانت نظرته. شعرتُ بغتة أنني لم أكن أواجه صبيًّا، بل رَجلًا أهنتُه وثبّطتُ عزيمتَه، وها أنا الآن مَدين بإرضائه.

«حسنًا؟ هل أنت مستعد؟».

سمعت صوت فيديريكو فتبدَّد من قلبي كل شعور بالتردد، ولم أشعر إلا برغبة جارفة في مبارزة هذا الصبي.

صرختُ: «لنبدأ».

وتقاطعت سيوفنا.

أتذكَّر استعدادي بخطة واضحة في البداية، كنت مقتنعًا أني أفوق خصمي مهارةً، وأن في مقدوري حسم المبارزة لصالحي. لم أكن أرغب في إلحاق الأذى به، وإنما الدفاع عن نفسي وإحباط ضرباته وإسقاط السيف من يده في اللحظة المناسبة.

لكن الرياح جاءت بما لا تشتهي السُّفن، فبعد ضربات السيف الأولى أدركتُ أن الصبي كان يلعب معي حتى هذه اللحظة، وأنه لم يكن قد شرع بعد في أخذ الأمور على مأخذ الجِّد. كنتُ في مواجهة مبارزٍ من عيار ثقيل وأمام خصم عنيد، حيث أجهزَ عليَّ بجرأة نادرة وبحماسة مشتعلة، لكنها لا تخلو من حِيطة لم أعهدها في أيٍّ من خصومي من قبل.

تسائلتُ بينما أتراجع خلفًا خطوة وراء خطوة: ضد مَن أقاتل؟ مَن هذا العدو الرهيب؟ وقناع مَن يضع؟ مِن أين أتى بهذه الرُّوح التي لا يُمكن كبح جماحها؟ لم تعد تكفيني فكرة الاقتصار على الدفاع عن نفسي وحسب، لأني شعرت أن حياتي كلها كانت على المحك فهاجمتُه بضراوة، لكنه صدَّ هجومي بكل سهولة. أدركت مذعورًا أن لا قِبل لي بملاقاة هذا الخصم، دفعني الصبي إلى الانزواء في الحائط، كَلَّ ذراعي وأدركتُ أنني هالك لا محالة، كنت أعرف أن الضربة الحاسمة آتية لا ريب فيها في اللحظة التالية، حاولتُ إرجاء النهاية المحتومة مدفوعًا بأملٍ يائس، ومَلَكَني الذُّعـر.

«توقّفا».

صاح صوت ما، فارتفع سَيْفَانا إلى الأعلى.

سأل البارون: «والآن، ما مدى رضاك عن تلميذي؟».

أعتقد أنني ضحكتُ، ضحكتُ ضحكة هستيرية، كانت ضحكتي ردًّا على سؤاله.

تابع البارون:«سأكمل أنا المبارزة، فيديريكو! خطوة واحدة إلى الوراء! خطوة أخرى. سأسجِّل الضربات الصحيحة، مَن تُلمَس كتفاه لمسًا صحيحًا.. انتباه! لنبدأ الآن!».

كانت أوامر البارون تتلاحق في لمح البصر، وردود أفعال فيديريكو لا تقلُّ عنها سرعة.

«تقدُّم بالوثب - صَدُّ الضَّربة - فَكُّ اشتباك - حركة الدفاع الرابع (Quarte)، ممتاز يا فيديريكو.. والآن حركة الردِّ Riposte -برافو- والآن ضع سلاحك».

طار السيفُ من قبضتي فانحني فيديريكو ليلتقطه ويسلِّمه إليَّ، ثم مدَّ يده ناحيتي صامتًا.

رافقني البارون إلى بوابة الحديقة، وقال لي بينما يودِّعني:

«بالنسبة إلى صبي في الخامسة عشرة يبدو متمرِّسًا، ما رأيك؟».

كرَّرتُ: «هل هو في الخامسة عشرة من عمره؟ لكنه ليس صبيًّا، بل رجل بالغ».

ترك البارون يدي وقال: «نعم هو كذلك، فالسُّلالة التي ينحدر منها تبلغ مَبْلَغَ الرجال قبل الأوان».

تملَّكتني حالة مزاجية عجيبة وأنا في طريقي إلى المنزل، شعرتُ أنني أطفو فوق شوارع القرية، لا أمشي فوقها، أحيانًا يشعر المرء بذلك في الأحلام، كما لو كان النسيم يحملكَ بلطف. شعرتُ بحالة بانعدام الوزن، بالتأثر، بل بالارتباك.

بيبيشي على وشك الوصول، وقد خلَّفتُ وراء ظهري مبارزة حامية الوطيس، معركة حياة أو موت. كانت مشاعري تفور بالاضطراب، وشعرتُ بأنني رجل حيَّ كما لم أشعر من قبل.

أظنني كنتُ شديد السعادة في ذلك الصباح. في المنزل وجدتُ في انتظاري امرأة عجوز جالسة في غرفة مكتبي، كانت والدة صاحب المتجر المجاور للمنزل. كانت تشكو من سُعال حادّ وضيق في التنفس وصعوبة في البلع وحشرجة في الحلق. أخذتُ أنظر إليها بهدوء بعدما نسيتُ تمامًا أنني طبيب القرية.

9

قابلتُها.

قابلتُ بيبيشي بعد ذلك بأسبوع، حدث ذلك في منتصف النهار تقريبًا، وكانت الكلاب مندمجة في نوبة نباح متواصل في شوارع القرية، والبقَّال يقف أمام باب محله ليخبرني أن ذوبان الجليد على الأبواب. واصلتُ المشي وانعطفتُ عند أحد الزوايا فرأيت السيارة الكاديلاك الخضراء واقفة أمام منزل صغير لطيف الشكل، ضُلَف الشبابيك مطلوّة باللون الأزرق، وفي الأعلى شرفة مغلقة. من فوق السيارة حمل عاملان من العزبة جسمًا كبيرًا بدون ملامح ومُغطًّى بخرقة من القماش واتَّجها ناحية باب المنزل. كانت بيبيشي واقفة منهمكة في الحديث مع الأمير براكاستين ولم تلمحني، بينما راح كلبٌ بنِّي اللون من سلالة «جيرمان شيبيرد» يحكُّ رأسه بفراء معطفها الأسود، وأخذت العصافير تحلِّق حول رأسها مستمتعة بشمس الشتا الدافئة.

قال الروسي:

«هل عثرتي عليه وتحدَّثتي معه؟ يا لك من ملاك يا كاليستو! كلماتكِ تَرِنُّ في أذني مثل رنين أجراس عيد الفِصْح. وكيف حاله؟ وماذا يفعل الآن؟ أما تزال دماغه تهدر بالخُطط؟ هذا طبعه، تتحوَّل المائة روبل في يده إلى ألف روبل. لكن لماذا لَمْ يُجِب عن رسائلي؟ هل يخجل من صديقه القديم ومن ذكرى الأيام الخوالي؟».

نطقَتْ بيبيشي وللمرة الأولى. منذ أمد بعيد لم أسمع صوتها الخافت، قالت:

«إنك تسأل أسئلة كثيرة! لا، لم تصله رسائلك. صاحبك غيَّر وظيفته ثلاث مرات في السنة الماضية، وبقي لفترة من الوقت مشرَّدًا بلا مأوى يتسكَّع في الشوارع، وحتى شهر مضى كان يعمل معاون خدمة في محل ساعات».

«طالما كان موهوبًا في الأعمال الميكانيكية اليدوية، حتى أنه كان يبتكر اختراعات أحيانًا. وماذا عنه الآن؟ أين يعمل؟».

«يعمل صديقك الآن بائعًا للجرائد نهارًا، وفي فترة المساء يقف مرتديًا بِزَّة أمام مطعم Zur Stadt Köln ويعمل حارس سيارات لرواد المطعم».

صاح الروسي: «صديقي؟ هل قال إنَّنا كنَّا أصدقاء؟ لم نكن أصدقاء قط. كانت معرفة عادية وكنا نلعب معًا في النادي.. هل أخبركِ كم يكسب؟».

«لو ابتسم له الحظ يتقاضى ثماني ماركات يوميًا».

«ثماني ماركات! إنه وحيد بلا زوجة ولا أطفال، وفي مقدوره العيش بخمسة ماركات عيشة كريمة، بل في مقدوره أن يُمتِّع نفسه بزجاجة خمر أيضًا، فإذا قُلنا يتبقَّى لي ثلاث ماركات، سيكون الإجمالي شهريًّا تسعين ماركًا، وسنويًّا سيكون.. آه هُراء، إنه لا يوازي حتى فوائد الدَّين الذي يَدين به إليَّ، المبلغ الذي سيدخّره كله على حذائي، passez moi l'expression[1]، وهل ذَكَرَ مبلغ الدَّين المُستحق عليه؟».

«لا، يبدو في الأغلب أنه نسي الموضوع منذ أمد بعيد».

---

(1) وردت بالفرنسية في الأصل: «عفوًا على التعبير». (المترجم).

«نسي الموضوع! نسى دَيْن القمار؟ كلمة شرف؟ أنسى السبعين ألف روبل ذهبي في شكل كوبونات مقبولة الدفع في غضون أسبوع؟ صحيح، هل تقولين نسي الموضوع؟ سأكتبُ إليه وأذكِّره، في يوم من الأيام سأستردُّ مالي، وسيعود صديقي ثريًّا مرة أخرى، أنا أعلم ذلك، فمثل هذا الرجل لا يبقى طوال حياته بائعًا للجرائد، مثل هذا الرجل سـ...، وأنتَ ألا تريد الاستراحة قليلًا، ارقد!».

كانت كلمته الأخيرة موجَّهة إلى الكلب «الجيرمان شيبرد» الذي وثبَ عاليًا محاولًا مهاجمة العصافير، فانحنتْ بيبيشي وربَّتتْ عليه فوضع الكلبُ خَطْمه في يدها.

قال الأمير الروسي: «أستمحيكِ عذرًا في المغادرة الآن، على مكتبي كومة رسائل يجب الاطلاع عليها قبل العشاء، مراسلات من كل نوع، جزيل الشكر مرة أخرى».

التفت فرآني واقفًا خلف السيارة.«ها هو ذا طبيبنا! اسمحي لي يا كاليستو أن أُعرِّفكِ بالدكتور أمبيرج».

«غير ضروري على الإطلاق»، قالت بيبيشي، «نحن معرفة قديمة، أقصد.. ربما.. لا أعرف».

لوّحتْ للأمير براكاساتين الذي كان قد اتخذَ مقعده بالفعل إلى عجلة القيادة، وراح يقود السيارة إلى المرأب، ثم عادت إليَّ وقالت:

«لا أعرف ما إن كنتَ تتذكرني؟»

«أتذكركِ؟ اسمكِ كاليستو تساناريس، كان مكان عملك على اليمين أمام النافذة الثانية، عندما رأيتكِ للمرة الأولى كنتِ تلبسين فستانًا أملس أزرق اللون وفوقه شال مخطط باللونين الأزرق والأبيض».

قاطعَتْني قائلة: «مضبوط».

«لكنكِ لم ترتدِ هذا الفستان مرة ثانية، وذات مرة في شهر نوفمبر، تغيّبتِ عن المختبر لمدة أحد عشر يومًا، هل كنتِ مريضة؟ عندما كنتِ تخاطبين نفسك كنتِ تُسمِّين نفسكِ بيبيشي، كنتِ تُدخِّنين سجائر صغيرة رقيقة برأسٍ من الفِلِّين».

«صحيح؟ هل تتذكّر كل ذلك؟ ظننتُ أنني لم أُثر انتباهك، كل ما أودُّ فهمه: لِمَ تجاهلْتَني طوال هذه الفترة، أعترف أنني بذلت قصارى جهدي لألفت انتباهك، لكنك يبدو أنك كنت مصِّرًا على تجاهل وجودي بكل أسف».

نظرتُ إليها متسائلًا: لِمَ تقول بيبيشي ذلك؟، هذا غير صحيح بالمرَّة.

تابعتْ كلامها: «لا تنكِر أننا عملنا في غرفة واحدة طوال ستة أشهر ولم يزد كلامكَ معي عن صباح الخير ومساء الخير، وأنَّ طبعك لم يكن يخلو من بعض العجرفة. اعترف.. ربما كنتَ شخصًا متقلِّب المزاج، مُدلَّلا بعض الشيء من الفتيات الجميلات، أمَّا أنا الطالبة اليونانية الصغيرة فلم أكن أعني لكَ شيئًا».

بدأتُ في التفكير. هل كانت مُحقة؟ وهل الذنب ذنبي؟ هل كنتُ شديد التحفُّظ والخوف والخجل والجُبن، بل ربما شديد الزهوّ بنفسي؟

سألَتْ بتحفُّظ: «هل أنت آسف على ذلك؟ لا بأس، ما تزال أمامنا الفرصة كما ترى، لقد جمعتنا الصُّدفة مجددًا، وصرنا أصدقاء أخيرًا.. ما رأيك؟».

مدَّتْ يدها ناحيتي على استحياء ووجها وشفتاها تنطقان بابتسامة غامضة، قبضتُ على يدها ولم أفلتها. لم أنطق بكلمة، شعرتُ كمن رأى ظاهرة خارقة لكل قوانين الطبيعة، كمن تجلّتْ أمام عينيه معجزة حقيقية.

قالت بعد تفكير: «نعم، الفستان القماش الأزرق، لقد أعطيتُه لخادمتي وقتها».

وفجأة بدأتْ تضحك قائلة:

«هل سمعتَه؟ أقصد الأمير براكاساتين؟ وحكاية السبعين ألف روبل. هل فهمت الحكاية؟ سأشرح لك».

اتكأتْ عليَّ قليلًا، فلمستُ ذراعها.

«كما ترى لم تَسلب الثورة شيئًا من الأمير براكاساتين. لقد راهن على ما كان يملكه حتى قبل اندلاع الحرب. كان يلعب كل مساء، يقامر، وفي إحدى الأمسيات كان يلعب البوكر في النادي مع ثلاثة شبَّان من أبناء رجال الصناعة ومُلَّاك الأراضي. في ذلك المساء كان حظُّه من السماء، ولأول مرة في حياته يبتسم له الحظ فكسبَ مائتين وأربعين ألف روبل. كان شركاء اللعب أبناء رجالٍ فاحشي الثراء، قال لنفسه وهو يأخذ قسائم الفوز إن المال مضمون مائة بالمائة، وفي اليوم التالي وقعت الطَّامة الكبرى، إذ اندلعت ثورة أكتوبر [البلشفية]. من كان في مقدوره حينذاك التفكير في ديون القمار؟ صادرَتْ الثورة كل ما كان يملكه الشُّبان الثلاثة الذين انتهى بهم المطاف اليوم إلى مجرد مهاجرين يكافحون يوميًّا لكسب قوت يومهم. لكن الأمير براكاستين لم يتوقف عن كتابة رسالةٍ شهرية إلى كل واحدٍ منهم، كان يكتب رسالة في غاية التَّهذب، يذكِّرهم فيها بديونهم ويسألهم عما إذا كانوا بالفعل في وضع يسمح لهم باسترداد قسائمهم. أحدهم يعمل نجارًا في يوغوسلافيا والثاني يُدرِّس اللغات في لندن والثالث يبيع الصحف في برلين. في الحقيقة، ليس الأمر مضحكًا، أشعر أحيانًا بالأسف على الأمير».

قاطعتُها معترضًا:

«ولماذا تشعرين بالأسف من أجله؟ إنه سعيد، يعيش في حُلمه، مما يعني أن ثروته في مأمن أكثر من أي شخص آخر، فما يملكه المرء في أحلامه لا يقوى أعداء الدنيا على انتزاعه منه ولو اجتمعوا، وحدها يقظتك من الحُلم تسلبك ما تملك، ولكن مَن تُراه يتَّصف بالقسوة لدرجة إيقاظه من حُلمه؟».

كرّرتْ ببيبشي بهدوء: «فما يملكه المرء في أحلامه لا يقوى أعداء الدنيا على انتزاعه منه ولو اجتمعوا، جميل جدًا ما قلْته».

غشيَنا الصمت لوهلة، زادتْ برودة الجو وغابت شمس النهار خلف السُّحب الرمادية. زحف الضباب عبر شوارع القرية ببطء مثل حيوان كبير ثقيل الحركة، مُبتلعًا الأسطح والنوافذ والأبواب والأسوار.

قالت فجأة:«داهمنا الوقت.. الساعة الآن الثانية، يجب أن أبدِّل ملابسي، وصلتُ للتوِّ من برلين، سيكون البارون في انتظاري في تمام الثالثة».

ثم أشارتْ إلى مصراعي النافذة المطليّين باللون الأزرق قائلة: «أعمل هنا، في المختبر، كما ترى، لن تجد صعوبة في العثور عليَّ، وإن لم تجدني هنا ستجدني في القصر، عند البارون، أراكَ قريبًا».

ثم لوحَّتْ لي بيدها واختفتْ.

كان في مقدوري أن أكون سعيدًا ومبتهجًا. ولكني لَمَّا كنت بمفردي داهمتني فكرة مزعجة، في البداية كانت مجرد لعبة. فواصلتُ اللعب مع الفكرة.

قلتُ في نفسي: كل هذا كان جميلًا وعابرًا كما لو كان حُلمًا، وكرَّرتُ: كما لو كان حُلمًا.

بدأتُ أفكر في ضآلَّة الفارق بين الماضي والأحلام. ولكن ماذا لو كان الأمر مجرد حُلم حقًّا؟ لم أبرح مكاني. ربما ما زلت أحلُم. أحلُم بكل ذلك، بالثلج في شوارع القرية، بالغراب الواقف على فرع الشجرة هناك، بالضباب والمنازل والشمس الكاسفة في سماء الشتاء، كل هذا مجرد حُلم، إلا أنني سرعان ما سأستيقظُ وسيتلاشى كل شيء. الآن، في اللحظة القادمة مباشرة سأستيقظ. كانت لعبة سخيفة كنت ألعبها مع نفسي لكنني سرعان ما شعرتُ بالخوف وبدأت في الرَّكض، لا، ليس بعد! ليس بعد! تفجَّرتْ صرخة بداخلي: لا، ليس بعد، ليس بعد.

كنت قد وصلتُ إلى المنزل. أَصدَرت درجات السُّلم الخشبية صريرًا حادًّا تحت قدمَي، فتحت الباب فأصابتني رائحة مألوفة، رائحة الكلوروفورم الخافتة التي لم تغادر غرفتي قط. ولم أرَ ضيرًا في ذلك، لأن الرائحة طردتْ عن ذهني الأفكار الحمقاء.

10

كَـذب حدس جاري، أقصد البقّال الذي هلّل في وجهي زاعمًا أن ذوبان الجليد على الأبواب، لأن الثلوج لم تذب في اليوم التالي، بل زخَّت السماء لمدة ساعات بأمطار باردة كالزمهرير مخلوطة برقائق من الثلج.

كانت البرودة قد نَخرت عظامي عندما عدت من جولتي في كوخ الغابة في حوالي الساعة العاشرة صباحًا. أوقفت الزَّلَّاجة أمام النُزل وطلبت كأس كونياك من الحانة التماسًا لبعض الدفء. ولشدّ ما كانت دهشتي لما وجدت البارون هناك. كان واقفًا يتحدث مع صاحب الحانة حول انخفاض أسعار الماشية وتراجع معدل استهلاك البيرة. عندما رآني تقدم نحوي على الفور، وقال:

«كنتُ بصدد زيارتك يا دكتور، مررتُ بك من ساعة وأخبروني أنك بالخارج، هل كنت في كوخ الغابة؟ حسنًا، كيف وجدت مريضتنا الصغيرة؟ تعال يا دكتور.. سنمشي معًا».

في أثناء عبورنا الشارع أطلعت البارون بإيجاز على تطورات حالتها الصحية، أخبرته أن حالتها على ما يرام بعد أن خفَّتْ حِدَّة الحُمَّى وبعد أن زال التهاب الحلْق وبدأ الطفح الجلدي في الاختفاء.

قال البارون فون مالشين: «نعم، ظهرت الحمَّى القرمزية هنا منذ حوالي سنة ظهورًا خفيفًا غير مؤذٍ. أؤكد لك يا دكتور أني لم أشعر بالقلق على الطفلة ولو للحظة واحدة».

كنت أصدِّقه بالطبع، لم يأتِ كلامه بجديد. وعندما دخلنا غرفة الانتظار نهض المرضى الجالسون على المقاعد، كانوا ثلاثة: رجلان وامرأة، رمقهم البارون بنظرة سريعة ثم دلف معي إلى غرفة المكتب.

«هل العمل كثير؟».

سألني بعد أن جلس وأشعل سيجارًا.

«لا.. لا يتردّد عليَّ حاليًا إلا أهالي القرية، لا أحد في الناحية المحيطة يعرف بتعيين طبيب جديد».

«وهل صادفت حالات مثيرة للاهتمام؟».

«لا، لا شيء يثير الاهتمام، الحالات المعتادة: نزلات برد، أمراض شيخوخة، كُساح أطفال. ولكن صحة زوجة البواب ليست على ما يرام، حالة متقدمة من حالات التهاب عضلة القلب، ولكن من المؤكد أنك تعرف ذلك».

قال البارون قبل أن يغرق في التفكير: «نعم.. أعرف ذلك».

سألتُه: «وأنتَ.. هل صحتك على ما يُرام؟».

جلس فوق المقعد ونظر إليَّ.

«صحتي؟ لا، لستُ مريضًا، لست مريضًا على الإطلاق. صحتي حديد!».

لاذ بالصمت من جديد وأخذ ينفث سحب الدخان أمامه، مُكررًا:

«صحتي حديد، اسمع يا حضرة الطبيب، أعرف تقريبًا كل شخص في القرية، أليس اسم أحد الرجلين الجالسين في غرفة الانتظار جاوسِه؟».

غرق الرجل للمرة الثانية في الصمت وراح ينفث سحبًا من الدخان وواصل الكلام:

«نعم، أظن ذلك، لكنه رجل ابن حرام بائس! أستعين به أحيانًا كعامل لحرث البذور ودَرْسِها. حضرته يلعب دور فيلسوف القرية، يشكِّك في الحياة الآخرة والعدالة الإلهية والخطيئة الأصلية والحمل بلا دَنس، يُنكر كل ذلك، ألم يخبرك أن المسيح مات في سنة 33 ميلادية لأن طبقة البروليتاريا لم تكن منظمة تنظيمًا جيدًا؟».

«لا، لم يخبرني بشيء من هذا القبيل، إنه يتردَّد إلى العيادة بسبب إصابته بالروماتيزم».

«روماتيزم؟ هل يشكو من الروماتيزم؟ وماذا أعطيتَه؟».

«وصفت له المداومة على تناول أقراص الإسبرين وأخذ حمامات دافئة».

«نعم، هذه أفضل وصفة».

قالها البارون ثم عاد للغرق في الصمت، ثم سرعان ما نهض فجأةً وأخذ يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، وقال وهو ينظر إلي: «لم أكن أظن أن الأمر سيكون بهذه الصعوبة، بمنتهى الأمانة اعتقدتُ أن الأمر سيكون أسهل».

سألته: «هل في مقدوري مساعدتك حضرة البارون؟».

توقّفَ وقال: «نعم يا دكتور، يمكنك ذلك. أريدك أن تسدي إليَّ خدمة، والأمر بالطبع متروك لك فيما إذا كنت ترغب في مساعدتي، إنه مجرد شيء صغير. بالطبع.. لا أعرف.. على أي حال وفي أسوأ الظروف سترفض طلبي».

أخرجَ من أحد جيوب معطفه أنبوبًا زجاجيًّا رفيعًا وفتحه، بدا أنه يحتوي على بضع قطرات من سائل أبيض مائي وشمَّها.

قال بابتسامة مرتبكة: «رائحتها مقزِّزة، تَزْكُم الأنوف. لم تستطع مُساعدتي إزالة الروائح الكريهة عن المادة حتى الآن».

مَدَّ الأنبوب ناحيتي فسألتُه:

«ما هذا؟ وماذا ينبغي أن أفعل به؟».

قال: جراوسه هو الشخص الذي أحتاج إليه، لا أعرف.. ماذا لو وضعتَ له هذه القطرات في كوب ماء، أو في كوب من الشاي».

«اعذرني لا أفهمك تمامًا! هل هذا علاج للروماتيزم؟ وصفة طبية منزلية؟».

«نعم، أقصد.. لا يا دكتور، لا أريد أن أكذب عليك، المسألة لا علاقة لها بعلاج الروماتيزم، إنها مجرد تجربة أجريها، تجربة علمية!».

صرختُ في وجهه: «لكني لا يمكنني كطبيب أن أسمح لك بِجعل أحد مرضاي فأرًا لتجاربك العلمية».

«ولِمَ لا؟ كلانا عالم وكلانا يساعد صاحبه. أتحمَّل المسؤولية الكاملة عن كون هذا العقّار لا يؤذي أي كائن بأي شكل من الأشكال، إن أثره نفسي محض، تأثير مؤقت. قد يجعل المرء أكثر سعادة لبعض الوقت، هذا كل ما في الأمر، لماذا لا تساعدني على ذلك؟».

سألته: «هل هو نوع من الأفيون؟».

«شيء من هذا القبيل، ولو نجحتْ التجربة سأخبرك بالمزيد، و سأطلعك على كل شيء.. اسمع كان في مقدوري أن أقدِّم للرجل كأسًا من الخمر، لكن المشكلة في تلك الرائحة الفظيعة وفي هذا الطعم البشع، سيشعر بالرِيبة. بينما لو وصفتَ له أنت أي دواء فلن يتشكَّك حتى لو انبعثتْ منه رائحة كريهة».

سرعان ما التفتَ ناحية الباب محدِّقًا إليه، وقال:

«هل يستطيع أحد بالخارج سماع ما نقوله هنا؟».

«لا، لا يمكن لأحد سماع ما نقوله.. ولكن.. لا أعرف!».

«ألا تثق بي؟ صحيح أنك تضع نفسك طوع أمري، لكن ألا أضع إصبعي أيضًا تحت ضرسك؟ أعتقد أنني أتحدث إلى ابن صديقي الراحل. أنا أسعى لتحقيق فكرتي، التي كانت أيضًا فكرة والدك، لقد ساعدَني في ذلك. أعلم أني أناشدك باسم روحٍ عظيمة وعزيزة على قلبك، لكن كل ما يجري إنما يجري عرفانًا بذكرى أبيك، لو كان حيًّا كان سيقول لك بالتأكيد: افعلها!».

وتحت سطوة إيحاء هذه الكلمات فقدتُ كل قدرة على المقاومة فقلتُ: «تحت أمرك».

أمسكَ البارون بيدي وصافحها قائلًا: «جزيل الشكر، أنا مَدين لك، لأنك تُسدي إليَّ خدمة جليلة. الأمر في غاية البساطة، كل ما عليك هو إضافة ثلاث قطرات أو أربع إلى فنجان من الشاي، هناك شيء آخر لو أذنتَ لي، من فضلك أخبر الرجل بعدها أنني أودُّ الحديث إليه، سأنتظره غدًا في تمام العاشرة صباحًا، أبلغه بذلك من فضلك».

ثم غادر، غير مُدرِكٍ كمَّ الأسف الذي أعانيه الآن من تحت رأس الوعد الذي قطعتُه. صحيح أنني أفتقر إلى جميع مقوِّمات الطبيب الماهر، إلا أنني لا أعدمُ شيئًا واحدًا: الضمير. ما إن أغلق البارون البابَ خلفه حتى تضاعفتْ في نفسي مشاعر الخوف والشكِّ وتأنيب الذات.

وبَّختُ نفسي: كيف لي أن أقطع مثل هذا الوعد؟ وكيف جرؤ البارون على أن يطلب مني مثل هذا الطلب؟ أنا طبيب. كيف أعطي مريضًا دواءًا لا أعرف شيئًا عن تركيبته ولا جرعته ولا آثاره؟ ألا يعني ذلك خيانة

ثقة المريض التي وضعها في؟ لا، لا يمكنني الوفاء بالوعد الذي قطعتُه للبارون. لن أفعل ذلك. ولكن سرعان ما انبعثَ بداخلي صوت الجُبن والشعور بالراحة. ولكن هل أحنث بوعدي وأُخيّبُ ظنَّ البارون؟ لقد قال إن العقّار غير مؤذٍ على الإطلاق، وإنه يتحمل المسؤولية الكاملة عن أفعاله. في النهاية البارون رجل عالم وباحث، يُفترض أنني أتفهَّم كلامه. لا! لا! لا! لا يجب أن أفعل ذلك، انطلقتْ صرخة من داخلي.

وكيما أضع نهاية لشعور القلق الذي يعتمل بداخلي، ولتحاشي كل إغراء بالعدول عن رأيي حسمتُ قراري على نحو مفاجئ وأخذتُ الأنبوب وكسرته، فانسكبتْ محتوياته على أرضية الغرفة. عبقت رائحة نفَّاذة جميع أرجاء الغرفة فكدتُ أختنق. قلت لنفسي ما كان لي أن أفعل ذلك، لم يكن لديَّ الحق لأفعل ذلك. كان الأجدر بي إعادة القارورة إلى البارون وإخباره: تفضّل ها هي القارورة، لا يمكنني إتمام الأمر!

ما كان لي أن أحطّمها، ماذا الآن؟ هل أقف أمام البارون وأعترف بما فعلت؟ لا، كنتُ أجبَن من فعل ذلك. لكني وجدت طريقة للخروج من المأزق، لكنها كانت طريقة وضيعة، ذليلة، مثيرة للشفقة و معجونة بماء الكذب. عصرتُ نصف ليمونة في كوب من الماء ثم أضفت بضع قطرات من صبغة اليود، بالطبع سيكون مذاق الشراب مقرفًا، لكن أثره لا يمكن أن يزيد عن القليل من الغثيان في المعدة، وربما لا يصل الأمر إلى ذلك.

البارون؟ قلت لنفسي: سيفترض فقط أن تجربته قد فشلت، ولكن ما الذي يهمُّني؟

ناديتُ على الرَّجُل الذي تحدث عنه البارون. كان رجلًا طويلًا نحيفًا، ويمشي بانحناءةٍ بسيطة، بلِحية صلبة، وعينان متشكِّكتان، ووجه ينمُّ حقًّا عن مفكِّر عميق، ولم أكن قد لمحتُ ذلك مسبقًا.

أشرت إلى الكأس.

«هذا الكأس لك، ستشربه الآن. تفضَّل، الأمر ليس بالغ السوء. اشربه على جرعة واحدة. تمام. في آخر الليل قرص أسبرين، وحمَّام دافيء صباحًا ومساءًا. نعم، ولا تنسَ أن البارون يريد التحدُّث إليكَ، إنه ينتظركَ غدًا في تمام العاشرة صباحًا، لا تتأخر».

سقطت القُبَّعة من يد الرَّجُل، ثم التقطها ووضعها فوق الكرسي، بدا عليه الانزعاج من كلامي، فـمسّدَ بيده على لِحيته متمتمًا:

«هل ينبغي الذهاب إلى البارون، لا إلى المفتش؟».

«نعم، إلى البارون.. يريد التحدث إليك».

بدت على وجهه ملامح الاضطراب.

«البارون؟ وماذا يمكن أن يقول لي حضرة البارون؟ يستدعيني السيد ناظر العزبة أحيانًا لشؤون متصلة بالعمل، لكن البارون؟ غريب.. أنا هنا منذ خمس سنوات ولم يفعلها مرة واحدة، لا بد أن المقصود هم الجيران.. آه.. لا بُدَّ أنه موضوع قطع الخشب، لكني لست الوحيد، فالجميع يفعلون ذلك».

كنت أرغب في تهدئته فقلت: «لا، ليست للمسألة علاقة بقطع الأخشاب».

إلا أنه ازداد اضطرابًا.

«ليس بسبب موضوع الخشب؟ تمام.. دعني أُخمِّن: لقد رآني جالسًا بالخارج ورمقني بنظرة ذات مغزى، ولكن كيف اكتشفَ ذلك؟ أقسم لك ذلك يا حضرة الطبيب، وسأقسم أمام المحكمة أيضًا، لقد كانت هذه المرة الوحيدة. حدث ذلك عشيَّة عيد الميلاد، لم يكن هناك قطعة لحم بالمنزل، وقالت زوجتي إن الـ...».

لكنه لم يكمل الجُملة، أخذ قُبَّعته بحركة خاطفة من فوق الكرسي ثم غادر الغرفة متعثرًا في خطواته.

في ذلك المساء ذهبتُ لرؤية بيبيشي. رأيتها واقفة أمام المِجهر، وفوق الطاولة تراصَّتْ البَوتقات وأنابيب الاختبار. بينما صينية طعام العشاء على حالها لم تُمسّ.

قالت:«لطيف أن أخطر على بالك اليوم، كم أنا سعيدة لأنك جئتَ. آه يا بيبيشي المسكينة.. العمل! العمل! لن يُسمح لي بالانصراف اليوم».

رأتْ تعبير خيبة أمل على وجهي وابتسمتْ، ثم سرعان ما اكتسى وجهها بالجدِّية مرة أخرى.

«لقد تغيرتُ كثيرًا في غضون السنة الفائتة، ألم تلاحظ ذلك؟ لم أعد كما كنتُ في السابق. لا أعرف كيف أشرح لك، لقد تحوّلتُ إلى مجرد وعاء يحوي أفكارًا عظيمة غريبة، صحيح أنها ليست أفكاري، لكني مُشرَّبة بها، وتؤرق ذهني، أشعر بها نافذة إلى عروقي، مختلِطةً بأفكاري، ممسكةً بتلابيبي».

افترَّ ثغرها عن ابتسامة ثانية.

«أتراني أبالغ؟ أنا مجرد مساعدة صغيرة، لكن العمل استحوذ عليَّ. هل تفهم قصدي؟ لا تعبسْ في وجهي هكذا ولا تغضب مني، أنا سعيدة لأنك أتيت. ما رأيك في الخروج معًا في نزهة غدًا؟ قبل موعد الفطور بساعة؟ سأنتظرك في الثامنة، اطرق على النافذة، سأكون جاهزة، أكيد».

لكني لم أنصرف، لبثت واقفًا على بعد خطوات قليلة من منزلها، أُحدِّق في النوافذ المضاءة.

في تمام الساعة التاسعة جاء البارون لكنه لم يرني. فتحَت له بيبيشي الباب بنفسها، ثم أُقفِلَتْ مصاريع النوافذ. لبثتُ منتظرًا وسط البرد والثلوج لمدة ست ساعات، ولم يغادر البارون إلا الثالثة فجرًا.

بقيتُ مضطجعًا في سريري ساهدًا بقية الليل. وفي تمام الثامنة صباحًا طرقتُ نافذة منزلها، لكن أحدًا لم يجب، عاودتُ الطَّرق ثانية. فُتح الباب الأمامي وخَرجَ إليَّ طفل لا يتجاوز عُمره الحادية عشرة، حاملًا علبتي حليب فارغتين.نظر إليَّ بارتياب وقال:

«الآنسة نائمة، وغير مسموح بإيقاظها».

وضع إصبعه فوق فمه مؤكدًا على كلماته، ثم ما لبث أن ركض بعيدًا ليغيب عن الأنظار.

لفترة من الوقت بقيتُ أسمع صوت قعقعة اصطدام زجاجتي الحليب قادمًا عبر الضباب الكثيف الذي يلفُّ المكان.

11

أظن أني أهدرت فرصة سانحة لن تتكرَّر عندما كسرت الأنبوب الزجاجي وأهرقت محتوياته على السجادة، أهدرت فرصة التدخل في مسار الأحداث تدخلًا حاسمًا. يحدوني شعور غامض ومُقبِض أن الأمور كانت ستسير على نحو مختلف لو أني نزلتُ على رغبة البارون فون مالشين وانصعتُ لرغبته. لكني لم أفعل، ويبدو أني بإحجامي عن تلبية طلبِه نأيتُ بنفسي عن كل ما وقع لاحقًا.

والآن عندما أعود بذاكرتي إلى الوراء أدرك أنني اتخذت دائمًا دور المتفرِّج -متأثِّرًا بما حدث- من دون أن أشارك مشاركة فاعلة فيما يجري. ومن سخرية القَدَر أنني، وبرغم موقفي السلبي، أرقد هنا في غرفة المرضى هاته، مُثخن بالجروح، محموم، نصف مشلول، ضحية التحوُّل المُفزع الغامض لمسار الأحداث. ليس لدي مسوِّغ للشكوى: أنا على قيد الحياة. هل نجا البارون ببدنه من الإعصار السابق؟ وماذا حدث لفيديريكو؟

وهي؟ إلى أين هربَت؟ لم تخامرني ذرة شك أنها ما تزال على قيد الحياة وأنها بأمان.

ما يزال هناك من يستطيع الردّ على سؤالي. نعم، براكاستين لا يتوقف عن التسلل إلى غرفتي لابسًا رداءه، حاملًا المكنسة، مختلسًا النظرات إليَّ. أخبرتُ الممرضة بصوتٍ مرتفع أني أودُّ لُعبة «واحد وثلاثين»، عسى أن

يسمعني لكنه تظاهر كأن لم يسمع شيئًا. إنه جبان، وجُبنه بلا حدود، وأنا أكرهه كما كرهته عندما قابلته على غير موعد عند بيبيشي.

كان قد حَيَّاني ودعاني إلى الجلوس، وكان هذا أكثر ما أثار استفزازي، حيث تصرَّف كما لو كان هو صاحب المنزل، وكما لو كنتُ أنا ضيفه، لا ضيفَها هي. وهناك رأيت الكاهن، وهو رجل مسِنّ بعظام وجه ناتئة وشعر أبيض.

بينما كانت بيبيشي تقدِّم إليَّ الشاي، قال الروسي:

«كما ترى أمامك رجلٌ مـرَّ بيوم عصيب، أستطيع أن أقول ذلك، هذه هي الحقيقة، استقبل البارون ضيوفًا وزوارًا من الخارج، غالبًا ما نستقبل زوارًا أجانب. ولكن هل تعرف ماذا يعني ذلك إليَّ؟ أنني لم أكن أملك الوقت حتى لالتقاط أنفاسي. أمرني البارون قائلًا: يا أركادي فيدوروفيتش.. اعْتَنِ بتجهيز الغداء والعشاء، فأجبته: أوامرك! سأعتني بالطعام، بالطبع سأفعل، وسأعِدُّ سلطة السمك بيدي، فأنا لا أعتمد على طاقم الطباخين. ولكن انظر ماذا حدث، اختلى أبي العزيز البارون بضيوفه وانشغل بالاجتماعات، فلم أره طَوال اليوم، تولَّيت مسؤولية العمل بمفردي، وكما ترى في مثل هذه الأيام أشعر أنني مضطَّر لأشاطر جَدِّي رأيه لَمَّا قال إن العمل يحطُّ من شأن الرجال ويحوِّلهم إلى حيوانات، فعندما أقللتُ السِّير ريجينالد من محطة القطار كان الـ...

قاطعته بيبيشي محذرّة: «أركادي فيودوروفيتش: أنت تعلم أن البارون لا يحب الكلام عن هذه الموضوعات!».

قال الروسي: «نعم أعلم ذلك، آه عندما تقطِّبين جبينكَ يا كاليستو، عندما تغضبين مِني أشعر وكأن الشمس قد غربتْ عن سماء صافية،

أعلم أن السادة الأكابر يرغبون في البقاء وراء الكواليس، لكن من المؤكد أن هناك أكثر من دَرزِّينة رجال اسمهم «السير ريجينالدز» في إنجلترا!».

التفتَ ناحيتي مرة أخرى وقال:

«إنك تتفرَّس ملامحي بإمعان، يا دكتور، تتفرَّسها بعينيْ باحث، غريبة هي الطريقة التي ترمقني بها. ربما تقول في نفسك: طلَّة عابسة، وجنتان بارزتان، رجل ضعيف! أليس هذا هو رأيك؟ [أنني] مجرد أخرق مغرور، لا يُعوَّل عليه ولا يفكِّر إلا في نفسه. ربما كنت ذلك النوع من الأشخاص يا دكتور في الأيام الخوالي، عندما كنت ما أزال مُفْعَمًا بالحيوية والحب. أما اليوم فقد اكتويتُ بنار الأيام وتجرعت مرارة الدنيا، فأمسيتُ شخصًا آخر، صرت أفكر في الآخرين أولًا، وأضع نفسي في ذيل القائمة. وهذا ما يزعجني الآن، يزعجني أكثر مما أستطيع البوح به، كأن أراك مثلًا جالسًا هكذا عابسًا، متجهِّم السَّحنة، حتى إنك لم تشرب الشاي. يا كاليستو: يجب أن نفعل شيئًا لتسلية ضيوفنا. رتِّبي لُعبة مسليَّة».

لمستْ بيبيشي يدي وهمسَتْ في أذني:

«ماذا بكَ؟ هل مزاجك متعكِّر؟».

كان براكاساتين قد سحب البطاقات بالفعل.

قال للكاهن: «حضرة الكاهن: ما رأيك نلعب لعبة واحد وثلاثين لتَزْجِية الأوقات، ستنضمُّ إلينا أليس كذلك؟ سأوزِّع أنا أوراق اللَّعب».

« أأنتَ مُتْعَب أم غاضب؟».

سألتني بيبيشي بنبرة لطيفة.

قال الكاهن:«أستميحكم عذرًا، لكني لا ألعب الورق، أمارس رياضة التزلُّج من حين إلى آخر في منطقة «فايسين هيرشين» مع الفلَّاحين، وأحيانًا ألعب كوتشينة مع صاحب العزبة».

قال الروسي: «وأنا أيضًا ألعب الكوتشينة».

«سأصارحكم بالحقيقة: لم تَعُد ظروفي المادية تسمح بالمجازفة بتبديد المال، حتى ولو في أضيق الحدود، لابد من حساب كل «بنس» أُنْفِقُه».

كان الكاهن صادقًا في كلامه، كنت قد سمعت بالفعل أنه يُعِيل أسرة شقيقه الذي فقد وظيفته، ولزيادة دخلِه أجَّر جميع الغرفة الموجودة في منزل الإبرشية إلى الآنسة بيبيشي واكتفى بسكنى «العِليَّة». وفي الغرفة التي اتخذتها بيبيشي مختبر تجارب عُلقَّتْ صورُ الصليب والعائلة المقدسة أعلى أنابيب الاختبار وأوراق عبَّاد الشمس ومسحات القطن، فضلًا عن أوعية «بِتري»[1] المملوءة بمادة الجيلاتين.

اقترح الروسي: «يمكنك أن تكتب لي إيصالًا يا حضرة الكاهن لو خسرت في اللعب».

أجاب الكاهن بضحكة هادئة: «لو فعلتُ ذلك لأسأتُ استغلال صفو مودّتك، لأن إيصالًا يحمل توقيعي ربما يكون أقل قيمة من الورقة الفارغة التي كُتب عليها، لا، بمنتهى الأمانة لا أريد اللعب».

أعاد الروسي البطاقات إلى جيبه وقال:

«لو كان الأمر هكذا فلا ضير في أن تأخذ على الأقل قطعة أخرى من هذه الكعكة المحشُوَّة بكثير من مسحوق زهور الليليك والتوت البري المُجفف، وأنت أيضًا يا دكتور يجب أن تجرِّبها، صنعة يدي، لعلمِك يا دكتور نحتفل اليوم بذكرى سنوية مهمة».

أكَّد الكاهن على كلامه قائلًا: «صحيح، حفلة صغيرة من دون ترتيب مسبق».

---

(1) وعاء بِتري: وعاء أسطواني غير عميق، مصنوع من الزجاج أو البلاستيك يستخدمه العلماء والباحثون لاستنبات الخلايا والفطريات. (المترجم).

تابع الروسي: «نحتفل بذكرى مرور سنة على انضمام كاليستو إلى عزلتنا هنا.. كاليستو: ألم أهبكِ قلبي وروحي في أول يومٍ رأيتكِ فيه؟».

قالت بيبيشي: «طبعًا وهَبْتَني قلبك وروحك، ومن المؤكد أيضًا أن روحك ما تزال محبوسة داخل الأوعية الزجاجية في المختبر، لو لم تكن قد حَرَّرتْ نفسها».

شيء ما في كلامها أشعرني بالخجل وجعل الدم يفور في رأسي.

وأنا، ألم أهَبَها روحي وقلبي عندما رأيتُها للمرة الأولى؟ كانت أفكاري تطوف حولها من دون توقف منذ اليوم الأول، وكانت تعرف ذلك، بل واعترفتْ به. في البداية كنتُ أُظهر أمارات الكبرياء وضبط النفس، أما الآن، ومن دون جهد يُذكر، وببضع كلمات منها، وبنظرةٍ واحدة رمقتني بها، أَذَلَّتْ كبريائي.

راقَها أن تراني أعزلًا ضعيفًا. أحيانًا كانت تدفعني للتفكير في أني أُمثِّل شيئًا عندها، لكنها كانت تسمح لهذه الفكرة لمدَّة لحظة خاطفة قبل أن تنزلق مثل سارقة خفيفة اليد. لماذا أرادتْ أن أرى كل ذلك الآن؟ كانت تستهدف الاستهزاء بي، لا بالأمير براكاستين.

انتفضتُ واقفًا بعد أن اُضطرم بداخلي حريق من الحزن والسخط وقلت: «إنها إذن حفلة للمقرَّبين، وبالتالي لا مكان لي».

نظرتْ إليَّ بدهشة واستغراب: «ستغادر؟ لماذا؟ لتبقَ معنا. هل ستصرّ على الرحيل، حتى لو طلبت منك البقاء؟».

إلا أنني غادرت، لاحظتُ بمرارةٍ أنها لم تحاول محاولة أخرى لإثنائي عن رأيي. وعندما وصلت المنزل ارتميت على الأريكة، تبدَّلت الأحوال. كنت منزعج الفؤاد، مشتَّت الفكر، غير راضٍ عن نفسي، اجترّت ذاكرتي

كل كلمة نطقتها بيبيشي، وبقيت أعذِّب بها نفسي مرارًا وتكرارًا. كان الصداع يهشِّم رأسي، ربما أُصِبت بالحمَّى.

«هل ستغادر؟ حتى لو طلبتُ منك البقاء؟».

قالتها بيبيشي لكني غادرت المكان وأهنتها. «هل مزاجك متعكِّر؟»، من المؤكد أن الكيل قد فاض بها من تعكُّر أحوالي المزاجية، أودُّ لو أني أستطعتُ إصلاح الأمور، ماذا لو رجعتُ إليها الآن؟ حاملًا باقة زهور، وأقول:

«أردت فقط إحضار بعض الورود إليك يا بيبيشي بمناسبة مرور سنة على وجودك هنا، لذلك غادرت، لا سبب آخر».

ولكن من أين لي بالزهور في فصل الشتاء؟ هناك في المزهرية زهور صناعية، لكنها قبيحة مغمورة بالتراب، لماذا لا يمتلك البارون صَوبة زجاجية؟ آه لو كان يملك صوبة عوضًا عن المختبر؟ ولكن لن تكون بيبيشي موجودة حينذاك. زهور الليلك! في مكان ما رأيتُ اليوم زهور ليليك بيضاء. أين رأيتُها؟ كانت زهور ليلك مسحوقة، آه.. تذكَّرتُ الكعكة «صنعة يديه»، «ربما أهديكِ روحي يا بيبيشي، لو كان في مقدوري أن أهبهَا روحي».

سمعتُ طرقًا على الباب فقفزتُ من مكاني، جاء الولد الصغير الذي أخذ زجاجتَي الحليب من أمام عتبة باب الكاهن، جال ببصره في أرجاء الغرفة ورآني مستلقيًا على الأريكة، وقال:

«مساء الخير، هذه الورقة من الآنسة».

سلَّمني قصاصة ورق مطويَّة. انتفضتُ من مكاني وقرأتُ:

«أنتَ غاضب مني ولا أعرف لماذا؟! آه يا بيبتشي المسكينة! عليَّ أن أتحدث إليك اليوم، سأتناول العشاء مع البارون، من فضلك قابلني خارج بوابة الحديقة في الحادية عشرة. لن أستطيع المجيء قبل ذلك».

اجتاحتْ الشارعَ عاصفة ثلجيَّة قذفت نُدَف الثلج في وجهي. كنتُ أتجمَّد بردًا لكني انتظرتُ لمدة ربع ساعة. دقَّت الساعة الحادية عشرة، سمعتُ جَلَبة تنبعث من ناحية الحديقة، صوت تهشُّم الثلج. فُتحت البوابة، وهتف صوت غريب: «من هناك؟» وانسكب ضوء مصباح يدويٍّ ليغمرني من الأعلى للأسفل.

«أهذا أنت يا دكتور؟ تقوم بنزهات ليلية في هذا الوقت من السنة؟»، قال البارون فون مالشين.

انشقَّ الظلام لتظهر بيبيشي وقد علَتْ وجهها ملامح الحزن والاضطراب. راحت تنظر إليَّ نظرة مرتبكة وَجِلة مثل طفلٍ خائف من الضَّرب. قرأتُ في عينيها جُملة: «هو مَن أصرَّ على مرافقتي، ما بيدي حيلة».

قال البارون: «هيا يا دكتور، سنُعيد الطفلة إلى المنزل».

لم أغضب للحظة، بل كنت سعيدًا برؤية بيبيشي وبعودة المياه إلى مجاريها، لاحظت على الفور أنها وضعتْ ذراعها تحت ذراعي. قالت بنبرة هادئة لكنها لا تخلو من صرامة: «أحيانًا تكون سخيفًا بلا حدود».

في الطريق إلى منزل الكاهن أخذ البارون يثرثر كعادته.

«ينبغي أن أشكركَ يا دكتور على تيسير إجراء هذه التجربة الصغيرة».

داهمني شعورٌ بالقلق، لقد شكَرني الرَّجُل برغم أنني حنثتُ بوعدي، والأدهى أني خدعته. ربما ينبغي الآن أن أصارحه بالحقيقة، إلا أنني راجعت نفسي وقلتُ إنه من الحكمة لزوم الصمت.

«هل جاءكَ الرجل؟»، سألتُه مستفسرًا.

«نعم، جاءني وهو يتلو آيات من الكتاب المقدَّس، وفقرات من سِفري أيوب والمزامير، وفقرات من رسائل بولس إلى أهل كورنثوس، معترفًا بسرقة الحَطب من غابتي وإطلاق النار على حيوانات الظِّباء عشيَّة عيد الميلاد».

«وهل ستحرِّر بلاغًا ضدّه؟».

«أهذا رأيكَ فيَّ يا حضرة الطبيب؟ لستُ وحشًا عديم القلب. لقد فعل الرجل ما كنت أنتظره منه، جاء واعترف بذنبه، لم أكن متأكِّدًا تمامًا ما إذا كانت التجربة ستنجح، لكنها نجحَتْ في النهاية».

كنا قد بلغنا منزل الكاهن، وقفتْ بيبيشي متكئة على باب المنزل وهي تغالب النعاس.

سألها البارون: «هل تشعرين بالتَّعب؟».

«بل أنا في قمة التَّعب حتى أنني نعستُ في أثناء المشي، لست معتادة على شرب النبيذ الثقيل مثل...».

تردَّدتْ للحظة ثم تابعَتْ كلامها: «مثل أصغر ضيفيكَ».

«يمكنكِ أن تبوحي باسم مَن قابلتيه عندي، كان أحد ضيوفي حاكمًا سابقًا لإحدى مستعمرات التاج الإنجليزي، إلا أنه تقاعد حاليًّا وهو الآن على رأس المجلس التشريعي في إنجلترا. من يكون ضيفي الثاني؟ لم تخبرُكَ الشابَّة الواقفة أمامنا، التي تغطِّي فمَها بيدها كيلا يلاحظ أحد أنها تتثاءب، أقول: لم تخبرُكَ أني تناولت العشاء اليوم مع ملك إنجلترا».

«ملك إنجلترا؟».

صرختُ بينما أنظر إلى بيبيشي.

«نعم. مع ريتشارد الحادي عشر، قالت بيبيشي، ثم تابَعتْ: «سيقتلني التعب، تصبحون على خير».

«لكن ملك إنجلترا الحالي ليس ريتشارد الحادي عشر».

«بل هو ريتشارد الحادي عشر، سليل آل بيت تيودور، وهو يعمل حاليًّا مُدرِّس رسم في مدرسة البنات بمدينة ساسكس، وهو الوريث الشرعي للتاج البريطاني».

12

لم تكن مصادفةً أن ألتقي البارون فون مالشين على أطراف غابة الصنوبر؛ يومها كنت في طريق العودة إلى القرية قادمًا من كوخ الغابة. كنا في ساعة الضحى وكان الرجل وقتها يصطاد. رأيته يطلق النار على صقر وعلى زوج من طيور الطيهوج[1] الأسود.

برغم ذلك ترسَّخ عندي انطباع أنه كان ينتظر مجيئي عند الممر القريب من ممشى الغابة. والآن فهمتُ ما الذي كان يدور بذهنه: كانت كلما اقتربتْ تجاربه من محطة النهاية ازدادتْ رغبته في البوح والفضفضة. سيختل ميزان التوازن الرُّوحي للمرء لو كتم الأمر في صدره، وكان على البارون أن يتكلَّم مع أحد.

على مدار سنة كاملة شاركَ أسراره مع ذراعه اليمنى بيبيشي، وربما أفضى بمكنون بعض التفاصيل إلى الكاهن الذي خيَّب رجاءه بعد أن لمس منه إعراضًا صامتًا لم يستطع تجاوزه، فراح يبحث عن شخص يعرض أمامه تَـجسُّد الصرح العظيم لخططه وأفكاره، ولم يجد أمامه إلا أن يضع ثقته في شخصي من اليوم الأول باعتباري ابن صديقه الراحل.

---

(1) سلالة من الطيور تنتمي إلى الطيور الدَّاجنة وتشبه الدجاج، تسكن في غابات الصنوبر في المناطق الشمالية الباردة. (المترجم).

غادرتُ الغابة، ثم وقفت تحت السماء الصافية المصبوغة بزرقة شاحبة. كانت إبر الجليد على أغصان أشجار الصنوبر تنمو بشكل مضطرد. تناهى إلى سمعي صوت نباح كلاب قادم من أقصى القرية التي كنا على أطرافها، فلم يظهر منها سوى برج الكنيسة الأحمر مربَّع الأركان. رآني البارون فأقبل ناحيتي عبر المروج، حاملًا بندقية الصيد في يده.

«صباح الخير يا دكتور.. لا توغل في المشي أبعد من ذلك هنا، ستغرق في الثلوج حتى ركبتيكَ، سأدلُّك على طريق أفضل».

بدأ بالحديث عن ضيوفه الذين كانوا قد غادروا القرية بالأمس، ولم أرَهم إلا مرة واحدة بشكل عابر، ثم انتقل بنا الحديث إلى الصيد، كان حديثه مقصورًا على كلاب الصيد قصيرة الشعر، وعلى صيد الأيائل وطيور الطيهوج الإسكتلندي. ولا أذكر كيف تطرَّق بنا الحديث في نهاية المطاف إلى عالم السياسة.

جاهرَ البارون فون مالشين بتأييد النظام الملكي، وبالدفاع عن شرعيته باعتباره حبلًا موصولًا بإرادة السماء، وقال إن العناية الإلهية تتجلَّى في نظام التوريث الملكي أكثر مما تتجلَّى في الإرادة الشعبية التي يعوزها مبرِّر الوجود، إن كان لها وجود من الأساس بحسب رأيه. فالنظام الملكي لا يحتاج إلى تبرير مجتمعي سواء من عصرنا أو من أي عصر سواه، فالمَلَكيَّة ليست مرهونة بحقبة، ولم يكن البارون يراها نظام الدولة الأفضل وحسب، بل كان يراها النظام الوحيد الجدير بالوجود، وكان إيمانه بالمَلَكيَّة جزءًا راسخًا لا يتجزأ من إيمانه بعقيدته الدينية. كانت هذه آراؤه السياسية، ولم أستغرب صدورها من أحد النبلاء.

بعدها نطقَ مُرتجلًا بكلمة وبدت وكأنها شيء مفروغ منه ومعروف عندي منذ زمن طويل:

«لو كُتب لألمانيا، ولأوروبا على وجه العموم مستقبلًا مشرقًا فلا بد أن يكون مقرونًا ببزوغ إمبراطورية الرب، وبعودة الحياة من جديد إلى الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة للأمة الجرمانية[1]».

صرختُ مذهولًا: «ماذا تقول؟ هل تحلُم بإعادة إحياء الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة للأمة الجرمانية؟ ألم تكن هذه الإمبراطورية أضحوكة العالم لقرون من الزمن؟».

لم يُنكر كلامي، وقال:

«بالفعل كانت أضحوكة العالم لمدة قرون، أو لو توخينا الدِّقة كانت أضحوكة العالم تحت حكم عائلة هابسبورج، بعد أن فقدت الإمبراطورية المقدسة في ظل حكمهم مبرِّر وجودها ومضمونها وقوتها، ولا سبيل إلى عودتها ثانية إلا في ظل سلالة تستدعي العناية الإلهية وتستلهم التاريخ المقدَّس».

«وبالتالي فأنت تظن لو عاد آل «هوهنتسوليرون»[2] إلى الحكم فـ...».

---

(1) تكتّل سياسي قروسطي بأراضي أوروبا الوسطى والغربية، تأسس خلال العصور الوسطى المبكرة وحُلَّ رسميًا سنة 1806، وفي العصر الحديث، غالبًا ما كانت تُسمَّى الإمبراطورية بشكل غير رسمي بالقيصرية الألمانية (Deutsches Reich)، أو الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وبعد تفككها حتى نهاية القيصرية الألمانية، كانت تسمى الإمبراطورية القديمة Das Alte Reich ، ولكي يفهم القارىء السياق التاريخي العام فقد حدد الاشتراكيون القوميون والدعاية النازية في أوائل القرن العشرين الإمبراطورية الرومانية المقدسة على أنها «الرايخ الأول»، والإمبراطورية الألمانية باعتبارها «الرايخ الثاني» والدولة القومية الألمانية المستقبلية باسم «الرايخ الثالث». (المترجم).

(2) بيت هوهنزوليرن: كان من أهم البيوت الحاكمة في ألمانيا وتنحدر منه عديد من الأُسر التي حكمت مناطق واسعة في ألمانيا. (ال مترجم).

قاطعني: «آل هوهنتسوليرون؟ ما هذه الأفكار يا دكتور؟ لقد كانوا غرباء على أرضهم، مارجريف براندنبورج وملوك بروسيا، إمبراطورية هوهنتسوليرون ليست إلا حلقة مغلقة في تاريخ ألمانيا. ماذا تقول يا رجل! هوهنتسوليرون؟ كانت علاقتي دائمًا مع آخر حامل للتَّاج الإمبراطوري علاقة شخصية بحتة».

توقَّف عن الكلام، مصغيًا السمع إلى صوت قعقعة آتية من بعيد من كسَّارة البندق في الغابة، ثم تابع بهدوء وكأنه يتحدث إلى نفسه، وليس إليَّ:

«الإمبراطورية القديمة مفعمة بالأحلام والأغاني، هل نسيتَ أن ألمانيا تحت حكم آل «هوهنشتاوفِن»[1] كانت قلب العالم؟».

أجبتُ بينما كنا نواصل المشي:

«لا.. ولكن نسل آل هوهنتشتاوفن قد انقطع منذ أمد بعيد، وهم حُكَّام الإمبراطورية الحقيقية الوحيدة التي شهدها العالم منذ حقبة الإمبرطور الروماني أغسطس».

قال البارون بعد فترة صمت قصيرة:

«لا، لم ينقطع نسل آل هوهنتشتاوفن، وفي يوم من الأيام عندما يقول القَدَر كلمته سيتسلَّم نسلهم مقاليد الحُكم، وسيضعون التاج والعباءة الإمبراطورية، حتى ولو بيعت هذه الشعارات المقدسة هذه الأيام إلى الأمريكان».

---

(1) سلالة من الملوك الألمان، تُوِّج عديد منهم كأباطرة للإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الجيرمانية. (المترجم).

نظرتُ إليه، فاكتسى وجهه مجددًا بالتعبير المفعم بالحماسة والتطرُّف الذي عهدته فيه، وأحسستُ بخطورة الانخراط في جدال معه الآن، لكني قلتُ:

«ولكن دعني الآن أسألك يا بارون كيف تفكِّر؟ ربما لا يزال آل بيت تيودور في مكان ما في إنجلترا، لكن آل هوهنتشتاوفن قد انقطع دابرهم منذ أكثر من ستة قرون بعد غرقهم في بحارٍ من الدماء والدموع، وكما قال البابا: «لتفرح السماوات ولتبتهج الأرض بهلاك اسم ونسل ملك بابل، وملك بابل كان «فريدريش الثاني»، ابن هاينريش والإمبراطورة كونستانس ملكة صقلية، آخر نسل «هوهنشتاوفِن» الذين لبسوا التاج الإمبراطوري».

كَرَّر البارون الاسم:

«صحيح، فريدريش الثاني الذي عرفه القاصي والداني كمعجزة العالم ومبدِّل أحواله[1]، الإمبراطور الذي تركتْ لأجل خاطره أُمُّه دَيرها الأثير، بعد أن رأتْ رؤيا مناميَّة تُبشِّرها بأنها ستلد النار الموقدة، ومصباح العالم المنير ومرآته المجلَّوة بلا شروخ، الرجل الذي ركع بين يديه ملوك العالم، وعندما مات كَسَفَتْ الشمس حزنًا وأسفًا كما ذكر المؤرخون، وحَمَل الناس جثمانه إلى تلال «كيفهويزر»[2]، كان له خمسة من الذكور، نعم، خمسة، تُوفي هاينريش ابن إيزابيلا الإنجليزية عن عمر يناهز الخامسة عشرة، وانتحر هاينريش الثاني، نجل أميرة أراجون، ذلك الشاب الذي

---

(1) لَقَبٌ مُنح للإمبراطور فريدريش الثاني لذكائه الشديد ورعايته للعلوم، والفنون والآداب. (المترجم).

(2) سلسلة تلال في وسط ألمانيا، تشترك فيها تورينجيا وساكسونيا - أنهالت، جنوب شرق جبال هارتس، لها أهمية في الأساطير الألمانية كمكان الاستراحة الأسطوري للإمبراطور فريدريش باربا روسا. (المترجم).

خان الإمبراطورية، الصبي ذو الضفائر الداكنة الذي غنَّى في زنزانته صباحًا ثم أجهشَ بالبكاء ليلًا، وقفز من عنبر الحبس إلى البحر».

واصلتُ كلامي قائلًا:

«أما الثالث فهو «كونراد» الملك الذي قضى نحبه متأثرًا بإصابته بالطاعون عن عمر ناهز ست وستين سنة».

لكن البارون هزَّ رأسه: «بل مات مسمومًا، لا بسبب إصابته بالطاعون، في ساعاته الأخيرة استشرف المستقبل وقال: «ستسقط الإمبراطورية وتغرق في غياهب الموت.. يا لها من نبوءة!».

مشينا عبر حقل من القَشِّ فراحت سيقان القَشِّ الصلبة المتيبِّسة تَأَزُ تحت أقدامنا مثل شظايا الزجاج، وحلَّقَ طائر هائل الحجم، مرفرفًا بجناحيه العريضيْن ليختفى في أفق الغابة الثلجية.

قطعتُ الصمت الذي لفّنا، وقلتُ: «كان مانفريد هو الابن الرابع للإمبراطور، ومات في معركة بينيفينتو».

قال البارون: «مانفريد الذي نسي شؤون الملك بسبب الأناشيد التي كان يكتبها، كان آل هوهنتشتاوفن جميعهم يغنُّون، عُثـــرَتْ على جثته بعد أيام وسط جثامين القتلى في ساحة المعركة، تعرَّفواَ عليه من شعره الأشقر وبشرته البيضاء كالثلج».

«Biondo e bello e di gentile aspetto[1]» هكذا وصفه دانتي، وفي المطهر صَـــوَّره [دانتي] وهو يستعرض جروحه بابتسامة، شاكيًا من انتقام البابا الذي ضـنَّ عليه بالدفن أسفل جسر بينيفينتو. كان مانفريد»

(1) وردتْ بالإيطالية في الأصل: «أشقر وسيم، لطيف المظهر»، والأمير المشار إليه مذكور في مطهر دانتي (المترجم).

قد تركَ ولَدين، وكانا أشقري الشَّعر مثله، وتُوفيا في زنازين شارل أنجو المنيعة بعد أن ظلَّا مُكَبَّلين في الأصفاد لمدة ثلاثين سنة».

اختتمتُ حديثي قائلًا: «أما إنزيو، أحب أبناء الإمبراطور إلى قلبه، فقد قضى نَحبه وهو في أَسر حكام بولونيا، وكان الإمبراطور قد عرض عليهم إطلاق سراحه مقابل فدية، كانت عبارة عن حلقة من الفضة تطوّق المدينة، وذكَّرهم بأن الأيام دُول وبالزمن الذي يرفع الناس إلى الأعالي ثم يهوي بهم إلى أسفل سافلين. لكن حُكام بولونيا لم يطلقوا سراح نجل الإمبراطور، وردُّوا عليه: إننا نحتفظ به ولن نطلق سراحه، فكثيرًا ما يقبض كلب صغير على خنزير. عاش إنزيو سنتين بعد وفاة ابن أخيه الشاب كونرادين، الذي أُعدم في ساحة السوق في نابولي، وكان آخر سلالة هوهنشتاوفِن».

أجاب البارون: «لا لم يكن إنزيو آخر تلك السلالة النورانية المباركة، وبقي جميلًا مباركًا حتى وافته المنية. ساق له القَدَرُ عاشقة في زنزانته، شاركته الفراش سِرًّا، كانت الابنة الصغرى لكونت جيبلين نيكولو روفو. وذات ليلة وبينما كان الحُرَّاس مشغولين في الشوارع في الاحتفال بأحد المهرجانات، تزوَّج الاثنان ليموت الشاب بعد ثلاثة أيام، وتغادر الزوجة المدينة وتنجبَ صبيًّا في مدينة برجامو الإيطالية».

وجدنا أنفسنا فجأة واقفين أمام بوابة الحديقة، ورأيتُ أغطية القشّ فوق شجيرات الورد، والبئر، والشُّرفة والسقف الأزرق لقصر البارون. اعترتني دهشة عارمة لأني لم أستطع تذكُّر كيف وصلنا إلى القرية. كان علينا الانتظار، فقد سدَّ مسار الطريق عربتا ثيران محملتين بالرَّوث. أصدرت إطارات العربتين صريرًا حادًّا وخارتْ الثيران، ووسط هذه الجَلبة كلها تابع البارون كلامه:

«عَلِمَ البابا كليمنس الرابع بأمر ابن إنزيو، فقال: «انطلاقًا من فضائل الرحمة والمحبة المسيحية سنسقطه من حسباتنا»، «وهكذا عاش آخر سلالة هوهنشتاوفِن في بيرجامو مئات السنين، في تقيَّة وفقرٍ مدقع، وتوارث الأبناء سرَّ أصولهم المَلَكية من جيل إلى جيل عبر الدفاتر التي دوَّن فيها الملك إنزيو أغانيه وحكاياته. وقد عثرتُ على الرجل الذي كنت أبحث عنه، عثرتُ عليه في مدينة «بيرجامو» قبل أحد عشر عامًا، وكانت الدفاتر في حوزته. كان يعمل نجارًا، ولرقَّة حاله عَهِدَ إليَّ برعاية ابنه فجلبتُه معي».

عبر الفجوة الفاصلة بين عربتَي الأسمدة أشار البارون إلى جدران مشيَّدة من الطوب الأحمر تتسلق عليها أشجار الكَرم، وقال:

«انظر إلى المنزل. هذا هو «الكيفهويزر»، حيث يعيش الإمبراطور المحتجِب وينتظر، وسيأتي اليوم الذي أُعلن فيه إلى العالم بالكلمات التي هتفَ بها الخادمُ المسلم للإمبراطور «مانفريد» وهو يخاطب مواطني مدينة فيتيربو التي أعلنت تمرّدها:

«افتحوا الأبواب، وافتحوا القلوب! هوذا سيِّدكم، ابن الإمبراطور قد جاء».

بعدها لاذ البارون بالصمت، بينما راحت عيناه تتابعان عربتي الثيران اللتين ابتعدتا عن بعضهما وشقَّتا طريقهما عبر شارع القرية، مُصْدِرَتين صريرًا حادًّا.

ومن دون الالتفات إليَّ قال بابتسامة ملؤها الخجل والارتباك وبنبرة مختلفة تمامًا عن نبرته السابقة: «ستجده في مقصورة الحديقة يحصّل دروسه، فهذا هو الموعد اليومي لدرس اللغة الفرنسية».

13

لوقت طويل رحتُ أفكِّر بإمعان أيَّة مشاعر اضطرمت بداخلي عندما كشف البارون فون مالشين النقاب عن خُططه العجيبة. شعرت أنني وقعت تحت سطوته للوهلة الأولى بعدما انصرف، وشعرتُ أن إرادة غامضة تكمن وراء كلماته، وانتابني إحساس أن تلك الإرادة إنما تستند إلى قوة فعلية أو إلى قدرات حقيقية، وإن كنت أجهل كُنهها.

لم يدر بخلدي، ولو لوهلة واحدة أن البارون فون مالشين مجرد رجل غارق في خيالاته، بل على العكس راودني هاجس بأن هذا الرَّجُل يمثِّل مصدر خطر حقيقي يهدِّدني ويهدِّد العالَم الذي أعيش فيه برُمَّته. ثم ما لبثْ هذه الهواجس أن تحوَّلتْ إلى شكوك ومشاعر سدٍّ تجيش في أعماقي، وغدا ذهني مرتعًا لكافة الأفكار المشوَّشة العابثة المتناقضة؛ قولًا واحدًا: شعرتُ أنني مصاب بالحمّى. وكان القرار الذي خلصت إليه لاحقًا هو محاولة الهروب من هذه الأفكار. كنت أرتعش من البرد، بينما تفتِّش أصابعي، وأنا مرتبك شارد اللُّب، عن الترموميتر برغم اشتعال النيران بالمدفأة، ثم سرعان ما قفزت إلى ذهني كلمات المُدرِّس التي قالها لي في اليوم التالي لوصولي إلى القرية: «أنتَ مُفرط السذاجة، لو أردتَ يومًا معرفة حقيقة أي شخص في القرية اسألني فقط».

لم أصبر على المكوث في الغرفة أكثر من ذلك، كنت أودُّ الذهاب للتحدّث معه. سألت في الشارع عن محل إقامته. أرتني فتاة صغيرة المنزل. هبطت درجات السُّلم مرتديًا معطف ركوب الدراجات، ومعتمرًا قبعة خضراء.

صاح قائلًا: «ها هو ذا الطبيب.. تعالَ.. تعالَ يا ضيفي الأعز.. يا رَجُل.. انتظرتُ مجيئك منذ يومين.. لا، لا إطلاقًا أنت لا تعطِّلني عن شيء إطلاقًا. اليوم هو الأحد وأستمتع بوقتي كيفما أشاء.. يا «داجوبيرت»: عندنا ضيوف، كنت أعلم أنك ستأتي».

أمسكَ بيدي وقادني إلى غرفة تفوح منها رائحة الكحول وروائح ثياب عطِنة. رأيتُ «معشَبة»[1] مستقرَّة فوق الطاولة تشتمل على جميع أنواع الطحالب والفطريات النباتية، لمحتُ أسفل الأريكة وجود «لبِّيسة أحذية» مصنوعة من الحديد الزهر على شكل خنفساء. على الخزانة ذات الأدراج تراصَّت دوارق زجاجية مُرَتَّبة في صفَّين تحتوي على عيش الغراب السام غير الصالح للأكل. بينما راح قنفذ صغير يرشف الحليب من وعاء خزفي فوق الخزانة.

«أحب أن أعرِّفك بِداجوبيرت، صديقي الوحيد هنا منذ وفاة سلفكِ طيب الذِّكر، رفيق صغير شائك، كل ما عليكَ أن تعرفه جيدًا. ألا تلاحظ أننا متشابهان؟».

من فوق أحد الكراسي أزاح جاروف حفرٍ زراعي وزوجين من الملاقط، وقطعة سجق ملفوفة في صحيفة، وفرشاة ملابس، ثم دعاني إلى الجلوس، وبدأ الكلام:

---

(1) المعشَبة عبارة عن سجِّل تُحفظ فيه مجموعة من العيِّنات النباتية المجففة، معروفة بأسمائها العلمية، ومزوَّدة بالمعلومات الوافية، ومُرتَّبة وتُثبَّت على ورق مُقوَّى في صورة تضاهي الصورة الحيَّة للنبات كسجِّلٍ يمكن الرجوع إليه. (المترجم).

«ألديك أخبار جديدة؟ لا بد أن الضيوف النجوم الذين شرَّفوا قريتنا أثاروا شهيتكَ للتفكير. أم ماذا؟ لقد خمَّنتُ ذلك. ربما حضر المفوَّض السامي للـ «كواي دورسيه»[1] في مهمة شبه رسمية؟ أم تُراه التقى اليوم رجلًا ينحدر من آل جاجيلوني ويطالب بحقِّه في عرش بولندا! أم لعلَّه قابل امرأة شرقية سمينة رثَّة الهيئة تنحدر من سلالة أباطرة بيزنطة؟ نعم، يا عزيزي، هذا هي الحكاية وما فيها، هؤلاء البشر في كل مكان، ولِمَ لا؟ قبل أربعة أشهر مثلًا هبط على رؤوسنا رجل لا تبدو عليه أمارات الدَّم الإمبراطوري، وبَدَتْ هيئته مثل مصرفي شرقي. هل زاره شخص آخر هذه المرة؟ ألم يكن ألكسيوس السابع مثلًا؟ حسنًا، ربما يكون أليكسيوس الرجل المناسب، كان هناك العديد من العائلات المالكة في الإمبراطورية البيزنطية: آل كومنين، آل أنجيلي...».

قاطعتُه قائلًا: «ولكن أخبرني.. ما معنى كل هذا بحق السماء؟».

كان يضع طحلبًا أسفل أحد العدسات المكبِّرة، ويفصل الجراثيم عنه مستخدمًا سكِّينًا صغير وإبرة.

واصل كلامه من دون أن يرفع بصره، قائلًا:

«لا أنكر أن الموضوع مُربك بعض الشيء بالنسبة لك، لكن عليك أن تفهم ما يجري من وراء الكواليس، لنفترض مثلًا -وأنا أُشدِّد هنا على كلمة نفترض- أن رجلًا عاش حياة صاخبة بالطول والعرض، وكانت له توجُّهات معينة، وراح يهذِر بالكلام مع الناس، ثم بدأ هؤلاء في

---

(1) Quai d'Orsay، وردتْ بالفرنسية في الأصل، غالبًا ما يستخدم مصطلح كواي دورسيه كاسم رمزي لوزارة الخارجية الفرنسية نظرًا لموقعها الجغرافي، ويُقال أيضًا إنها كانت مقر المؤامرات والدسائس في العصور الغابرة بحسب (كتاب ناس ومدن) للأستاذ سمير عطا الله. (المترجم).

الظهور واحدًا تلو الآخر، مُطالبين بثمن صمتِهم، يبدو بعضهم للوهلة الأولى في هيئة رجال محترمين نبلاء - وهم في أغلب الأحوال موفدون سِرِّيون ورجال بلاط وساسة، إلا أنهم على كل حال ليسوا فوق مستوى الشبهات، يجدر بالمرء ألا يُرى في صحبتهم، يُذيعون الشائعات عن أصولهم الإمبراطورية والملكية وحول سوء ظروفهم المعيشية، فتُجرى المباحثات وتُعقد المؤتمرات السرية، على أي حال فانتشار الإشاعات أفضل من أن يُقال إن البارون قد وقع في قبضة نبلاء يستنزفون أمواله!».

سألتُه بتأثر: «هل صحيح ما ترويه عليَّ الآن؟».

رمقني المدرِّس بنظرة حادة من وراء عدسات نظارته، وتابع:

«لا، إنها مجرد حواديت من وحي الخيال لائقة بالسُّـذَّج، وأنتَ لستَ واحدًا منهم بالطبع. لستَ مضطرًا إلى تصديق كلمة واحدة مما أقول، كما أنكَ لستَ مضطرًا إلى تصديق أن البارون اعتاد أن يبيع سنويًّا أجزاء من أراضي العزبة أو الغابة، الموضوع «تهريج» يا صديقي العزيز، مجرد كلمات تُقال على سبيل النشوة والتَّفَكُّه، حتى لو ظَهَر رَجل الأسبوع المقبل مدَّعيًا أنه من سلالة «ألاريك الأول»، ملك القوطيين. انظر ها هو ذا قنفذي العزيز ينحدر أيضًا من سلالة موغلة في القدم، فأسلافه كانوا يعيشون معنا من الحِقبة الجيولوجية الثالثة، لكنه مخلوق غير مؤذٍ ولا يُطالب بشيء، اللهم إلا قليلًا من الحليب وشيئًا من مودة الصداقة.. أليس كذلك يا «دراجيبورت؟».

لهنيهة من الوقت أخذ يراقب القنفذ الصغير وهو ينتهي من شرب الحليب، ثم وهو يتشمَّم قطعة السجق المُلقاة فوق الأرض، وواصل كلامه:

«نعم، يبدو أنك تفكر الآن في فيديريكو. إنه فصل آخر من فصول المسرحية. ربما تكون قد خمَّنتَ أنه ابن غير شرعي للبارون، بالمناسبة.. القرية كلها تعرف ذلك، لكن الآراء منقسمة حول هوية أُمه الحقيقية. بيد أن هناك من يزعمون أنه ابن إحدى شقيقات البارون اللواتي قضين نحبهنَّ، لكني لا أذهب إلى تصديق هذا الرأي على الإطلاق. كما أن الصبي لا يتوقف عن إثارة المشكلات للبارون، لقد بلغ الحُلُم مبكرًا ووقع في غرام الفتاة، أقصد إلزي، هل فهمتَ لِمَ أبعد الفتاة عن القصر.. نعم «زنا محارم»، للبارون همومه التي تؤرّقه».

ومن دون أن يمنحني فرصة لاستيضاح المزيد من كلامه، واصلَ قائلًا: «خذ عندك أيضًا ما يُطلَق عليها المساعدة الشخصية.. واسمع النُّكتة التالية: ليس المختبر إلا ذريعة، ومسألة إسكانها في بيت الكاهن من قبيل إضافة البهارات إلى الطبخة، ذكاء حاد، ينبغي لي أن أقول، بل ذكاء مفرط. لمن جلبها البارون من برلين؟ لأجله هو شخصيًّا أم لأجل صديقه الأمير الروسي غريب الأطوار الذي لا أحد يعرف ما الذي يفعله هنا بالضبط؟ لا أستطيع القطع برأي هنا، ربما يكون الرَّجُلان متَّفِقين، وربما يكون البارون هو الطرف المخدوع، لكن المؤكد أن الكاهن يغضُّ الطَّرْف عما يدور في منزله».

لا أذكر التفاصيل الأخرى التي واصل المدرِّس حكيها، فعند هذه النقطة تحديدًا يغلِّف الضبابُ ذاكرتي، أظن أنني احتفظتُ برباطة جأشي كيلا أسمح له بمعرفة ما يختلجُ بداخلي. أتذكر بصعوبة أنني رحتُ أتصفَّح دفترًا سميكًا لا أعرف ما محتواه، ربما يكون قد أرادني المدرِّس أن أقرأ قصائده. كما أتذكر أني كنت أحمل كتابًا يحمل صورًا توضيحية لطحالب. ويبدو أننا غادرنا المنزل بعد ذلك معًا، لأنه رافقني مسافة طويلة، حيث رأيته يرفع قبعته مُلَوِّحًا بتحيَّة حارة في شارع القرية لأحد

قابله، ثم سرعان ما هرع عائدًا إلى القرية، وكأنما أصابه خوف هائل منِّي فجأة.

لابد أنني خرجتُ للتجوال بمفردي في الهواء الطَلق لبعض الوقت. لا أعرف لماذا وضعتُ الحَصَى في جيبي في ذلك المساء، ربما لإخافة كلب كان يطاردني في أحد أزقَّة القرية. في بقعة ما بالقرب من بركة السَّمك تركتُ قبعتي ومعطفي، وقد عثرتْ عليهما ابنة صاحب النُّزُل في اليوم التالي وهي تدفع أمامها سَلَّة نقَّالة.

أمَّا كيف عدتُ إلى محل سكني في القرية مرتديًا معطفًا رقيقًا، فهذا ما لم يبقَ له أي أثرٍ في ذاكرتي. ولم أستَعِدْ أيَّة ذكرى عما جرى مجددًا إلا في اللحظة التي كنتُ واقفًا فيها داخل المختبر.

جاءني صوتُ بيبيشي من الغرفة المجاورة عبر الباب المفتوح.

«انتظرْ لحظة.. لا تُدِر مقبض الباب الآن. كم الساعة الآن؟ ولماذا لَمْ تطرق على الباب أولًا؟».

14

أقبَلتْ نحوي مرتدية زيَّ كيمونو من الحرير الصيني الأصفر، وفي قدميها نعلان مصنوعان من الحرير الأحمر، وعلى شفتيها ابتسامة بدتْ وكأنها تسأل:«هل أروق لك في هذا الكيمونو؟».

بقيَتْ تحدِّق إليَّ وابتسامتها جامدة لبعض ثوانٍ على وجهها الجميل الرائق الذي أومأ بابتسامة لا تخلو من قلق.

سألَتْ: «من أين جئتَ؟ ولِمَ تنظر إليَّ هكذا؟ ماذا الذي حدث؟».

أجبتُ: «لم يحدث شيء».

وجدتُ صعوبة في نطق الكلمات وبدا صوتي غريبًا عني.

«كنت أتنزَّه بالجوار، أتنزَّه في أحد الأماكن، جئتكِ الآن لأسألكِ عن شيء».

نظرَتْ إليَّ نظرة متسائلة: «اسألْ.. ولكن تفضل بالجلوس أولًا».

وضعَتْ وسادة على الأرض، ثم أضافت وسادة ثانية فوقها وقعدتْ على الأرض، وذراعاها يطوِّقان ركبتيها، ووجهُها مصوَّب ناحيتي.

«لماذا لا تجلس؟ تكلّم.. لديَّ نصف ساعة فقط».

كررتُ ورائها: «نصف ساعة فقط! وبعدها؟ مَن سيأتي؟ البارون أم الأمير الروسي؟».

فأجابتْ: «البارون.. هل يشكِّل الموضوع فارقًا؟».

قلتُ: «لا.. سيان، الأمر سيان، لقد عرفتُ كل شيء الآن».

رفعَتْ رأسها قليلًا وقالت: «جميل.. وما الذي عرفـتَه؟».

أربَكَتني نظراتها الهادئة، فأجبتُ: «عرفتُ ما يكفيني، إما أن يأتي بعد الظهر وإما أن يأتي في المساء ويبقى حتى الثالثة صباحًا».

قالت:

«بالضبط.. معلوماتك دقيقة، أذهبُ إلى الفراش في وقت متأخر، وأحتاج إلى قسط كبير من النوم. آه يا بيبيشي المسكينة! هل هذا كل شيء؟ هل يثير البارون غيرتكَ إلى هذه الدرجة؟ لا أنكر أنني سعيدة، يبدو أن «الأستاذ» واقع في غرامي. لم يخبرني الأستاذ بذلك قطّ، برغم أننا نعرف بعضنا لفترة طويلة، ولهذا السبب كان الأستاذ غاضبًا مني؟ لكني غفرتُ ذلك، فقلبُ بيبيشي كريم». حضرة الأستاذ «واقع في غرامي إذن!».

قلتُ بمرارة بسبب النبرة الساخرة التي كانت تتحدث بها:

«لكنه لم يعد يحبُّك الآن».

«حقًّا؟ هل انتهى كل شيء؟ هل تتبدَّل مشاعرك من حال إلى حال هكذا بهذه السرعة؟».

«بيبيشي.. لماذا تزيدين من عذابي؟ إنك تسخرين مني، أخبريني بالحقيقة مرة واحدة وسأذهب!».

«الحقيقة؟».

سألتني بيبيشي بجدية:

«لا أعرف أيَّة حقيقة التي تتحدّث عنها؟ كنت صادقة معكَ على الدوام، بل ربما كنتُ صادقة أزيد من اللازم، لا يفترض أن تتصرف النساء هكذا!».

انتفضتُ واقفًا وقلت: «هل من المفترض أن تمضي الأمور على هذا النحو؟ لا أطيق تحمَّل الموضوع أكثر من ذلك. هل تظنين أني لا أفهم أن الأمر كله مجرد ذريعة، أقصد العمل هناك، فيشير إلى باب المختبر المفتوح، ويخبر الجميع أنكِ مساعدته، بينما في الحقيقة أنكِ...

«ماذا! قُلها. قُل إنني عشيقته! أليس هذا ما تودّ قولَه؟».

«نعم، عشيقته أو عشيقة الأمير براكاساتين».

رفعَتْ رأسها ونظرت إليَّ مذهولة بعينين واسعتين مملوئتين بالذعر، ثم انهارت وهو تتمتم:

«أنا عشيقة براكساتين!.. يا إلهي! يا إلهي!».

نهضَت وألقت الوسائد على الأريكة.

«أنا؟ عشيقة ذلك البرميل، ذلك الدُّب... وكل هذا مجرد ذريعة: العمل والمختبر ونار أم الإله.. أريد أن أعرف منكَ شيئًا واحدًا فقط: من أين أتيتَ بهذه الفكرة؟ لا، لست بحاجة إلى إجابة، لا أريد سماع أي شيء، أغلق فمك من فضلك... أريد فقط أن أعرف من أين واتتكَ الشجاعة لتقول ذلك، كلام كهذا يحتاج منك الشجاعة! ومن منحكَ الحق لذلك؟».

قلت: «اعذريني.. لم يكن لديَّ حقٌّ في التطفل عليك وتبديد وقتكِ ورميكِ بالاتهامات، بات الأمر واضحًا الآن، ولو تفضلّتِ بقبول عذري سأقدر على الانصراف».

قالت: «نعم.. أعتقد أنه قد يكون من الأفضل أن تذهب الآن».

انحنيتُ مضيفًا: «وسأطلب من البارون اليوم قبول استقالتي».

غادرتُ والحزن والقنوط يخنقان حلقي. كنت قد وصلتُ إلى الباب عندما قالت بهدوء:

«من فضلك ابقَ».

كنتُ في غرفة المختبر عندما نادتني، وقفتُ مكاني، لكني سرعان ما واصلتُ المشي من دون الالتفات إلى الوراء، لكنها كانت قد لحقت بي ووقفت إلى جواري.

«ألا تسمعني؟ ينبغي أن تبقى. هل تظن أنني سأطيق الحياة هنا من دونك؟».

قبضتْ على معصمي وقالت:

«اسمع.. مهما حدث في حياتي فقد أحببت رجلًا واحدًا فقط، ولم يكن يعرف أنني أحبه أو بالأحرى لم يكن يرغب في معرفة ذلك وهو الآن يكذِّبني. سافرتُ إلى برلين، ولكن هل تعرف ما أول مشوار قمتُ به هناك؟ ذهبت إلى المعهد وسألتُ عنك. انظر إلى وجهي! هل أبدو كشخص يكذب؟ بل إنني لا أجيد حتى التظاهر».

أطلقَت يدي وقالت:

«كانت ملامحكَ شديدة الشحوب عندما دخلتَ إلى الغرفة، كانت بالأحرى أقرَب إلى جثَّة ميِّت. لماذا لم أخبركَ بذلك على الفور؟ أما زلتَ لا تصدقني؟ ستصدِّقني عما قريب. سأزوركَ، هل فهمتَ قصدي؟ ربما كان من الأفضل لو أمهلتني بعض الوقت، لكني لا أريدك أن تعذِّب نفسك بعد الآن بهذه الأفكار. سأمرُّ بك في غضون يومين. هلا صدَّقتني؟ في تمام التاسعة، سيكون أهالي القرية في نوم عميق، كل ما عليك هو التأكُّد من أن الباب الأمامي مفتوح، والآن اذهَبْ، لا..لا.. بل ابق قليلًا».

ارتطم شيء ما على الأرض مُحدِثًا صوتَ قعقعة. شعرتُ أني أرتفع صاعدًا من حفرة ما، أرتفع بسرعة مضطردة، بسرعة فائقة، لكني لا أرتفع وأنا واقف، بل وأنا مضطجع، مُمدَّد، ثم سمعت صوتًا، صوت رجل يقول:

«أحمق جدًا! كيف يمكنك أن تكون أحمقًا إلى هذه الدرجة؟».

«مَن هناك؟».

صرختُ بذهول وأضفت:

«ألسنا وحدنا؟».

نظرتْ إليَّ بيبيشي بابتسامة ودهشة:

«ماذا بكَ؟ من تُراه يكون هنا؟ لا أحد، هل تحسب أنني سأترك نفسي أقبّلكَ أمام الجمهور؟ أنت وأنا هنا، ألا يكفيك ذلك؟».

«لكن أحدًا ما تحدث بصوت عالٍ حقًّا، سمعت أحدهم يتحدث».

قالت: «أنتَ الذي تحدثتَ ألا تعرف ذلك؟ أنتَ من قلتَ: كيف يمكنكَ أن تكون أحمقًا إلى هذه الدرجة؟ هل أعصابكَ منهارة إلى هذه الدرجة؟ انظرْ ماذا فعلنا؟».

أشارَتْ إلى الأرض مُشِيرةً إلى شظايا الزجاج المهشَّم، وقالت:

«الأمر بسيط، إنه مجرد وعاء زجاجي يحوي وسطًا صناعيًّا من «الأجار»[1]، لكن من المؤكد أنه لا يجوز تبادل القُبلات في المختبر، لا

(1) الأجار: مادة شائعة الاستخدام في المختبرات لتركيب مستنبتات الأحياء الدقيقة وغيرها، وكذلك في الصناعة، كما تستخدم في تصنيع الأطعمة حيث تدخل في تركيب المثلجات. (المترجم).

تنسَ ذلك. لو كنا قد وضعنا المُستنبتات في الناحية الأخرى، ولكن لا بأس.. اترك الشظايا المكسورة، سأزيلها بنفسي».

سألتها: «بيبيشي.. أين نار أم الإله؟».

نظرت إليَّ بدهشة وسألت: «وماذا تعرف عن نار أم الإله؟».

«لا أعرف عنها شيئًا. أنتِ من نطقتِ بهذه الكلمة، ومُذَّاك والكلمة عالقة بذهني.. تكلَّمتِ عن نار أم الإله وعن عملك».

ارتسمتْ ملامح الاضطراب فجأة على وجهها وهـمَّتْ بالانصراف.

«حقًا؟ هل قلُتها؟ الحقيقة لا أعرف أن كان مسموحًا لي بالكلام حول هذا الموضوع أم لا، ثم أن الوقت قد تأخَّر.. عزيزي.. يجب عليك الانصراف الآن. أين قبعتك؟ وأين معطفك؟ أهكذا تخرج في البرد القارس؟ هذا تهوُّر، تحتاج إلى مزيد من العناية بنفسك».

في ذلك اليوم، عندما خيَّم الظلام وقفتُ أمام نافذة مكتبي أنظر إلى الأسفل حيث شارع القرية. كان الثلج يتساقط ونُدَفَه الرقيقة الخفيفة الصامتة تنزلق إلى الأسفل، تبدَّدتْ ملامح الأشياء كلها من حولي واتخذتْ هيئة غائمة غريبة. طار سرب من الغربان ناعقًا من فوق شجرة رماد الجبل، ثم ظهرتْ زلَّاجة صيد مسرعة في نهر الطريق، يقودها فيديريكو، الذي لم أتعرف عليه إلا حينما نهض من مقعده بالزَّلَّاجة وهو يمرُّ أمامي، مُرسلًا التحية إليَّ.

عندما اختفى فيديريكو عن ناظري لم أعد أفكِّر في وجهه الصبياني، بل في ذلك الرسم القوطي البارز في متجر الخردة بمدينة أوزنابروك، الرسم الذي لم يبرح ذاكرتي قَطُّ. لا أعرف كيف حدث ذلك، لكنني تذكرت فجأة ما كنت أبحث عنه في ذهني لفترة طويلة، تذكرتُ المكان الذي رأيت فيه الرأس الرخامي وابتسامته لأول مرة. عاودتني الذكرى

مصحوبة بقوة التجربة الحيَّة. كان رأس الفتى مجرد محاكاة باهتة للنقش الهائل في كاتدرائية باليرمو الذي يصوِّر الإمبراطور هوهنشتاوفن الأخير، كقيصر وكبطلٍ فاتح.

عند هذه اللحظة تمزَّقتْ شبكة الأكاذيب التي نسجها مُعلِّم المدرسة بمهارة فائقة، تـمزَّقتْ بخفة وسكون مثل نُدَف الثلج المنزلقة من فوق أسطح البيوت. تنفستُ الصعداء بعد أن تحررت من كابوس ثقيل. لم يكن ما ذكره المدرِّس عن بيبيشي وعن أصول البارون وعن فيدريكو إلا كذبًا وافتراءًا. كانت ملامح فيديريكو تحمل الملامح القوية السامِيَّة للإمبراطور فريدريش الثاني، جدِّه الأكبر العظيم، الذي كان أعجوبة العالم.

توارتْ الشمس خلف غيوم داكنة كثيفة اشتعلت فيها النيران باللون البنفسجي والقرمزي والأصفر الكبريتي والأخضر النحاسي، بدوا وكأنهم في أتون مشتعل. لم أرَ مثل هذه الألوان في السماء من قبل.

راودتني فكرة غريبة؛ بدا لي لو أن هذا الاشتعال والتوهُّج، هذا الاحتراق المفاجئ واللهيب الساطع في تلك الليلة الظلماء لم يكن إلا مسرحية بطلتها بيبيشي، مسرحية تحمل عنوان «نار أم الإله».

تخيَّلتُ أيضًا أن ذلك الوهَج لم يأتِ من الشمس الآخذة في الأفول، بل من الأسفل، من أعماق تلك الغرفة الصغيرة شبه المظلمة التي قـبَّلـتـني فيها بيبيشي.

15

كنت قد أمسكتُ طرف خيط مغزى كلام البارون عن عمل حياته من وسط محادثة دارتْ بينه وبين الكاهن، ومن كلمة ثانية قالتها بيبيشي. كنا نجلس في قاعة القصر المؤثَّثة على الطراز الريفي. ما أزال حتى الآن أرى القاعة بوضوح أمامي: الصناديق المصنوعة من خشب البلوط، والكراسي ذات الألوان الزاهية حول الطاولة الضخمة، ولوحة خشبية إلى جانب الدَّرج تصوِّر «المسيح مرتديًا تاج الشوك»[1]، وأطباق القصدير المعلَّقة فوق الجدران، وإلى جوار المدفأة الدِّكَّة العريضة التي لا تراها إلا في غرف بيوت المُزارعين في منطقة «فيستفالين». أمام الكاهن استقرَّ كأس من النبيذ، بينما كنا نشرب الويسكي. أسندت بيبيشي رأسها على يدها اليسرى من الخلف وراحت تشخبط بأشكال هندسية على قطعة من الورق وترسم دوائر صغيرة وزخارف على شكل ورود، بينما اتخذ الأمير براكساتين مقعدًا بعيدًا بعض الشيء وأخذ يلعب لعبة «السوليتير».

لا أعرف كيف بدأت المحادثة. كنت غارقًا في أفكاري ولم أعر انتباهًا لكلامهم. وعندما رفعتْ بيبيشي رأسها من فوق ورقة الرسم نظرتْ إليَّ وكأنها تنظر إلى رجل غريب. هل كانت ما تزال تذكر الوَعد الذي قطَعَتْه أمامي بالأمس أم أن الأمر لم يغدُ كونه كلمة متسرِّعة عابرة؟

---

(1) Ecce Homo كما وردت في الأصل: لوحة المسيح يرتدي تاج الشوك، وهي الكلمات المستخدمة من قبل بيلاطس البنطي في النسخة اللاتينية من إنجيل يوحنا، عندما قَدِمَ يسوع مربوطًا بالأشواك إلى حشد معادٍ قبل صلبه بفترة وجيزة. (المترجم).

أردتُ التأكُّد فسألتها عبر الطاولة إذا كانت ستكون غدًا في المختبر في الساعة التاسعة صباحًا. رفعت كتفيها وخفضتهما من دون أن تنظر. ثم رسمت بدلًا من الدوائر واللَّوالب رقم «تسعة» موشًّى بحِلي زخرفية فنية.

سمعتُ البارون يقول:

«إن ما تعترض عليه صالح لكل أوان ومكان، لا لوقتنا الراهن وحسب. الرموز العظيمة: التاج، الصولجان، ميثرا[1]، التفاحة، كل هذه الرموز خُلقَت واستمرَّ وجودها بفضل شعلة الإيمان، لكن البشر نسوا التمسُّك بهذه الرموز، وأيَّما رَجُل أوتي القدرة على إشعال جذوة الإيمان التي ذوت وخبى بريقها، فيسهل عليه تزيينها في قلوب الناس بسهولة، والعودة إلى بهاء فكرة التاج الملكي وإلى مملكة الرحمة الإلهية».

قال الكاهن:«أن نؤمن يعني أن تحلَّ علينا بركة الرَّب، والإيمان هو عمل الله فينا ولا يمكن أن يشتعل الإيمان في قلوبنا إلا من خلال العمل الصبور وإسداء العون للآخرين بمحبة، وعبر المواظبة على حضور الصلوات».

صاحتْ بيبيشي وكأنها استيقظتْ من حُلم: «لا، بل يمكن إيقاظ جذوة الإيمان عبر الكيمياء أيضًا».

خيَّم الصمت على أرجاء الغرفة، ولم ينبس أحد بكلمة. نظرت مذهولًا إلى بيبيشي التي عاودت الانحناء فوق ورقة الرسم، ثم رفعت

---

(1) المعروف أيضا باسم «ميثرائية» Mithraism، وهي عبادة غامضة انتشرت في الإمبراطورية الرومانية حيث يعبد أتباع هذه الديانة الآلهة الهندية الإيرانية ميثرا Mithras وكلمة ميثرا هندو - إيرانية وتعني الصداقة والاتفاق والعقود، وقد نمت هذه العبادة بين الجنود الرومان. (المترجم).

بصري إلى الكاهن، الذي لم تبد على وجهه أية ملامح تأثر، بينما ارتسمت على شفتيه ملامح الاستياء والنفور.

سألتُ بيبيشي: «ماذا تقصدين بكلامك؟ كيف نفهم كلامك؟».

أجاب البارون نيابة عنها:

«كيف نفهم كلامها؟ بما أنك طبيب فأنت أعلمُ منا أن كل ما يعتمل داخلنا عاطفيًّا من مشاعر خوف وشوق وحزن وسعادة ويأس، وكل تعبير عن حياتنا إن هو إلا نتيجة تفاعلات كيميائية تجري داخل أجسامنا، وما هي إلا خطوة صغيرة تفصل بين إدراك الفكرة والوصول إلى التعبير الذي نطقتْ به زميلتي للتوِّ».

رحتُ أبحث عن بيبيشي، لكنها كانت قد غادرت القاعة تاركة فوق الطاولة ورقة الرسم، حتى الكاهن والأمير باركاستاين غادرا القاعة من دون أن ألاحظ اختفائهما، أغرب ما في الأمر أنني لم أندهش أصلًا لعدم ملاحظتي اختفائهما. ولم أفكر ولو للحظةٍ واحدة، لِمَ تُرِكْتُ بمفردي مع البارون.

تابع البارون كلامه:

«ما هي إلا خطوة واحدة تفصلني.. ولكن يا لَكمِّ العمل الذي اضطلعتُ به قبل الإقدام على تلك الخطوة، ويا لليالي التي سهرتُها وانكببتُ فيها على البحث والدَّرس، وبالمرارة مشاعر الشكِّ التي كان عليَّ تبديدها، بدأ كل شيء بكلمة من أبيك. قال لي هنا في هذه الغرفة، وعلى هذه الطاولة إن ما نُطلق عليه الحماسة الدينية وصحوة الإيمان، سواء على مستوى الفرد أم المجتمع، ما هو إلا انعكاس لحالة النشوة التي يسببها تناول عقّار ما، لكن ما طبيعة الدواء الذي يخلق مثل هذا التأثير؟ لا أحد يعرف».

صِحتُ:«لا أصدق أن أبي قال ذلك، لم ترِد هذه الأفكار في أيٍّ من أعماله، إن ما تنطق به الآن ليس إلا تجديفًا».

«تجديف؟ هذه كلمة قاسية»، قالها البارون بهدوء، «أليس من المناسب أو من الضروري الوقوف على حقائق الأشياء؟ هل من التجديف القول إننا نستطيع خلق شعور نبيل يتحدَّى الموت عبر معاقرة جرعة صغيرة من الهيروين، أو رفع درجة السعادة عبر جرعة أفيون أو بلوغ نشوة الشهوة عبر جرعة كانتريدين؟ يُحكى عن نبات في أمريكا الوسطى الاستوائية، تَمنحُ أوراقه عند مضغها، قدرة على التنبؤ بالمستقبل لبضعة أيام أو ساعات، هل سمعتَ عن ذلك؟ إذا تتبعنا تاريخ الإيمان عبر آلاف السنين فـــ...».

قاطعتُه:

«معنى كلامك إذن أن التغيُّر الروحي الهائل الذي حوَّل العَلماني إنيجو دي ريكالدي إلى القديس إجناطيوس دي لويولا [1]كان نتيجة تعاطي المخدرات؟».

قال البارون: «لنتجاوز هذه النقطة، لن تساعدنا في المضي قُدمًا، انطلقتُ من فرضية تذهب إلى وجود عقاقير قادرة على خلق النشوة الدينية كظاهرة فردية وظاهرة جماعية، لكن العلم لا يعرف طبيعة هذه الأدوية، كانت هذه نقطة انطلاق أبحاثي».

انحنى عبر الطاولة وألقى برماد سيجاره نصف المدخن في المنفضة أمامي، وتابع:

---

(1) فارس إسباني من أسرة باسكيَّة نبيلة، تنسَّك ورُسم كاهنًا منذ عام 1537، وهو عالم لاهوت ترك حياته الجندية وتَرَهْبَنَ وقد برز إجناطيوس كزعيم ديني خلال الإصلاح المضاد ضد الطاعة المطلقة لبابا الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. (المترجم).

«حضرة الطبيب: لقد زعمتَ أن ما أقوله ضرب من التجديف، لكني لم أتبِّع إلا الطريق التي قادتني إليها أبحاثي العلمية وواجهتُ صعوبات جَمَّة في البداية، واصلت العمل لمدة سنة بلا نتيجة».

كان البارون واقفًا، وكنا ما نزال داخل القاعة. إلا أننا غادرنا المكان بعد لحظات، لأني أتنبَّه الآن إلى أن ما قاله البارون بعد ذلك ارتبط داخل ذاكرتي بمكان مختلف.

أرى نفسي في صحبة البارون واقفين في شارع القرية بالقرب من منزلي، كان الهواء نقيًّا باردًا، وبينما كان البارون يقتبس مقطعًا من كتابات الأفلاطونية المحدثة لديونيسيوس، أتذكَّر جيدًا أني رأيتُ تفريغ صفيحتي وقود وصندوق بيرة إلى جوار باب متجر البقالة، أتذكَّر أني رأيتُ رجلًا يحمل عودًا من شجر «القرانيا»[1]، مُعْتَمِرًا قبعة عالية وقد خرجَ إلينا من الحانة، ومَـرَّ بنا، مُلقيًا التحية.

ويبدو أنني ذهبت بعد ذلك في نزهة مع البارون. وصلنا إلى أرضٍ غير مأهولة تتوسطها شعلة نار تطلق دخانًا هائلًا، أشعلها اثنان من حُرَّاس الحقل كانا يشويان ثمار البطاطس. واختلطَ في ذاكرتي ما تُلي أمامي من الأسماء المختلفة لطفيليات الحبوب برائحة الخشب المتفحِّم والبطاطس المشوية.

بعدها رجعنا إلى القصر وجلسنا في غرفة مكتب البارون، حيث الأسلحة العتيقة المُعلَّقة على الجدران. لا بد أن البارون قد اعتراه بعض التوتّر لأننا سرعان ما غادرنا غرفة المكتب حيث أنهى كلامه من حيث بدأ، أي من القاعة التي ظهر فيها بقية الحاضرين مجددًا: الكاهن وبـيبيشي

---

(1) القرانيا شجرة جبلية متساقطة الأوراق تتفرع بشكل أفقي، متوسطة الحجم، يتراوح ارتفاعها بين (2- 5) متر. (المترجم)

التي كانت تأكل عنب، فيما جلس الأمير براكساتين على الجانب الرفيع من الطاولة يلعب لعبة «السوليتير».

وبدا الأمر كما لو أنهم لم يغادروا القاعة قَطُّ، وكما لو كل شيء عاد كما كان من قبل، باستثناء أن الظلام قد بدأ يخيِّم على القاعة، فنهضتْ بيبيشي وأشعلتْ المصباح.

16

قال البارون:

«نعم، بقيت سنة كاملة من دون إحراز أي تقدُّم، ضللتُ الطريق، وذهبَ الوقت الذي انكببتُ فيه على دراسة الأعمال العلمية للمؤلفين الإغريق والرومان أدراج الرياح. أما الإشارات الضئيلة التي عثرتُ عليها أو تخيّلتُ أنني عثرتُ عليها في كتاب Panzenbuch des Zenobius لأرجينتينو، وكتاب وصف نمو النبات لثيرفراست فون إيريسوس، أو كتاب المواد الطبية لديوسكوريديس، وكتاب الأدوية لكلاوديوس بيسو، اتضَّح أنها مُضلِّلة أو أنها لم تخبرني إلا بما هو معلوم بالضرورة، ومن خلال تأويلي الخاطئ لهذا المقطع، بقيتُ أعتقد لفترة طويلة أنني عثرتُ على ضالتي المنشودة في عشبة البنج الأسود[1]، ولاحقًا في نبتة في نبات القراص الأبيض الميت. لكني لم أكن على الطريق الصحيح. أنت تعلم أن سُمَّ البنج الأسود لا يسبب إلى حالات تهيُّج بحتة، ويمكن أن تسبب عصارة نبات القراص أحيانًا التهابًا طفيفًا في الجلد، ولا شيء أكثر غير ذلك».

مدَّ البارون يده ناحية زجاجة الويسكي والكأس، لكنه كان شارد الذهن فانسكبت الخمر من زجاجة الويسكي على سطح الطاولة وأرضية الغرفة، إلا أنه لم يلحظ ذلك، فتابع حديثه هو يحمل الكأس الفارغة في يده.

---

(1) نبات البنج الأسود Hyoscyamus (niger) عشب نباتي مخدِّر سامّ، يُصنَّف من نباتات الزينة السَّامة. (المترجم).

«ولما انتقلتُ من الكتابات العلمية إلى النصوص الدينية والفلسفية للقدماء، وجدتُ أول دليل يبرهن على صحة نظريتي عند ديودور الصقلي، المعاصر ليوليوس قيصر وأغسطس، يشير في أحد أعماله إلى «عُشبة» تحمل من يلوكُها بعيدًا عن الوجود وترفعه إلى مصافِّ الآلهة، إلا أن ديودور الصقلي لم يصف العشبة بالتفصيل، ولم يصرِّح باسمها، لكن هذا المقطع له أهمية القصوى بالنسبة إليَّ، فهنا، ولأول مرة، تُعزَى حالة النشوة الدينية بشكل حاسم لا ريب فيه إلى تعاطي المخدرات. ومن ثَمَّ لم تَعُدْ نظريتي مجرد أطروحة ذات طابع تخميني، لأنها اعتمدتْ على شهادة مؤلف مشهود له بالنزاهة العلمية والصدق، وطالما استُشهدَ به في كثير من الأحيان كمرجع تاريخي موثوق من قِبَل المؤرخين اللاحقين إبان الإمبراطورية الرومانية».

توقّف البارون عن الكلام وردَّ التحية على عاملَين كانا يقودان جرَّافة ثلوج تقطع الشارع، ثم أجرى محادثة قصيرة مع أحدهما حول بقرة مريضة وقال: «لا فائدة، إنها مصابة بالحُمَّى»، ثم واصل كلامه بعد مرور جرَّافة الثلوج.

«بعد بضعة أشهر وقعتُ على آراء أكثر أهمية منسوبة لديونيسوس أريوباجيت، وهو أفلاطوني مسيحي من القرن الرابع الميلادي. يَروي ديونيسوس في كتاباته أنه فرض صيامًا لمدة يومين على أعضاء كنيسته التائقين إلى حضور الله الحقيقي، ثم وزّعَ عليهم خُبزًا مصنوعًا من دقيق مُقَدَّس، وبحسب ديونيسوس: «لأن هذا يقودنا إلى الاتحاد بالله ويجعلنا نفهم اللا متناهي».

«هل أرهقتكَ بكلامي يا دكتور؟ فعلًا؟ وعندما عثرتُ على هذا المقطع شعرتُ أنني جوزيتُ خيرًا مقابل العمل الذي أنجزته حتى يومنا

هذا. رغيف خبز من طحين مُقدَّس، تذكَّرتُ آية من الكتاب المقدَّس لم آخذها في اعتباري مسبقًا، لأن معناها الحقيقي ظلَّ مستغلقًا عليَّ: «ودعى الحبوب للخروج من الأرض ليأكل الناس منها ويتعرَّفوا عليه»، وفي كتب الفُرس المقدَّسة يُعاد الكلام مرارًا وتكرارًا عن سنابل الذُّرة اللازمة للطهارة، وثَمَّة مسرحية رومانية قديمة غامضة عن الحبوب البيضاء أو الشاحبة التي تستعملها الآلهة الطيبَّة لهداية البشر، نبات أشبه بالحبوب، لكن حبوبه بيضاء، نوع من محاصيل الحقل التي اختفت زراعتها اليوم، وربما حلَّتْ محلها محاصيل أخرى. صحيح.. ما المحصول الذي يحمل سنابل بيضاء ونَساه البشر؟».

توقَّف البارون عن الكلام لهنيهة ثم واصل: «كانت مغالطةً مني، لقد مشيتُ مُضَلَّلًا وراء فكرة، والله أعلم إلى أين كانت ستقودني، ولكني وقعتُ في الوقت المناسب على أغنية قديمة لكَهنة الحقول الرومان، تعويذة رسمية للإله «مارس» أو «المريخ»[1]، الذي لم يكن إله الحرب الدامي آنذاك، بل حامِي الحقول المسالم، تقول:

«يا مارس.. دع ثلجكَ الأبيض ينثال فوق محاصيلهم حتى يتعرَّفوا على قوَّتكَ».

عرف كهنة الحقول الرومان[2]، مثلهم مثل جميع الكهنة، سرَّ المخدرات التي تزجُّ بالناس إلى حالة النَّشوة التي بها يُبصرون أو التي بها

---

(1) مَارْس أو المريخ هو إله الحرب في روما القديمة والميثولوجيا الرومانية، وهو أيضًا إله الزراعة في روما القديمة. (المترجم).

(2) يُفرِّق شيشرون بين ثلاثة أنواع من الكَهَنة الرومان: مقيمو الشعائر، ومفسرِّوا أقوال الآلهة، وعرَّافو المستقبل، والنوع الأخير كان يلزم الحقول للتنبؤ بالمحاصيل كل سنة. (المترجم).

يتعرَّفون على سلطان الرَّب. ولم يكن الثلج الأبيض نوعًا من الحبوب، وإنما كان آفة زراعية، فُطرًا طفيليًّا يغزو أعواد الذُّرة ويتغذَّى على مادتها».

أخذ البارون يجول ببصره في أرجاء الحقول والمروج المحيطة التي كان يلفُّها الصمت تحت طبقة الثلج الثَّخينة. مرقَ فأر حقل صغير من أمامنا، تاركًا أثرًا رقيقًا بالكاد يمكن تمييزه في الثلج.

«هناك العديد من أنواع الفطريات الطفيلية، تابع البارون كلامه، «الفطر الغروي والفطر الخيطي. يسرد «بارجن» في كتابه Synopsis Fungorum أكثر من مئة نوع من الفطريات، إلا أن كتابه هذا من الأعمال التي عفا عليها الزمن، ومن بين هذه الفطريات المئة وجدتُ نوعًا واحدًا من الفطر عندما يُمزج بطعام الإنسان يتدفق أثره إلى الأعضاء، ويوَلِّد ظاهرة النشوة».

انحنى والتقط حبة بطاطس كانت ملقاة فوق الثلج بجوار الموقد. أخذ ينظر إليها باهتمام لهنيهة من الوقت، ثم ما لبث أن أعادها إلى مكانها كما لو كانت كَنزًا ثمينًا. راح حارسا الحقل، اللذان اقتربا بفضول، يحدِّقان ناحيته بدهشةٍ، وألقى أحدهما بالحطب إلى النار.

«صحيح.. من بين المئة نوع وجدتُ نوعًا واحدًا فقط. لم يكن في جعبتي مزيد من المعلومات حول الصورة الإكلينيكية للمرض، اللهم إلا الصورة التي توضِّح أثر الفطر في تغيُّر لون الحبوب. بَدت مهمة ميؤوسًا منها، ولكن بعد قليل من الملاحظة والتفكير توصّلتُ إلى حل. هناك -أو كان هناك- فطر يصيب الحبوب أُشير إليه في القرون الماضية، واختلفوا في تسميته بحسب المنطقة التي ظهر فيها، ففي إسبانيا كان يُسمَّى «ضفيرة ماريا المجدلية»، وفي منطقة الألزاس يُسمَّى «حبل الروح المسكين»، وصنَّفها العالِم آدم فون كريمونا في كتاب الأطباء بـ«حبَّة

الرحمة»، وفي منطقة جبال الألب يُطلق عليها «ثلج القديس بطرس»، بينما بالقرب من منطقة سانت جالن تُسمَّى «الراهب المتسوّل»، وفي شمال بوهيميا يُطلقون عليها «آفة القديس يوحنا»، وهنا في منطقة فيستفاليا حيث توجد بكثرة ملحوظة، أَطلق عليها المزارعون اسم «نار أم الإلـه».

كرَّرتُ وراءه: «نار أمّ الإله؟ إذن هذه أحد آفات الحبوب».

«نعم. هذا واحد من بين أسمائها العديدة، وهنا في فيستفاليا نُطلق عليها هذا الاسم. والآن لاحِظْ أن قاسمًا مشتركًا يجمع بين ما ذكرتُ لك من أسماء، ألا وهو اقترانها بالتصورات الدينية. كانت معرفة المزارعين بتأثيرات آفة الحبوب تفوق معرفة العلماء، وظلَّت ذكرى الحكمة القديمة المفقودة محفورة وحية داخل قلوبهم».

أخذ الضباب في الارتفاع وتوارَتْ الأشجار والشجيرات وسط الضباب الأبيض الحليبي. اختلطت رقائق الثلج الكبيرة الهابطة ببطء بغبار الثلوج المتساقط من فوق أسطح البيوت.

واصل البارون كلامه:

«إن الفُطر الطفيلي الذي سنطلِقُ عليه من الآن فصاعدًا ثلج القديس بطرس محصور داخل القشرة ولا يتسبب في تدمير النشاط الحيوي للخلايا المُغذية، يُظْهِرُ الجزء المصاب من النبات بالكاد أي تغيير ملحوظ من القشرة الخارجية، ونادرًا ما يبقى المرض في المنطقة نفسها لأكثر من سنتين أو ثلاث سنوات، ثم يختفي ليعاود الظهور مرة أخرى بعد سنوات عديدة. لكن الآفة تهاجر، مُحافظةً في الهجرة على اتجاه بعينه، ونادرًا ما يتفرَّق انتشارها في اتجاهات. وردَ ذِكـر آفة ثلج القديس بطرس للمرة الأولى في سنة 1093 في تاريخ مدينة بيروجيا [مدينة وسط إيطاليا]، لمَّا ضربَ طاعون الحبوب المنطقة بأسرها من بيروجيا وسيينا في تلك السنة.

وتشير السِّجلات التاريخية إلى أنه في السنة نفسها ادَّعى سبعة عشر فلاحًا وعاملًا النُّبوة، زاعمين أن المسيح قد تجلَّى لهم على هيئة ملك من السماء، وأنه أمَرَهم بفرض كفَّارة ثقيلة على العالَم. فانطلقوا بالتبشير واكتبسوا كثيرًا من الأتباع، وقد أُعدِم منهم أربعة بحدِّ السيف. وفي السنة التالية ظهرت آفة ثلج القديس بطرس بالقرب من فيرونا، فهاجرت الآفة شمالًا. وبعد بضعة أسابيع فقط احتشد نحو خمسة آلاف شخص في مدينة فيرونا من الأرستقراطيين والمواطنيين العاديين، رجالًا ونساءً وأطفالًا في حشود مرعبة -كما تقول التقارير المعاصرة- وساروا عبر مدينة لومباردي، وهم يَتْلُون مزامير التوبة، منتقلين من مدينة إلى مدينة ومن كنيسة إلى كنيسة، مهاجمين من كل حَدَبٍ وصَوْب كل من يُشتبه في ميوله العلمانية، وقتلوهم أو نكَّلوا بهم. جرى ذلك في سنة 1094، ووفقًا لحساباتي كان من المفترض أن يصل فطر ثلج القديس بطرس إلى ألمانيا في السنة التالية، إلا أن هذا لم يحدث. يبدو أن الفُطر لم يقدر على عبور جبال الألب في خط مستقيم، فانتشر شرقًا وغربًا، وفي السنة التالية ظهر الفُطر في كل من فرنسا والمَجَر، مفجِّرًا ثورة روحية هائلة تُقارب المعجزات تمثَّلَتْ في التجهيز لخروج الحملة الصليبية الأولى وتحرير الأماكن المقدسة».

أفصح البارون بهذا الادعاء بنبرة هادئة مُطَمْئِنة أثارتْ بداخلي معارضة قوية فقاطعتُه:

«ألا تبدو لك هذه الأطروحة جريئة بعض الشيء؟».

ابتسمَ البارون وقال:

«سيشُقُّ عليك، يا دكتور، دحض وجهة نظري المستنِدة إلى كل هذه الحُجَج. لقد اقتفيتُ أثر فُطر الحبوب عبر العصور، وتتبعتُ مسار

هجرته فوجدت أن كل الحركات الدينية العظمى إبان القرون الوسطى والعصر الحديث: كطائفة الجلَّادين[1]، وحالة وباء الرقص[2]، وحركة ملاحقة الهراطقة على يد الأسقف كونراد فون ماربورج، وحركة الإصلاح الكَنسي الذي قادته مدينة كلوني[3]، وحملة الأطفال الصليبية، وما يسمى بـ الغناء السِّري على نهر الراين، وحركة إبادة الألبيجينيين في بروفانس، والقضاء على الحركة الولدينسية[4] في بيدمونت، وظهور عبادة القديس حنَّا، وحروب الهوسيين[5] وحركة تجديد العماد، أقول: وجدتُ أن ظهور الصراعات الدينية وتعاظم النَّشوة الدينية، كل هذه الصحوات الدينية ظهرتْ في المناطق التي انتشر فيها فطر ثلج القديس بطرس، لعلَّكَ تُسمِّيها أطروحة جريئة، لكن في مقدوري إقامة الدليل على صدق كلامي في كل حالة على حِدَة».

---

(1) حركة دينية متطرفة ذهبَتْ إلى إماتة الجسد وتأديبه عبر جَلْدِ أجساد متبعيها وتعذيبها للوصول إلى النقاء الروحي تأسيًا بآلام السيد المسيح. (المترجم).

(2) حالة من الهستيريا الجماعية ضربتْ مدينة ستارسبورج سنة 1518، وهي المدنية التي كانت جزءًا تابعًا للإمبراطورية الرومانية المقدسة وتقع حاليًا في فرنسا، أصابت هذه الحالة حوالي 400 شخص ودفعتهم إلى الرقص لعدة أيام من دون راحة، وقد وصل الأمر إلي استمرار البعض في الرقص لمدة تقارب شهرًا ممَّا أدى إلي وفاة بعضهم من الإصابة بالنوبات القلبية والسكتة الدماغية. (المترجم).

(3) كلوني مدينة فرنسية اشتهرت بدَيرها، وهو دَير بنديكتي أَطلق حركة إصلاحية رمتْ إلى دعوة أوروبا إلى العودة إلى المسيحية، وشكَّل في نهاية القرن العاشر والقرن الحادي عشر مع الأدْيِرة البنديكتية الأخرى أقوى المؤسسات الدينية وأوسعها نفوذًا داخل أوروبا. (المترجم).

(4) حركة مسيحية من القرون الوسطى، تَعرّض أتباعها للاضطهاد باعتبارها حركة مهرطقة وواجهوا التنكيل في القرن السابع عشر. (المترجم).

(5) تضمنت حروب الهوسيين، المعروفة أيضًا باسم الحروب البوهيمية، العمليات العسكرية ضد أتباع يان هوس وبين بعضهم البعض في بوهيميا والملوك المختلفين الذين سعوا لفرض سلطة الكنيسة الكاثوليكية ضد الهوسيين. (المترجم).

سحبَ البارون دُرْجًا من أدراج مكتبه وأغلقه ثانية. ثم جال ببصره في أرجاء الغرفة. كان من الواضح أنه يبحث عن زجاجة الويسكي وعلبة السيجار اللتين نسيهما في القاعة. وقع بصره على مزهرية صينية فوق رفِّ الموقد فقال:

«انظر مثلًا إلى الصين يا دكتور. بلد بلا دين. ليس عند الصينيين معتقدات دينية، وإنما لون من ألوان الفلسفة. لم تُزرع الغِلال والحبوب في مناطق الصين الوُسطى منذ آلاف السنين، لم يزرعوا سوى الأرز فقط».

توقَّف عن البحث عن الويسكي، وقرعَ الجرسَ للخادم.

«لماذا؟».

نطقتُها وانساب السؤال من بين شفتيَّ من دون رغبة منِّي:

«لماذا يختفي الإيمان بالله من العالَم؟».

«لا يختفي الإيمان بالله من العالَم، وإنما تنطفئ فقط جذوة الإيمان به. أما لماذا انطفأت؟ لقد واجهني هذا السؤال، إلا أنني وجدتُ نفسي مضطرًا إلى طرح السؤال بصياغة مختلفة: هل فقد الفطر قدرته على إصابة الحبوب بالعدوى؟ أم أن المحصول نفسه فقد استعداده للتعرُّض للمرض؟ أدى أحد هذين العاملين إلى إعاقة تطور وانتشار فطر ثلج القديس بطرس في أوروبا لأكثر من مائة سنة.. حسنًا، لقد أثبتت تجاربي المعملية أن الـ...».

طرق أحدهم باب القاعة، ثم ما لبث أن دخل الخادم. كان الرجل ضئيل الجسد صاحب العينين الساهِدتين الذي أقلَّني من محطة القطار. توقَّف الخادم عند الباب المفتوح.

صاح البارون: «ماذا تريد؟ أي جَرس؟ لا، لم أقرع الجَرس. يمكنك الانصراف، لست بحاجة إليك.. أين توقفتُ؟ نعم.. أثبتت التجارب

المعملية التي أجريتها بالتعاون مع مساعدتي أن الفطر لم يفقد أيًّا من قدرته على إصابة الحبوب بالعدوى، لكن كما ترى...».

أمسك فجأة عن الكلام ونظرَ ناحية الباب وواصل قائلًا:

«كان بإمكان الخادم إحضار عُلبة السيجار بينما كان هناك. أحمق غبي!! من المؤسف أنني لم أجلب معي من الأسفل أي شيء. اليوم.. نعم، تُظهِر الحبوب اليوم مقاومة أكبر بكثير ضد الفطر أكثر مما كانت عليه قبل مائة عام، كما تعلم فمنشأ القمح والحبوب مثل أغلب الغِلال تقريبًا، هي البلدان ذات المناخ الأكثر دفئًا، وكانت زراعتها في أوروبا على أرض غريبة. ومن ثَمَّ كانت حبوب القمح والغِلال عُرْضَة للإصابة بالفُطر طالما أنها لم تتكيَّف مع التُّربة الغريبة، واستمرت عملية التكيّف عدَّة قرون حتى اكتملت الآن. هناك أيضا عامل آخر.. لماذا لم يُحضر الخادم الويسكي؟ أخبرته أن يحضر زجاجة الويسكي والسيجار! أما العامل الآخر فهو أن تأثير الفطر يظهر فقط عندما تكون أعواد الغِلال في حالة ضعف، وهو ما يمكنني وصفه لك من الناحية الفيزيولوجية والتشريحية. لكن تحسُّن ظروف الزِّراعة في عصرنا الراهن جعلتْ مسألة ضعف أعواد الغِلال الاستثناء، لا القاعدة، ومن هنا تراجع انتشار فطر ثلج القديس بطرس، متحوِّلًا إلى أنواع نباتية برِّية أخرى تتوافر لها ظروف معيشية أفضل، وهذا هو جوابي عن سؤالك حول سبب اختفاء الإيمان بالله من العالم».

بعد هذا التفسير العجيب نهض البارون فون مالشين ومشى ناحية المدفأة التماسًا لبعض الدفء. تطايرت عروق الخشب وتناثر الشَّرر، ثم انطلق لسان لهب أصفر رفيع من بين جذوع الأشجار المكدَّسة وكأنه يريد القبضَ على رقبة البارون.

تابع البارون:

«وكانت تلك المشكلة، أقصد مشكلة الاستعداد الوراثي للحبوب، هي النقطة الحاسمة بالنسبة إليَّ، وكان كل شيء مرهونًا بها: خُططي وتوقعاتي، عوَّلتُ عليها أيضًا ما إذا كانت ليالي السَّهر والمعاناة ستتحول إلى فكرة مثمرة أم أنني كنت أجرى وراء الأوهام. لقد حاولنا -أنا ومساعدتي- أولًا تلقيح نبات سليم بهذا الفطر، وقد ثبت بالفعل أنه من الممكن إصابة نبات القمح الصغير بآفة الفطر الطفيلي وتحفيز المرض تحفيزًا اصطناعيًّا، ولكن بقي نجاح هذا الأمر -وما يزال- نجاحًا معمليًّا وحسب من دون آفاق أخرى. لأن التلقيح يمثِّل تدخُّلًا معمليًّا تعسفيًّا لا يحدث عادة في الطبيعة، ولم يُصَب النبات بالفطر إلا من خلال هذا الفعل. سرعان ما تخلينا عن هذه المحاولات وبدأنا في البحث عن وسيلة لتقليل مقاومة الفطر أو كسرها. في السنة الماضية تمكنت بالفعل من تخليق الفطر على رقعة صغيرة من الأرض الزراعية من دون تلقيح، وتحديدًا في باطن التربة الرطبة المعرَّضة للرياح الشمالية وغير المُخَصَّبة بالسِّماد بشكل كافٍ، وتحديدًا عبر تقليل تعرُّضها لأشعة الشمس. ربما ولأول مرة منذ مائة سنة ظَهَر فطر ثلج القديس بطرس مجددًا في واحد من حقول قمح، لكنه ظهوره بقي محصورًا في قطعة الأرض الصغيرة التي بقيت في الظلِّ الصناعي بعيدًا عن الشمس، ولم يصِب الفطر نبتة واحدة زُرِعت في الشمس. كانت تجربة تجمع بين النجاح والإخفاق في آن واحد، وذهبتْ جهودي طَوال سنوات عديدة أدراج الرياح. كنتُ قد وجدت فطر ثلج القديس بطرس، لكني ما زلت أرى كل خُططي مآلها الإخفاق. وفي تلك الأثناء، وخلال فترة اكتئابي، خطر ببالي -وها أنا ذا أعترف بذلك أمام ثلاثة شهود- وصلتْ مساعدتي لتقدِّم إليَّ يد العَون».

نظرَتْ بيبيشي ناحيتي أولًا بنظرة ملؤها الفخر وبعينين مشرقتين، ثم انتقل بصرها إلى البارون، بينما لَزم الكاهن الصمت، مُقطِّبًا جبينه.

«اسمع يا أركادي فيودوروفيتش، التفتَ البارون إلى الأمير الروسي وواصل كلامه:

«في غمرة غرقك في الأحلام أهملتَ طلب المزيد من السيجار. ابعث ببطاقة بريدية إلى المُوّرِد. ما تراه هو كل ما تبقَّى لدينا من مخزون، ولن يكفينا أكثر من ثلاثة أيام».

أشعل البارون سيجارًا، وتابع كلامه قائلًا:

«وهكذا مضتْ الأمور، وفي الوقت الذي كنت أضرب فيه أخماسًا في أسداس هبطَتْ عليَّ هذه المرأة الشابة. لم تمض الأمور بسهولة معي، لأني مزارع ورأسي رأس مزارع ولا أفكر إلا في الحقل. لكنها أثبتت لي في النهاية أننا لسنا في حاجة إلى حقول الذُّرة والقمح، وأنه يمكننا أن نجلب الفُطر لينمو ويتكاثر بسرعة وسط بيئة زراعية اصطناعية، في أرض طينية خصبة مع إضافة مواد معينة، ونجحتُ في استخلاص العقّار السائل من الفطر وأبواغه بعملية التقطير، وكشفت التجارب التي أجريتها - ماذا كشفت التجارب يا كاليستو؟».

أوضحت بيبيشي: «كشفَتْ التجارب أن المواد الفعَّالة النَّشطة هي مجموعة من القَلويات، هذا إلى جانب كميات صغيرة من المنتجات الراتنجية وقليل من حمض السالسيليك وأخيرًا آثار مادة زيتية».

قال البارون: «صحيح أن الأمر يبدو في غاية البساطة، لكنه كان عملًا دام على مدار عدة أشهر، والآن نحن جاهزون لإجراء تجربة على نطاق أوسع، وليس على فردٍ واحد يا دكتور. كما تعلمون، للرُّوح الجماعية قوانينها الخاصة، فهي تتفاعل بشكل مختلف وأكثر عنفًا مع المحفِّزات».

كان الكاهن قد نهض ومسح جبهته بمنديله الضخم ذي اللون الأزرق، ثم قال:

«أنا مجرد شيخ مُسِنّ لم أَخبر كثيرًا في الحياة، وأعلم أنك لن تصغي إلى كلامي. لكني لن أتوقَّف عن تحذيرك، لا تفعل ذلك. لا تُجْرِ التجربة هنا في القرية، من فضلك اترك المزارعين وشأنهم، فلديهم ما يكفيهم من البؤس، أنا خائف! هل تسمع كلامي؟ أنا خائف عليك، وعلى نفسي وعلينا جميعًا. في مقاطعة فيستفاليا، هناك دائمًا شيء ينذر بالخطر».

هزَّ البارون فون مالشين رأسه، وقال:

«صديقي القديم: هل أنت خائف؟ مِمَّ؟ ما الذي يثير فزعكَ؟ أنا أفعل ما كنت تفعله طوال حياتك، أحاول إعادة الناس إلى الله».

سأل الكاهن: «هل تعرف بالفعل إلى أين تقود الناس؟ فكِّر في هذا المقطع من سِفر الملوك: «لقد دعا الحبوب من الأرض ليأكل منها الناس ويتعرَّفوا عليه»، وماذا حدث عندما أكل الناس من هذه الحبوب؟ ماذا يقول سِفر الملوك؟ «تعرَّفوا عليه وبنوا له مذابح، كما جاء في سِفر الملوك، «وضحَّوا له بالأسرى، وكان عددهم خمسة آلاف. وضحَّى الملك أخاب بابنه تقربًا إليه».

سأل الكاهن: «هل تعرف مَن عرفوا؟ ولِمَن بنوا المذابح؟ ولِمَن قدَّموا القرابين البشرية؟».

«إلى إلهِهم».

صرخ الكاهن: «بالضبط، إلى إلههم، وليس إلـهنا، واسم إلههم «مولوخ»[1]، ضحَّى الملك أخاب بفَلْذة كبده قربانًا للإله مولوخ: لا تنسَ».

هزَّ البارون كتفيه وقال:

«ربما يكون صحيحًا أن الملك أخاب قدَّم قرابين بشرية على مذبح الإله الوثني «مولوخ»، لا الربّ «يهوه»، لكن إله الفينيقيين المتعطش للدماء ليس إلا ظِلّ الذاكرة اليوم. لماذا تستدعيه الآن إذن؟».

كان الكاهن قد وصل إلى الباب بالفعل، فالتفتَ مرة أخرى وقال:

«لستُ أنا من استدعيتُه، بل أنتَ من استدعيتَ «مولوخ»، لكنك لا تشعر».

(1) مولوخ إله كنعاني قديم متعطش للدماء ولم تكن ترضيه إلا قرابين الأطفال فكانوا يحرقون الأطفال على مذبحه. (المترجم).

17

عندما دقَّت الساعة السادسة اقتحمتني رغبة قوية في أن أكون بمفردي. أمرتُ بصرف الشَّخصين اللذين كانا جالسين في غرفة الانتظار الخاصة. حصلتْ المرأة على زيت كبد الحوت لطفلها، بينما أعطيتُ لرجل قطرات لتسكين آلام الأعصاب، وطلبت منه العودة في اليوم التالي. كان سَمْعُه ضعيفًا ولم يفهمني على الفور.

قال شاكيًا إن آلام ذراعيه لن تخفَّ، لأن مصدرها قابع في الأعماق وسببها دَمٌ متخثِّر. خَلَع الرجل معطفه وأنزل قميصه وطلب مني سحب الدَّمَ من العروق. أوضحتُ له أن الوقت متأخر اليوم وفي مقدوره المجيء صباح غدٍ. صرختُ في أذنه: ستغطُّ في النوم هذه الليلة لو تناولتَ هذه القطرات. فهمني أخيرًا وارتدى ملابسه، ثم هبط درجات السُّلم بخطوات بطيئة متثاقلة، واستغرق الأمر دهرًا حتى أُغلق الباب الأمامي خلفه.

ولما اختليتُ بنفسي في غرفتي تساءلت عن سبب صرفه. شعرتُ كم تمرُّ الساعات التي عليَّ انتظارها ببطء شديد. استعددتُ للأمر قليلًا. اشتريتُ حلوى التوت من البقَّال، التي يبدو أنها أفضل من حلوى «البرالين» التي يبيعها، وبضع تفاحات وقالب من الشيكولاتة، وعُلبة من الكعك وتمرًا وبرطمانًا من البونبون، فالبقالة لم يكن فيها أكثر من ذلك. ثم ملأت المزهريَّتين الموضوعتين على رفِّ المدفأة بفروع ناضرة من شجر التنوب، وأزحتُ الكنبة المهترئة إلى الزاوية معرضًا إياها لأشعة الشمس، ورششتُ ماء الكولونيا فوق كراسي الخيزران.

كان هذا أقصى ما في وسعي فعله، ولم يكن يسعني سوى الانتظار.

التقطتُ الصحيفة وحاولت مطالعة الأخبار لكنني سرعان ما اكتشفت ألا شيء مما يحدث في العالم يمكنه أن يثير اهتمامي، وألا شيء يمكنه أن يصرف أفكاري عن المحور الذي تدور في فلكه من دون توقف، كانت الأخبار عن فشل الانتخابات في جنوب إفريقيا والأرجنتين، وخطر اندلاع الحرب في الشرق الأقصى، وثورات رجال الدولة، قاعات المحكمة في باريس، والتقارير البرلمانية. لم يُثِر كل ذلك أدنى اهتمام عندي. لم أقرأ باهتمام سوى قسم الإعلانات في الصحيفة. لطالما تساءلت كيف أن لقراءة إعلانات الصُّحف، تلك البيانات الصغيرة للحياة اليومية، تأثير مهدِّئ على الأعصاب المتوترة، ربما لأنها تتيح لنا التعرف على رغبات الغرباء المجهولين واحتياجاتهم، فننسى رغباتنا واحتياجاتنا لفترة قصيرة.

شركة تأمين على الحياة تعلن عن وظيفة منصب رئيس المفوضين لمقاطعات تيلتو ويوتربوج وتوش بلزيج؛ مالك منزل ريفي يرغب في شراء سجاجيد فارسية تعود لفترة ما قبل الحرب والدَّفع نقدًا، إعلانات للبحث عن مندوبي مبيعات متجوِّلين للترويج للآلات، إعلانات عن مُعدَّات شتوية ومشابك وأواني خزفية. رسم لامرأة أنيقة فارعة الطول وأنيقة تعرض خدماتها كعارضة أزياء.

عاودتُ قراءة كل هذه الإعلانات عدة مرات فخفَّفتْ من غلواء قلقي لهنيهة قصيرة من الزمن بعد أن أخرجتني من سجن حياتي، ودفعتني للإحساس برغبات الآخرين ومخاوفهم كما لو كانت تخصني. وبعد ذلك، عندما عدتُ إلى نفسي مجددًا، شعرتُ بالرضا، لأنه لم يكن لدي الكثير لأتمناه، اللهم إلا أن يفوت وقت الانتظار أسرع.

كانت عقارب الساعة تشير إلى السادسة والنصف، وبعد قرابة نصف ساعة يقترب مجيء بيبيشي. عندها سمعتُ طرقًا على الباب فدخلت مدبِّرة المنزل وجلبتْ لي طعام العشاء. أكلتُ على عجل بذهنٍ شارد، وحتى بعد مرور عشر دقائق لم أستطع تذكُّر ما قدَّمَتْ إليَّ من طعام، ثم انتابني القلق ألا تزول رائحة الطعام من الغرفة، ففتحتُ كلا النافذتين، وتركت الهواء البارد ينساب إلى الغرفة.

كان الضباب يلفُّ القرية بالخارج، متسلِّلًا ليضرب أسطح البيوت، وكان ضوء الفانوس المعلَّق في ممرِّ النـزُل يتلألأ بشكل خافت كما لو كان تائهًا وسط سحب الضباب الأبيض.

وبينما كنت أتأمل الشارع تذكَّرتُ أن على قائمة جدولي اليوم زيارة لأحد المرضى. كانت زوجة عامل النِجَارة الذي يعيش خارج القرية على وشك الولادة، وكانت تنتظر طفلها الخامس. في الظهيرة كانت قد اشتكت من آلام مبرحة أسفل الظهر ومن ضعف عند المشي فقَرَّرت المرور بها. أغلقتُ النوافذ وألقيت بلوحي خشب إلى قلب المدفأة. ثم أخذت قبعتي ومعطفي وغادرت.

لكني اكتشفتُ أنها كانت زيارة بلا داعٍ؛ حيث لم تتغير حالة المرأة ولم تهدأ آلام أسفل الظهر، وربما يكون أمامها بضعة أيام أُخر قبل أن تأتيها آلام المخاض. كانت المرأة في المطبخ تُحَضِّر العشاء. أزكمتْ أنفي الرائحة الحامضة لدلو الحليب الممزوجة برائحة بطاطس، ورائحة عَلَف الخنازير المحروق على الموقد.

تجاذبتُ أطراف الحديث مع المرأة والرجل الذي جاء لتوِّه من العمل. كانا فقيرين مِسكِينين مثلهم مثل السواد الأعظم من سكان القرية. صُودِرت بقرتهم الوحيدة لتأخرهما في دفع الضرائب. كانت أسرة مكونة

من ثمانية أفراد يعيشون في غرفتين رطبتين نصف مظلمتين، لا تحتويان إلا على أربعة أَسِرَّة، وقد سُدَّت النوافذ المكسورة وشقوق الأبواب بأكياس فارغة. دخل الأطفال واحدًا تلو الآخر إلى المطبخ وألقوا بأبصارهم على طبق البطاطس. قالت الزوجة إنه يتحتَّم شراء زوج من الأحذية للولد الأكبر، لكن للأسف كان المنزل خاويًا من المال.

أذكرُ أن خالتي لم تهتم يومًا بالأعمال الخيرية وكانت تقول: «على كل شخص أن يعتني بنفسه، لأن أحدًا لا يساعدني». وهكذا زرعتْ فيَّ خالتي الرُّوح نفسها. لكن في ذلك المساء شعرتُ بالحاجة إلى تقديم المساعدة، وإلى فعل عمل صالح، وتفريج الكَرب عن أحدهم. أخرجت من جيبي خِلسةً خمس قطع معدنية من فئة (2 مارك) ووضعتها فوق سطح المَوْقِد من دون إصدار صوت. ربما فعلت هذا فقط إرضاءً لخاطر السماء، لأني كنت أرتجف خوفًا طلبًا للحظ السعيد، ولأجل أن يبتسم لي الحظُّ في هذه الليلة.

لا بد أن الزوجين قد عثرا على المال بعد انصرافي مباشرة لأني سمعتُ صوت الزوج ينادي عليَّ في شارع القرية، لكنه لم يرَني برغم أن عشر خطوات فقط كانت تفصلني عنه، لكن الضباب كان كثيفًا للغاية.

عندما رجعت إلى المنزل بدَتْ غرفتي أكثر ودِّيَّة وأبعث على الراحة. وضعتُ تفاحتين فوق الشبكة المنصوبة لشيِّهما، ثم أطفأت كل الأضواء، لكن الغرفة لم تغرق في الظلام تمامًا، حيث عكستْ نار المدفأة وهجًا مائلًا إلى الحُمرة على السجادة البالية وفوق كرسي الخيزران.

في الطابق السفلي كان الخيَّاط يسعُل في غرفته، راقدًا في الفراش، مصابًا بالتهاب في الشُّعب الهوائية. كنت قد وصفت له شرب الحليب الساخن المخلوط بمياه فوَّارة. فيما عدا ذلك كان كل شيء هادئًا،

اللهم إلا صوت غناء خفيف وهسهسة قادمة من ثمرتي التفاح فوق الشواية، وعَبَق الرائحة المتبَّلة الرائعة للتفاح المشوي التي كانت تغمر أرجاء الغرفة. جلستُ محدِّقًا إلى النار، وتوقَّفتُ عن النظر إلى الساعة. لم أرغب في معرفة الوقت، ولا كم من الوقت كان يتحتَّم عليَّ الانتظار. ثم خطرتْ بذهني فجأة فكرة أزعجتني. سألتُ نفسي: ماذا أفعل لو جاءني زائر الآن؟

يمكن أن يأتي شخص لا أستطيع صرفه ويُصِرُّ على البقاء في صحبتي، مثل الأمير براكاساتين. لا، لم يكن الأمر مستحيلًا. فقد جاء إلى هنا قبل ذلك وبقي إلى ما بعد منتصف الليل. ماذا أفعل الآن لو دخل من الباب وجلس إلى جواري بجانب المدفأة؟ لكن الفكرة التي أزعجتني في البداية سرعان ما بدأتْ تُسلِّيني.

تخيَّلتُ أنه جالس بالفعل هنا، وأني لا أستطيع رؤيته بسبب الظلام الحالك الذي يلفُّ الغرفة. لكنه كان جالسًا، مادًّا ساقيه، ورأسه ذو الشعر الأشقر المُصَفَّف إلى الخلف مائلٌ قليلًا إلى أحد الجوانب، وكرسي الخيزران يـأزُّ تحت وطأة جسده الثقيل، بينما انعكس وهج جمر المدفأة على حذائيه العالِيين اللامعين.

قلتُ للصورة الشبحية المُمدَّدة فوق كرسي الخيزران:

«أركادي فيودوروفيتش: أنت قليل الكلام اليوم. لم تجِئ إلى هنا إلا منذ خمس دقائق، لكنك تجلس مثل بُومة في جنح الليل».

تركتُ الظلَّ المُتخَيَّل يجيب: «خمس دقائق؟ لقد أمضيتُ وقتًا طويلًا هنا يا دكتور أراقبك. أنت رجل نافد الصبر، ويبدو أنك تنتظر شيئًا، لكن الوقت لا يريد أن يمضي».

أومأتُ، فواصل الظلُّ كلامه: «صحيح، يرتدي الوقت زوجين من الأحذية، يَعْرُج في فَرْدة ويقفز في الثانية، واليوم في هذه الغرفة، يرتدي الوقت فَرْدَة حذائه العَرجاء، ولا يريد أن ينقضي».

«معك حق، أركادي فيودوروفيتش»، تنهدْتُ وقلتُ: «فالساعات تمرُّ مرورًا بطيئًا للغاية».

«وأنتَ لست معتادًا على الانتظار يا دكتور، هذا أمر سيء. أما أنا، كما ترى، فقد تعلَّمتُ الانتظار. فحينما جئت إلى هنا فكَّرت: حسنًا، إلى متى سيبقى الجيش الأحمر في روسيا؟ سنة أو سنتين على الأكثر وانتظرت. أما اليوم، بعد مرور سنوات عديدة، فهمتُ ألا أجل محدَّد لبقائهم، وأنهم سيبقون إلى الأبد، وسأبقى أنا منتظرًا بلا أمل. انتظر، دكتور، هل تنتظر أنتَ أيضًا بلا أمل؟».

«لا».

قلت باقتضاب وغضب.

ردَّ الروسي: «أنت في انتظار امرأة بطبيعة الحال. كان بإمكاني تخمين ذلك، من خلال الإضاءة الغامضة وطبق التفاح فوق المائدة، الشيكولاتة، عُلبة فيها شيء ما، حبَّات تمر، أرى القليل من الخمر أيضًا، لا ينقص المكان إلا الورود».

غطَّى فمه بيده وسعلَ ثم تابع كلامه: «ينبغي وجود مزهرية بها ورود بيضاء على الطاولة يا دكتور. ألا تعتقد ذلك؟».

«اخرس، أركادي فيودوروفيتش»، صحتُ بغضب: «وما الذي يهمك؟».

«لا بأس، لا ورود إذن، لا تغضب».

جاءني صوته بنبرة ناعمة غنائيَّة من أعماق كرسي الخيزران.

«بالمناسبة ولِمَ الورود حقًّا؟ هذه مجرد زهور عادية لا تحمل طابعًا شخصيًّا مميزًا، لذلك ستَستقبِلُها بدون ورود. ها أنت ذا، هنا في هذه الأرض القاحلة، في هذه القرية التي نسيها الله تنتظر زيارة من امرأة. صحيح، حتى الدُّيوك تبيض للمحظوظين! بالتأكيد ستأتي إلى هنا امرأة جميلة رشيقة القوام، مثل أم الإله المقدسة، ولون بشرتها أبيض كزهر شجرة التفاح. وعندما تتحدث يشبه كلامها هبوب النسيم على الأرض في فصل الربيع. أليس هذا ما تنتظره يا دكتور؟».

قلت: «ربما».

ومرة أخرى هزَّتـه نوبة سُعال فحرَّك الكرسي قليلًا إلى جوار المدفأة وقال:

«لتنتظر إذن بلا أمل، لأنها لن تأتي. لقد انتظرتُ أنا أيضًا، انتظرتُ لسنة كاملة ولم تأتِ».

«طبعًا، أنا متأكد أنها لم تأتِ إليكَ».

قلتُها وأطلقتُ ضحكة عالية، واندهشتُ كيف بدت ضحكتي طافحة بالحقد والغضب.

فأجابَ قائلًا: «وهل تظن أنها ستأتي إليك؟ ربما.. الأيام بيننا.. سأبقى هنا وأنتظر معك، سأكون سعيدًا لو أقنَعْتَني».

صِحتُ: «هل تعتزم البقاء معي؟ عليك العودة إلى المنزل، أنت مريض بالسُّعال».

«آه.. لهذا السبب؟ لكني لن أموت بسبب السُّعال. ومتى تتوقع مجيئها؟».

قلت بصرامة: «أركادي فيودوروفيتش، هذا يكفي الآن. لا داعي لوجودك، سوف تنصرف، وفي التوِّ واللحظة، أنا على يقين من أنك ستذهب الآن».

لم يتحرك قيد أُنملة من فوق كرسي الخيزران. لمعَتْ شعلة نار من قلب المدفأة فتهيأ لي أنني رأيتُ وجهه لوهلة.

«حقًّا؟ أنتَ على يقين إذن؟ هل تهدِّدني؟ لكن تهديدك لن يُوصلك إلى شيء، الأمر أشبه بمحاولة قطع شجرة بغصن بان، وبِمَ تهدِّدني يا دكتور؟».

قلتُ: «لا أريد تهديدك، سوف تغادر يا أركادي فيودوروفيتش، ستغادر ببساطة لأنك رجل نبيل».

«نعم»، قالها الروسي بعد هنيهة، «نعم كرجلٍ نبيل سيتحتَّم عليَّ الانصراف الآن، لكن دكتور، ألا تشعر أحيانًا بوخزة قوية في روحك: حسنًا، ألا تشعر بها الآن؟ سأصارحكَ بالحقيقة: أنا رجل غيور، بل تحرق قلبي الغيرة، معاناتي فوق الوصف. عليَّ الانصراف والبقاء في آن واحد. أريد أن أعرف، أيها الطبيب، من سيأتي لرؤيتك».

قلت له: «تمالك نفسك، أركادي فيودوروفيتش، أنتَ لست جادًّا، كما أنكَ لست غَيورًا، ليس لديك سبب يدعو للغَيرة. عُدْ إلى المنزل، أنا لا أتوقع قدوم المرأة التي تتحدث عنها».

تنهَّد قائلًا: «آه.. فقط لو كنت تقول الحقيقة، لكنك لا تنطق بالحقيقة، يمكنني أن أقرأ ذلك من عينيك. اسمع: سأعرض عليك اقتراحًا. نحن رجال، أليس كذلك؟ رجالٌ قُـذِف بنا إلى هذه الأرض اليباب، لكننا مع ذلك رجال متحضِّرون، سنسوِّي الأمر تسوية سلمية عادلة. هنا لدي

مجموعة من أوراق اللَّعب. من يسحب البطاقة ذات الرقم الأعلى يبقى، بينما يغادر الآخر من دون رجعة. هل يناسبك هذا؟».

«مبارزة؟ مبارزة على الطريقة الأمريكية؟».

«ولماذا تسميها مبارزة؟ أنا لا أقول إن الطَرف الخاسر عليه إطلاق الرصاص على رأسه فورًا، بل أقول إنه سيغادر بلا عودة. مبارزة؟ إنها مجرد لعبة صغيرة على رهان متواضع لا أكثر ولا أقل».

«هل تسميه رهانًا متواضعًا؟ لا بأس، أنا موافق. لكن الظلمة هنا حالكة، لا يمكنني رؤية البطاقات إطلاقًا. انتظر لحظة سأشعل المصباح».

صرخ: «لا، لا تشعل المصباح! فيمَ الدَّاعي؟ الأمر غير ضروري. أنتَ تَغار أيضًا، مثلي تمامًا، وللغَيرة أعين القِطط، كلانا يرى صاحبه جيدًا في جنح الظلام، سأسحب بطاقة الآن، ها قد سحبتُ ورقة «الولد»، والآن حان دورك».

ضحكتُ: «لكني لا أرى أنني رجل غيور على الإطلاق. لا أعتقد أنك تحب الضوء كثيرًا، أراهن أنني إذا أدرتُ مفتاح الكهرباء الآن ستتلاشى، لذلك سأشعل مفتاح الكهرباء، مُخاطِرًا بإنهاء محادثتنا الصغيرة».

صرخ: «أشعل المصباح.. جرِّب فقط، لن تنجح، سيحدث ماس كهربائي يا دكتور، ماس كهربائي».

صرختُ: «سُحْقًا! لا ينقصني إلا هذا!».

بحثتُ عن مفتاح الكهرباء فلم أجده، قلبتُ كرسيًّا واصطدمتْ جبهتي بخزانة الكتب.

«لا تحاول، هناك ماس كهربي!».

قالها الروسي ضاحكًا، ثم تلاشت ضحكاته وسط نوبة السُّعال. إلا أني سرعان ما عثرت على مفتاح الكهرباء فأدرته ليعمَّ الضوء أرجاء الغرفة. رفعتُ يدي ووضعت كفي فوق جبهتي المُصابة بعد أن خطف الضوء بصري، ثم صرختُ وأنا أتفحص الغرفة بعيني:

«هل اختفيتَ يا أركادي فيودوروفيتش؟ خسارة سيفوتك أن تعرف من سيأتي لرؤيتي الليلة. لماذا عجَّلتَ بالرحيل من دون كلمة وداع؟ في الحقيقة أنا مذهول من سلوكك، ليست أخلاق رجل متمرِّس، ليلة سعيدة، نَـمْ قرير العين ولا ترهق ذهنك بكثرة التفكير».

أمسكت عن الكلام لهنيهة وبدأت أسمع دقَّات جرس الكنيسة، وقفت بلا حَراك أُحصي عدد دقات الساعة، التي أعلنتْ دقَّاتها تمام التاسعة.

18

دقَّت الساعة التاسعة ولم تظهَر. فتحتُ النافذة وألقيتُ نظرة على الخارج. كان السكون يلفُّ المكان، ولم تكن تُسمع حتى وقع خطوات خفيفة ولا صوت انسحاق الثلج تحت الأقدام، ولم يكن يُرى حتى ظلَّ يتسلَّل عبر الضباب.

لماذا لم تأتِ؟ سألتُ نفسي وأنا مشتت الذهن. ما الذي جرى؟ ما الذي يمكن أن يكون قد حدث بحق السماء؟ ثم سرعان ما تذكرت أنني لم أشترِ ليمونًا، فكَّرت في كل شيء ما عدا الليمون للشاي. كان متجر البقالة قد أغلق أبوابه ولم يكن أمامي إلا الذهاب إلى الحانة. ولكن لِمَ؟ بيبيشي لم تأتِ من الأساس.

هل جاءت ووجدت البوابة الأمامية مغلقة؟ لكني أخبرت زوجة صاحب النُزل، كان الأجدر بي التحقق بنفسي ما إذا كان الباب الأمامي قد تُرك مفتوحًا. لماذا لم أتحقق؟ نسيت إغلاق النافذة، كنت في عجلة من أمري. ركضتُ هابطًا درجات السُّلَّم. لا، لم تكن البوابة الأمامية موصدة، رجعت أدراجي فصفعني هواء الليل البارد حينما وصلت الطابق العلوي، ألقيت نظرة ثانية على الشارع ثم أغلقت النافذة. صَببتُ لنفسي كأسًا من الكونياك وأنا ألاحظُ ارتعاش يدي. قلتُ لنفسي: تَحلَّ بالهدوء وهدِّيء من روعك.

ثم جلست وفكرت. ماذا حدث؟ من المؤكد أنها نسِيَتْ. غَرقت في معملها ونسيت اليوم والساعة. ربما حلَّ بها التعب واستلقتْ فوق الأريكة لتستريح قليلًا ثم غفت. وربما لم ترغب في المجيء من الأساس، ولم يغد الأمر كونه وعدًا متسرعًا قطعته على نفسها. ولماذا تفي بوعدها؟ ماذا أعني أنا بالنسبة إليها؟

«هل تظن أنني سأطيق الحياة هنا من دونك؟».

هكذا أخبرتني، ولكن ذلك كان قبل يومين، وعند النساء تتبدَّل أمور كثيرة في أقل من يومين.

عاودتُ صبّ الكؤوس، وكانت كأس الكونياك الثالثة. قررتُ أن أشرب هذه الليلة حتى آخر قطرة من الزجاجة وحتى تصير بيبيشي والعالَم في نظري سيّانًا. ربما أكون قد ظلمتُها، من المحتمل أنها لم تنسَ الموعد لكن عائقًا طرأ في اللحظة الأخيرة، فدعاها البارون أو التقتْ به وهي في الطريق إلى بيتي.

كأس كونياك آخر نخبكِ يا بيبيشي برغم أنك لم تأتِ، اللعنة، ما أزال أحبُّكِ، وللأسف ليس الأمر بيدي. آه لو رأيتها غدًا. ربما تكون مريضة، أو طريحة الفراش تعاني من الحُمَّى. ولكن كان في مقدورها أن تبعثَ إليَّ برسالة عبر ذلك الصبي الذي سبق وأن جاءني!

«أنتَ غاضب مني، لكني لا أعرف السبب. آه بيبيشي المسكينة».

هكذا كتبَتْ على قصاصة الورق في المَرَّة السابقة. واليوم ماذا ستقول لي؟ «وفِّر على نفسك عناء انتظار المزيد. هل حسبتَ حقًّا أنني سآتي إليك؟».

ربما سيصل الصبي حالًا ويقول: «مساء الخير، هذه رسالة من السيدة الشابة».

عليَّ بكأس آخر من الكونياك، سيشعرني بالتَّحسُّن، سأمكث طوال الليل و...

في هذه اللحظة سمعتُ طرقًا على الباب. كان الصبي الصغير حاملًا ورقة. بيبيشي مريضة، لا ليست مريضة لكنها لا ترغب في المجيء، لا إنها تريد المجيء لكنها لم تستطع بعد أن مرَّ بها البارون.

«تفضّل بالدخول».

أجبتُ بنبرة طافحة بالخمول والكسل ولم ألتفتْ، لم أُرَدْ النظر إليه.

«مساء الخير. أوه! تفوح رائحة التفاح المشوي هنا، رائع. تروق لي الرائحة. هل تركتكَ تنتظر طويلًا؟».

نظرتُ إلى بيبيشي. كانت واقفة على عتبة الباب المفتوح، مرتدية معطفها وحذاء الثلوج، نظرتُ إلى ساعتي، كانت الساعة التاسعة وثلاث دقائق. مدَّتْ يدها لأُقَبِّلَها، فقالت:

«بأمانة أنا مذهولة من دِقَّة مواعيدي، فهذا ليس من طبعي في العادة. هكذا تعيش إذن، أحيانًا كنت أفكِّر في شكل الغرفة التي تعيش فيها».

ساعدتُها في خلع معطفها، خجلتُ وقلبي يخفق بين ضلوعي:

«لا تنظري حولكِ يا بيبيشي، الغرفة هنا غارقة في الكآبة».

ابتسمتْ إليَّ، كانت تتمتع بطريقة فريدة في الضحك بعينيها وطاقَتي أنفها.

قالت: «من الواضح أن الغرفة لم تستقبل سيدات كثيرات بعد، أو ربما استقبَلَتْ؟ زيارات من ريدا أو حتى من أوزنابروك؟ الإضاءة ساطعة بعض الشيء، يمكنك إطفاءها، أباجور الطاولة كافية، نعم، هذا جيد».

وضعت برَّاد الشاي فوق المنضدة وأشعلت فتيلة موقد الكحول. كلانا كان غارقًا في ارتباكه، وكان كلانا يتحاشى أن يلحظ الآخر ارتباكه، ولكسر حاجز الصمت سألتها: «هل الجوّ بارد في الخارج؟».

«نعم، أقصد لا أعرف.. ربما. لم أنتبه لذلك، كنتُ خائفة فركضت».

«خائفة؟».

«نعم، في الحقيقة كنت في قِمَّة الحماقة، في البداية عندما أغلقت باب المنزل ورائي غمرتني فرحة قوية، لكني لما شققت طريقي إلى هنا في جنح الظلام انتابتني مشاعر الخوف، وتحوَّل الطريق القصير إلى مشوار طويل».

قلتُ: «ما كان لي أن أتركك تجيئين بمفردك».

هزّتْ كتفيها. اعترفَتْ: «وحتى الآن وما أزال خائفة الآن أيضًا، هل يمكن أن يزورك أحد الآن؟ مريض مثلًا؟».

قلت: «هذا مُستبعد في هذه الساعة، وحتى لو جاء زائر الآن فسيقرع الجرس في الطابق السفلي ولن أسمح له بالدخول».

أشعلَتْ سيجارة وقالت: «سنشرب الشاي ونتحدث قليلًا ثم أنصرف».

لزمت الصمت ونظرت إلى اللهب الأزرق لموقد الكحول. من الطابق السفلي تناهى إلى سمعي صوت نوبة سعال الخيَّاط.

ارتعَدتْ قائلة: «من هذا؟».

«إنه صاحب النُزل، يعاني من التهاب خفيف في الشعب الهوائية».

سألَتْ:»وهل سيواصل السعال هكذا طوال الليل؟».

«لا، لو لم يخلد للنوم سأهبط إلى الطابق السفلي وأعطيه عقّار كودين، أو شيئًا من هذا القبيل».

بدا أن شيئًا ما يزعجها فقالت: «في الحقيقة لا أعرف سببًا لمجيئي إلى هنا، هل يمكنكَ إخباري بالسبب؟ نعم، انظرْ إليَّ، انظرْ إليَّ جيدًا، ماذا تنتظر مني بالضبط؟ أن أعانقكَ؟ أنت لَمْ تقل لي حتى مساء الخير؟».

انحنيتُ عليها مطوِّقًا كتفيها بذراعَي لكنها قاومت، لم ترغب في أن أقبِّلَها ودفعتني للخلف.

«بيبيشي!».

هتفتُ مدهوشًا وفي حلقي غُصَّة.

ضحكَتْ: «نعم، ما أزال بيبيشي ولم أتغيَّر. أنتَ ملخوم[1]، لقد مزَّقْتَ ثوبي، هل لديك شيء من الحرير الأزرق؟ صحيح.. ومن أين لكَ بحرير أزرق!».

عرضتُ عليها الذهاب إلى الخياط وطَلب قطعة من الحرير الأزرق فوافقَتْ.

قالت: «اذهب، ولا تغبْ طويلًا، أنا خائفة. نعم، أنا خائفة بمفردي، سأغلق الباب على نفسي، وعليك أن تطرقَ الباب أولًا وتخبرني وإلا لن أفتح الباب».

عندما رجعتُ كان الباب مفتوحًا فدخلت. رأيت بيبيشي واقفة أمام المرآة تسوِّي شعرها، وكان ثوبها فوق الأريكة. رأيتها مرتدية كيمونو أحمر فضفاض ساقط عن كتفيها، لم ألحظ أنها أحضرتْه معها. أظهَرَتْ المرآة تفاصيل وجهها الرائق الجذَّاب الهادئ والصارم الملامح.

---

(1) الملخوم في اللغة العربية هو المشغول بشيء ثقيل لا يقدر على التعامل معه بمهارة، ومن بين معاني اللَّخمة الارتباك والاضطراب. (راجع المعجم الوسيط مادة لَخَمَ - المترجم).

قالت من دون أن تلتفت إليَّ: «الآن يمكنك أن تقول لي مساء الخير».

أمسكتُ برأسها بين يدي وأملتها إلى الوراء فأطلقَتْ صرخة مكتومة. ربما كنتُ عنيفًا قليلًا معها، كانت قُبْلة همجية مؤلمة، لكننا وجدنا فيها بعضنا البعض.

عندما أطلقتُ سراحَ شفتيها قالت: «لقد أتيتَ إلى هنا وأزعجتَ راحتي، يمكنني قراءة ذلك من عينيك. هل تستطيع إيقاع النساء بسهولة دائمًا عندما تنظر إلى واحدة؟ وهل تحبني حقًا؟».

«ألا تشعرين بذلك يا بيبيشي؟».

«نعم، لكني أحبُّ أن أسمعها منكَ. لا، لا تقل لي، الأفضل أن تخبرني أين عشتَ في أثناء السنة التي غِبنا فيها عن بعضنا؟ هل اتخذتَ عشيقة؟ هل كانت جميلة؟ أجمل مني؟ نعم؟ لا؟ ألم تكن حقًا أجمل مني؟ لكن هذا لا يعني أنه عليك التوقف عن تقبيلي. يمكنك الإجابة ومواصلة تقبيلي في الوقت نفسه، أم أنك لا يمكنك ذلك؟».

أغمَضَتْ عينيها وسمَحَت لي بتقبيلها. انزلق الكيمونو من فوق كتفيها. غَزَتني رعشة سعادة قوية وأنا أحملها بين ذراعي. وفي الصباح، وقرب مطلع الفجر فارقَتني حبيبتي. لم تسمح لي بمرافقتها. وفي صالة النُّزُل، في الزاوية المظلمة الفاصلة بين الدَّرج وباب ورشة الخيّاط، قلنا كلمة الوداع.

«نعم، سأجيء قريبًا»، قالتها وهي تحتضنني.

«لا، ليس غدًا، لدينا الكثير من العمل في الأيام القليلة المقبلة، وحالما ننتهي منه لن تنتظر مزيدًا من الوقت. كم أودُّ لو بقيت هنا، لكن يتحتَّم عليَّ العودة إلى المنزل، لا بد، لا بد، فالقِطُّ يلعق وعاء الحليب. لا، أيها الساذج، ليست لدي قِطة، إنها مجرد أنشودة أطفال. ولو قابلت شخصًا

ما الآن فسأقول إنني خرجت في نزهة للتمشية. هل سيصدقني أحد؟ وسيَّان لو لم يصدِّقني أحد. قَبِّلْني مرة أخرى. ولكن كيف عرفتَ أنهم أطلقوا عليَّ اسم بيبيشي حينما كنتُ طفلة - هل أخبرتكَ؟ علينا أن نتقابل اليوم. ولو مررتَ بي اطرقْ على نافذتي. قُبلة أخرى! والآن....».

راقبتُها وهي تخطو خطوات صغيرة حذرة عبر الثلوج. ثم ما لبثت أن التفتتْ بغتة وأومأَتْ إليَّ. ولما اختفت صعدت إلى غرفتي. اعتراني نوع من القلق المبهج، ولم أكن قد شعرتُ بمثل هذا الشعور من قبل، شعرتُ لو أنني يجب أن أمارس شيئًا جديدًا تمامًا على الفور، كالشروع في تعلُّم ركوب الخيل، أو كتابة ورقة علمية، أو على الأقل التمشية بمفردي وسط الثلوج لمدة ساعة.

بعدها، وفي تمام التاسعة صباحًا، بدأ اليوم بالنسبة لي كما بدأتْ تمامًا مثل كل الأيام السابقة، وكأن شيئًا لم يحدث في تلك الليلة. جاءني المريض الأول الذي كان يشكو من آلام في الأعصاب، فاستقبلته بغبطة حقيقية وبمشاعر متعاطِفة، كنت قد صرفتُه بالأمس لأني كنت أتوقع مجيء بيبيشي، والآن بعد أن رحلتْ بيبيشي، عاد الرجل. استقبلته استقبال صديق قديم حميم.

«حسنًا، كيف قضيت ليلة الأمس؟ احكِ لي».

قلتُها وقدمتُ إليه سيجارة وكعكًا وتمرًا وكأسًا من الكحول.

19

لم أفلح في مقابلة بيبيشي على انفراد فيما تلى ذلك من أيام. كنت كلما مررتُ بمنزل الكاهن وجدتُ البارون فون مالشين برفقتها في المختبر. وكنت كلما نظرت عبر النافذة، إذ بي أرى على ضوء المصباح رأسه النحيلة وجبهته العريضة وفَوْدَيْه الأشيبين. كنتُ أراه يحمل في يده أنبوب اختبار، أو واقفًا مع بيبيشي أمام إناء زجاجي أسطواني الشكل. وفي مرة غشي الظلام غرفة المختبر فجلسَتْ بيبيشي إلى الآلة الكاتبة في الغرفة المجاورة، وبدا أن البارون يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا وكأنه يُملي عليها شيئًا. لم أرَه، وإنما رأيت ظلَّه يتماوج على الجدار وفوق الأرض.

كان معها على الدوام، ولم يكن عندها وقتٌ لي. لكن هذا لم يعد يقلقني، ففي الليلة التي أمستْ فيها بيبيشي حبيبتي طرأت تغييرات كثيرة بداخلي. فلو كنت مريضًا قبل تلك الليلة فقد برأتُ الآن.

تبدّدتْ الشكوك التي كانت تمزقني، ولم تعد تعذبني الحالة المزاجية المتقلِّبة باستمرار. لقد أحببتُ بيبيشي حُبًّا أقوى من أي وقت مضى، أحببتها كما أحبها اليوم، ولكن بمشاعر أكثر سكينة وهدوءًا، مَثَلي كمثل متسلِّقٍ يصعد سورًا شديد الانحدار، متجشمًا مشقة بالغة وخطرًا لا نهاية له، وها هو الآن يضطجع تحت أشعة الشمس، منتشيًا، سعيدًا، واثقًا من ذاته. لذلك كان من اليسير تحمُّل أوقات الانتظار. كنت أعرف أن بيبيشي ستعود إليَّ حالما تنهي عملها.

وظللت أتذكر تلك الليلة كلما طوقتني مشاعر الوحدة في غرفتي، أو انتابني الخوف عليها.

في تلك الأيام تزايدت وتيرة العمل، كانت بالقرية حالتا إصابة بالدفتيريا، ناهيك بمشاعر قلقي المتزايدة بشأن حالة الصغيرة إلزي التي كانت قد شُفيت من الحُمَّى القرمزية، وزال الطفح الجلدي، لكن الجهاز المناعي كان ضعيفًا، وكانت الطفلة في حاجة إلى تغيير الهواء، فرأيتُ أنه من المستحسن أن تنتقل إلى مناخ أفضل من الكوخ. وكان عليَّ التحدث إلى فون مالشين الذي استحوذتْ خُططه على وقته، فلم يتبق لابنته الصغيرة إلا النزر اليسير من الوقت. كنتُ قادمًا من كوخ الغابة، وكان يوم سبت. انقضى أسبوع كامل على ذلك اليوم. في الأسبوع الماضي قطعت طريقي في شارع القرية قاصدًا البارون. كان أهالي القرية محتشدين في مجموعات صغيرة أمام نُزُل «تسوم هيرشين»، وأمام متجر البقالة، رجالًا ونساءً، حتى من يقشِّرون البطاطس في المنازل كانوا واقفين هنا.

لزم الفلاحون الصمت كعادتهم، لكن ملامح وجوههم المرهقة من أثر الطقس كانت مسكونة بشيء من الترقُّب المشوب بالاضطراب. كانوا يراقبون زلَّاجات جليدية مُحمَّلة ببراميل البيرة تدنو ببطء من القصر، والسائق يسير إلى جوارها يقرع سوطه. أخبرني صاحب البقالة من دون أن أسأله أن البارون دعا أهالي القرية عن بكرة أبيهم للاحتفال بيوم الاسم[1]. جُهِّزت قاعة الحديقة الكبرى لاستقبال أصحاب الأعمال والمستأجرين، بينما خُصِّصت غرفة الخَدَم في الطابق الأرضي من مبنى الإدارة لاستقبال الفلاحين والحطَّابين.

---

(1) يوم الاسم هو تقليد في بعض بلدان أوروبا عندما يُسمَّى شخص باسم قديس فإنه يتمتع بفرصة للاحتفال بيوم القديس علاوةً إلى عيد ميلاده، ويُسمَّى يوم الاسم أيضًا «يوم الملاك». (المترجم).

سيُقَدَّم لحم الخنزير المشوي والنقانق مع مخلل الملفوف بالإضافة إلى كأسين من الكحول لكل شخص وما يشاءون من كؤوس البيرة. كما طلبَ البارون من صاحب البقالة صندوقًا كاملًا من بسكويت الزنجبيل، وكانت مخصصة للتوزيع على أطفال القرية حتى ينالهم نصيب من الفرحة. وفق كلام صاحب البقالة، لم يكن البارون بهذا السخاء في السنوات الماضية قَطُّ.

وتابع صاحب المتجر: «يدور كلام بين الفلاحين عن أن السيد البارون سيتنازل عن متأخرات الإيجار احتفالًا بهذا باليوم. لكني لا أصدق ذلك، ستتحول الأمور إلى فوضى. أنا أعرف السيد البارون، يُضمر تعاطفًا قويًّا إزاء الفقراء، لكنه لا يسمح بالعبث أبدًا فيما يتعلق بتحصيل الإيجارات. ينبغي أن يسود النظام وإلا قُلْ على الدنيا السلام. بمجرد أن يدرك الناس أن موضوع الإيجار لن يؤخذ على محمل الجِّد فسوف.. ها.. ما الأمر أيها الصبي؟ في عجلة؟ فيمَ العجلة؟ حسنًا.. ثمن التبغ ثلاثون بفيننج فقط لأجل خاطر الجَدّ، ولا تضيِّع الباقي وأرسل تحياتي إلى الجَدّ وعُـدْ مسرعًا، وتجنَّب المرور ببرج الكنيسة».

كانت كلماته السابقة موجَّهة إلى صبي صغير راح ينقر بصبر نافد على المنضدة بالبنسات، مقاطعًا حديث صاحب متجر البقالة.

كانت غرفة المختبر والغرفة المجاورة غارقتين في الظلام. طرقتُ على النافذة فلم ألقَ ردًّا، عاودتُ الطَّرْقَ بقوة أكبر، وكان السكون يغشى المكان، ولم يأتِ أحدٌ لفتح النافذة. داهمني شعور بالقلق. اعتادت بيبيشي الوجود في المختبر في هذه الساعة. هـل سافَرتْ؟ هـل أمرها البارون بالسفر مجددًا إلى برلين؟ هل هي الآن تقود سيارتها الكاديلاك الخضراء عبر ميدان محطة القطارات الحديدية في أوزنابروك؟

لا! قلتُ لنفسي. مستحيل! كانت ستخبرني لو أنها تسافر، لن تسافر قبل أن تودّعني بعد كل الذي جرى بيننا. هل أنجزتْ مهمتها؟ وتمكنت من إزالة الرائحة الكريهة عن المستحضر الطبي؟

الحقيقة أنها كانت رائحة مقرفة وشعرتُ بالغثيان آنذاك، لكن ها هم الآن يستعدون لإجراء التجربة وعلى نطاق واسع، هذا مؤكد، فالقرية كلها مدعوّة إلى القصر الليلة، كأسان من الخمر لكل فرد، ولمن يرغب أن يعبَّ كيفما يشاء من كؤوس البيرة! وبالتالي فالعقّار الطبي لن يُخلط بالبيرة، لأن الجرعة الصحيحة لن تكون مضبوطة إذا كان في مقدور الجميع الشُرب كيفما يريدون. ولكن لو خُلط العقار في كأسي الخمر فسيشرب الفلاحون الدواء الذي استخلصته بيبيشي من فطر نار أمّ الإله.

وستغُصُّ الكنيسة غدًا بالفلاحين القادمين لأداء الصلوات. ولكن لماذا يعارض الكاهن ذلك؟ ستأتي بيبيشي غدًا، فقد وعدتني بذلك؛ «وحالما ننجز مهمتنا لن تنتظر مزيدًا من الوقت»، هكذا قالت.

وصلتُ إلى القصر. لم يكن هناك من أسأله عن البارون. في الأرجح انشغل الخدم في التحضير للحفل داخل مقصورة الحديقة وفي مبنى الإدارة. دخلتُ القاعة وسقط الضوء الخافت للمصباح على شخصين جالسين قبالة بعضهما في صمت على كرسيين خشبيين منحوتَين. نهض أحدهما لدى دخولي وتعرفتُ على الفور عليه، كان الكاهن.

«مساء الخير يا دكتور».

حيَّاني وأضاف: «هل تبحث عن البارون؟ ها هو جالس في مقعده يغطُّ في النوم. نعم، لقد غفا وهو جالس، هكذا وجدته عندما أتيت إلى هنا. أنا أيضا كنتُ أودُّ الحديث معه، يمكنك الاقتراب، ولكن حذاري أن توقظه. ينام نوم الصالحين».

أغلقتُ الباب خلفي بهدوء واقتربت منه بخطوات وئيدة على أطراف الأصابع. كان يجلس منحنيًا، ورأسه مستلق على ذراعه، وصدره يعلو ويهبط بشكل منتظم. وعلى الطاولة أمامه كتاب مفتوح. كان التعب قد غلبه بينما كان يقرأ في كتاب «لوقيان».[1]

واصل الكاهن كلامه: «أليس من المدهش أن ينامَ قرير العين هادئ البال؟ ألا تختلج في حُلُمه ذرة من خوف أو قلق أو شك، بعد أن أخذ على عاتقه هذه المسؤولية».

سألتُه بنبرة هادئة متحفظة: «وأنت أيها الكاهن ألا تريد أن تشاطره المسؤولية؟ ألا تصبُّ كل خططه في مصلحة كنيسة المسيح؟»

قال الكاهن بنبرة هادئة وحازمة: «لا، لا، إن ما يدور بذهن هذا الرجل لا يمتُّ بأدنى صلة إلى كنيسة السيد المسيح، فكنيسة المسيح قائمة على قدرة الله المطلقة، وليس على ذكاء الإنسان. الإنسان موجود على الأرض ليعبدَ الله بمحض إرادته، لا رغمًا عنه، ألا تعرف ذلك؟».

لم أنبس بكلمة. كان السكون يلفُّ أرجاء القاعة، ولم يكن يُسمع سوى صوت أنفاس البارون النائم الهادئة.

سألتُه: «أبي الكاهن.. ولماذا لم تمنع أبناء رعيتك من القدوم إلى هنا؟».

قال: «فكَّرت في الأمر، لكن ذلك لم يكن ليجدي نفعًا، كانوا سيأتون على أي حال، إنهم لا يصغون إلى كلامي».

«إذا لم تكن خُطط هذا الرجل قد شابها الخطأ والعوار، فلا شكّ أن فلّاحي قرية مورفيدي سيستمعون إليك من الآن فصاعدًا».

---

(1) المقصود لوقيان السميساطي، كاتب سوري عاش في القرن الثاني الميلادي، وهو عالم وفيلسوف وكاتب ساخر. (المترجم).

نَظَر إليَّ الكاهن، ثم نقل بصره إلى النائم على الكرسي بذراعين.

«حقًا؟ وهل تعرف أهالي القرية هنا حق المعرفة؟ بل هل تعرف البشر أصلًا سيدي الشاب؟ لقد كبرتُ وسط هؤلاء الفلاحين والحطَّابين، وأنا أعلمُ منكَ بهمومهم وأدرى منكَ بأفكارهم وآمالهم ورغباتهم، وأعرف ما يعتمل خلسة داخل أرواحهم، أنا خائف».

ثم أشار ناحية البارون.

«كما ترى، جئت إلى هنا لأتحدث إليه مجددًا، فكَّرت أنني ربما أستطيع تغيير رأيه في اللحظة الأخيرة، لأنبّهه إلى إدراك المسؤولية الرهيبة المُعلَّقة في عنقه، وإلى حثّه على التراجع. ثم جلست هنا قبالته لمدة نصف ساعة مراقبًا نومه، ومراَقبًا أي اختلاجة تضرب وجهه، أو أيَّة أنَّة تصعد من أحلامه، ولكن انظر.. ها هو ذا ينام ملء جفونه قرير العين، لا يمكنك تحذير رجل ينام مثل هذا النوم الهادىء قبل ساعة من اتخاذ القرار، ليس عندي المزيد لأقوله له، سأذهب إلى حال سبيلي، ليلة سعيدة».

غادرتُ أنا أيضًا القاعة، وصعدت درجات السُّلم المُتعرِّج باحثًا عن بيبيشي.

20

في الصالون الصغير حيث اعتاد البارون فون مالشين تناول قهوة «موكا» بعد العشاء وتصفّح الجرائد، عثرتُ على فيديريكو والأمير براكاساتين. كانا جالسين إلى طاولة لعب الورق. عندما دخلت أومأ إليَّ براكساتين برأسه وبذهن شارد قليلًا ولم يعر وجودي مزيدًا من الاهتمام. أما فيديريكو فرمقني بنظرة ثابتة من وراء أوراق اللعب؛ كان يعلم أنني قادم من كوخ الغابة، وكنت قد اعتدتُ أن أوافيه بتفاصيل أحوال الصغيرة إلزي، وعن تحسُّن حالتها أو لو كانت قد سألتْ عنه. لكنه لزم الصمت هذه المرة. طرأتْ لي فكرة أن أنصح البارون بإرسال الطفلة إلى الجنوب، لكني تبيَّنتُ فجأة أن نصيحتي ستخرج من نطاق الإجراء الطبي الضروري لتدخل تحت بند الخيانة البشعة لفيديريكو. أزعجتني تَينك العينين الزرقاوين اللَّتين نظرتا إليَّ نظرة ملؤها الشكّ والريبة، فتحاشيتُ نظرته وتظاهرت بمراقبة اللعب.

لم أكن أعرف اللعبة التي كانا يلعبانها لكني سرعان ما انتبهتُ إلى أنها لا تسير على نحو يرضي الأمير الروسي؛ حيث قطَّبَ جبينه وتقّدم في مقعده إلى الأمام، متابعًا حركات اللعبة المختلفة وهو ينطق بعبارات غاضبة باللغتين الروسية والألمانية. وفجأة ألقى البطاقات على الطاولة وصرخ:

«لا أستطيع فهم ذلك. بالأمس، يا فيديريكو، كنتَ عاجزًا عن الفوز بمباراة واحدة، وبين عشية وضحاها صرتَ لاعبًا محترفًا، وتلعب بطريقة مختلفة تمامًا، حتى أنك تمارس ضدي الحيل التي لم أعلِّمْك إياها، فضلًا عن اضطراري لردّ إيصال الأمانة الذي كتبتَه على نفسكَ بالأمس. لا تستقيم الأمور هكذا. فيديريكو! لا تنظر إلى الطبيب، انظر إليَّ! أخبرني بالحقيقة: من علَّمَك هذه الحيل؟».

قال فيديريكو: «لم يعلمني أحد الحيل، قضيت طوال الليل أفكر في الطريقة التي ينبغي أن ألاعبك بها لأهزمكَ».

صاح الروسي ساخطًا: «كنتَ تفكر في أثناء الليل! لكن من غير المقبول أن تتخذ تدابيرك، فهذه ميزة غير قانونية تمنحها لنفسك. ها أنت ذا! يتظاهر الثعلب بأنه نائم بينما هو في الواقع يُحصي الدجاج! هذا ليس عدلًا يا فيديريكو. ليس من المعتاد بين السادة النبلاءَ التدبير وابتكار حيل سرِّيَّة».

قال فيديريكو: «لم أكن أعرف ذلك».

التفتَ الروسي إليَّ وقال وهو يخلط أوراق اللعب ويعيد توزيعها:

«ربما يدور في خلدك يا دكتور أنني ألعب الورق مع فيديريكو من باب التسلية أو تزجية الأوقات، أو حتى لكسب المال، لكن رأيكَ يجانبه الصواب تمامًا، لقد أخذتُ على عاتقي مهمة تربيته تربية روحية، وتوجيهه إلى تأمّل المسائل الكبرى التي ترضي المفكرين وحدهم، لأني ألمس في نفسي نزوعًا قويًّا إلى الفلسفة، وإلى تأمُّل أعمق الأمور باستمرار، مثل حدود الكون اللانهائية، تؤرقني هذه المشكلة ليلًا ونهارًا، لكني قبل المخاطرة بتنفيذ مهمتي عليَّ أولًا تعريف فيديريكو بقواعد التفكير المنطقي، وهو ما أستخدم لعبة الورق من أجله. ألعبُ معه بصفة يومية،

ويكفلّني الأمر مزيدًا من الوقت، مسترشدًا في سبيل ذلك بغرض تربوي؛ أنا أعمل على دفع فيديريكو إلى الشعور بالضجر من لعب الورق، وربما لن يطيق الصبي النظر إلى الورق في غضون هذه السنة، إني أزرع في قلبه النفور من أوراق اللعب وأحميه من الأخطار التي لم أفلح في حماية نفسي منها. أشعر بالحزن يا دكتور عندما أفكر في حياتي الماضية، كل شيء يُمكن تعويضه إلا الوقت المهدور، فلا سبيل إلى تعويضه أبدًا، كما أنني أقرن بهذا التمرين تدريبًا على المحادثة باللغة الفرنسية».

سحب فيديريكو الورق لكنه ما لبث أن أفلته على الطاولة من يده وقال:

«يبدو أن لديك ما تخبرني به يا دكتور».

هززتُ كتفي.

«أو ربما لديكَ ما تخفيه عني. نعم، هذا هو الأمر، إنك تخفي عني شيئًا».

أربكَتني عينيه الثاقبتين فقلتُ: «كنتُ أنوي الانتظار وألا أخبرك قبل الغد، ولكن بما أنكَ سألتني أظن أنه من الضروري أن تقوم الصغيرة إلزي بـ...».

بدا أنه قد خمَّن ما كنتُ أودُّ قوله، استحالتْ نظرة التوتر على وجهه إلى نظرة طافحة بالكراهية لم أرَها في وجه بشري قَطُّ، تملّكني الذعر وجبُنت أمام نظرة هذا الصبي.

«لا أظن أنه من الضروري أن تبقى الصغيرة إلزي في العزل الصحي لفترة أطول»، صحّحتُ كلامي، «لا مانع من زيارتكَ إياها».

رمقني في البداية بنظرة ريبة استحالتْ إلى نظرة دهشة، ثم ذهول، ثم ابتهاج وقال:«أيمكنني الذهاب إليها؟ هل تسمح بذلك؟ وأنا الذي حسبتكَ عَدُوي؟ أشكركَ. أعطني يدك، أنا ممتنّ إليك. سأذهبُ إليها الآن».

رجوتُه: «لا تذهب اليوم، فهي نائمة وسوف توقظها».

«لا، لن أوقظها. لا تقلق. سأقصد غرفتها بهدوء شديد وأغادر بهدوء شديد. حتى أنني سأكتم أنفاسي، لا أريد إلا أن أراها».

فجأة مرق ظل ما على وجهه وقال:

«ألن تخبر والدي أنني ذهبت إلى منزل إلزي؟».

«لا، لن أفشي سرّكَ».

«من المؤكد أنك تعلم ماذا سيحدث لو اكتشفَ والدي، فقد سبق وأن هددني أنه سيأمر بسفرها إلى سويسرا أو إنجلترا، لكنني لا أقوى على العيش بدونها».

تمتم الروسي: «يا ولد! بل سيمكنك العيش، أنا متأكد من أنه يمكنك مواصلة العيش بدونها».

«لن يعرف والدك شيئًا عن الأمر».

هكذا وعدتُه مُتخليًا عن فكرة إرسال الطفلة المريضة إلى جنوب البلاد. قلت لنفسي محاولًا إسكات صوت ضميري إنها ستتحسن هنا أيضًا. ربما يكون هواء الغابة مفيدًا لها، وفي غضون أسابيع قليلة سيحلُّ فصل الربيع».

التفتَ فيديريكو إلى الأمير الروسي.

«سأغادر الآن، أركادي فيودوروفيتش، لقد سمعتَ بأذنيكَ، قطعَ الطبيب وعدًا. حظًّا سعيدًا في المستقبل. أنا آسف لأني أزعجتك يا أركادي فيودوروفيتش، سأعوِّضكَ في اللعب غدًا».

غادر الصبي، والأمير الروسي يلاحقه بنظرات حانقة ثم التفتَ إليَّ ليلومني: «ما الداعي لأن تخبره بذلك بينما نلعب؟ ألم يكن في مقدورك الانتظار قليلًا؟ ماذا يمكنني أن أفعل الآن؟ لا شيء على الإطلاق، إنها الثامنة الآن، ليس أمامي خيار آخر سوى النزول لرؤية ضيوفنا».

وعندما عدتُ إلى القاعة رأيتُ بيبيشي. كانت بمفردها. وثَبَتْ ناحيني وأمسكتني من معصمي في حركة مميزة تنفرد بها بيبيشي.

قالت: «أين ذهبتَ؟ بقيت أبحث عنك في كل مكان ولساعات طويلة، لقد انتهيتُ من عملي، هل تسمع؟ أنجزنا المهمة، لم أركَ منذ أيام، هل خطرتُ ببالك طوال هذه الفترة؟ أنت لا تهتم بي حقًّا، أليس كذلك؟ حسنًا، ما الذي تنتظره؟ هل ينبغي أن أطلب منك قُبلة؟ شكرًا.. يا سلام.. رجل في غاية السخاء والكرم، نعم، يمكنك تقبيلي مرة أخرى. لقد هبطَ إلى الطابق السفلي، لكنني سأصالحه على أي حال».

لم أفهم للوهلة الأولى أنها كانت تتحدث عن البارون.

«نشب بيننا شجار. كانت مناقشة حامية الوطيس. مع مَن؟ مع البارون طبعًا. تشاجرنا بسبب العقّار، قال إننا -أي هو وأنا- ينبغي ألا نتناوله. قال: نحن القادة، علينا أن نسمو فوق الأشياء وأن نتحرَّر من الانفعالات العاطفية، علينا أن نَقودَ الجماهير لا أن ننخرط وسطها. تشاجرنا حول تلك النقطة، فأخبرته ليس معنى أن يسمو المرء فوق ما يجري أن يكون بعيدًا عنه، ولأنه هو على وجه التحديد القائد (Führer)، عليه أن يشعر بما تشعر به الجماهير ويفكّر فيما تفكّر به، لكني لم أفلِح في إقناعه ولا هو نجح في إقناعي، لكنه كان شديد الحنق حينما تركَني».

سألتُها: «وهل ستتناولين العقّار يا بيبيشي؟».

قالت وهي تجذبني ناحية المقعد الموجود بجوار المدفأة:

«تعال اجلس.. حبيبي.. لقد تناولتُ العقّار بالفعل، ولو كنتَ تريد تحذيري فقد فات الأوان. كان عليَّ أن آخذه. أريدك أن تفهمني. لستُ سعيدة، كما تعلم، ربما لهذا السبب تحديدًا فأنا لستُ سعيدة، أقصد لأني فقدت إيماني بالله، وتحدوني رغبة قوية في العودة إلى الصلاة مرة أخرى مثلما كنتُ أصلي أيام طفولتي. انقطعتُ عن الصلاة منذ أن أطلقوا النار على والدي.. ألا تعرف ذلك؟ ألم أحكِ لك ما جرى؟ عندما أُعلِنَتْ الجمهورية في اليونان. لم يلقَ أبي حتفه في معركة شوارع، بل حوكِمَ وأُدين بموجب قانون الأحكام العُرفيَّة وأُطلِق عليه الرصاص. كان مساعد الملك. سمعنا صوت طلقات إطلاق ودويّ المارشات العسكرية من المنزل الذي كنا نقيم فيه، ومنذ ذلك اليوم انقطعتُ عن الصلاة، كنت أؤمن بالعلم فقط، وليس بالله. وأتوق الآن إلى أن أكون قادرة على الصلاة مرة أخرى. أريد استعادة إيمان طفولتي.. هل فهمتني الآن؟».

لُذنا بالصمت فترة من الوقت، استندتْ عليَّ، ثم سرعان ما قالت بغتة: «مررتُ بغرفتكَ اليوم؟ هل علمتَ؟ ذهبتُ إلى غرفتكَ وبحثتُ عنك. جلستُ في غرفتك بمفردي، قطعتُ وعدًا بالمجيء حالما تُنجز المهمة. كنتُ خائفة إلى حد ما، لكني برغم ذلك صعدتُ الدَّرج وانتظرتكَ في الطابق العلوي، ما يزال صاحب النُزل يسعل. ولكن لِمَ تفوح غرفتك دائمًا برائحة الكلوروفورم؟ رائحة مثيرة للغثيان. كان الحطب يملأ المدفأة، وكان كل شيء يلفّه السكون حتى أني كنت على وشك الإغفاء. وأنتَ؟ أين كنت؟ جعلتني انتظر.. هل بحثتَ عني هنا؟ لقد بحثتَ عني في كل مكان، إلا في غرفتكَ، أليس هذا مضحكًا؟».

ألقَتْ برأسها للوراء وضحكت. ضحكتْ بعينيها، ثم قالت:

«لا، لن أجيء اليوم، فأنا مرهقة قليلًا كما ترى، سأعود إلى المنزل قريبًا. لا، من فضلك لا تجزع هكذا، موعدنا غدًا. في الساعة التاسعة؟ لا، لا بل قبل ذلك، قبل ذلك بكثير، حالما يهبط الظلام ستجدني أمامك. سيُطرق الباب وستكون بيبيشي على عتبة دارك، كل ما عليك هو التأكّد من أنك ستكون بمفردك، غدًا الأحد. ألا تعلم أن غدًا الأحد؟ بحقِّك قل لي في أي عالمٍ تعيش؟ وجهك يقول إن الأمور على ما يُرام، لكن الأمور لا تكون عادةً على ما يُرام إلا في أحلامنا أو عندما نجهل في أي يوم نحن».

كنت قد عدت إلى القصر مرة أخرى في وقت متأخر من تلك الليلة. دخلتُ الصالة الملحقة بحديقة القصر، فوجدتُ التدفئة أزيد من اللازم وضربتني سحبُ دخان التبغ الكثيفة ورائحة البيرة وملمس الأطباق الباردة ورائحة عرق الكثير من البشر. من بقعةٍ ما في الصالة تناهى إلى سمعي عزف خافت لآلة أكورديون، وتحلَّق الفلاحون حول أقداح البيرة وقد انخرطوا في مناقشات بصوت أعلى قليلًا من المعتاد، وبين الحين والآخر تُلْقَى على الطاولة نُكتة هنا أو هناك لا أفهمها، بينما أخذ النساء يلححن على مغادرة المكان. دخل الخيَّاط صاحب النُزل في صحبة رجلٍ آخر قَـدَّمه لي على أنه صِهره، وأصرَّ على تناول البيرة نَخْب الحفل.

لم أرَ البارون. لم أرَ سوى الأمير براكاستين، وكان هو مَن يعزف على الأكورديون، رأيته جالسًا فوق برميل بيرة فارغ يغنى للفلاحات اللواتي أخذنَ يحدقْنَ إليه بدهشة وملامحهن تنمُّ عن عدم فهم غنائه، بينما استغرق الرجل في غناء أنشودة عن الفرسان السُّود الذين يخوضون المعركة. كان الوحيد الذي أفرط في الشراب.

21

في اليوم التالي لبثتُ منتظرًا في بيتي. وعندما بدأ الظلام يعمُّ أرجاء الغرفة وضعت الكتاب الذي كنت أقرؤه جانبًا. لم أشعر بنفاد الصبر، كنت واثقًا من مجيء بيبيشي. استمتعتُ بسعادة الانتظار وبالحماسة الهادئة المتَّقدة بداخلي مثلما يستمتع المرء بأكل فاكهة حلوة أو بشرب نبيذ معتَّق باهظ الثمن.

مَـــرَّ الوقت.

«دعه يمُرّ»، قلت لنفسي. ففي لحظة ما عندما يحلُّ الظلام سيُطرق على الباب وستظهر بيبيشي.

ولكن: متى يحلُّ الظلام؟ تساءلتُ. كان بمقدوري التمييز بين الكرسي والطاولة والمرايا والخزانة، بل حتى رؤية شخوص مسرحيات شكسبير المرسومة على الحفر الضوئي المعلّق على الحائط: الملك، مهرّج البلاط، المرأة الضارعة طلبًا لحماية الملك، سفير دولة أجنبية ووفد بلاده. لم يكن الظلام قد خيَّم بعد، حدَّقت في الصورة لهنيهة، بهتَتْ ملامح الشخوص اللهم إلا صورة الملك ومهرّج البلاط، اللذين سرعان ما بهتت ملامحهما أيضًا، بينما احتفظَ الإطار المُذهَّب بمظهره بوضوح من أعلى حائط ومن سطح الصورة بعيدًا، لم يكن الظلام قد خيَّم تمامًا بعد.

لم أنظر إلى الساعة. لم أُعر انتباهًا إلى الوقت، ربما تكون الساعة الآن السادسة أو ربما حتى السابعة، لا.. لا يمكن أن تكون الساعة السابعة.

فقد اعتادتْ زوجة صاحب النُزل جلب وجبة العشاء يوميًّا بين السادسة والنصف والسابعة. لم أكن جائعًا. استلقيتُ على الأريكة ودخّنتُ، كان الظلام حالكًا حتى أنني لم أعد قادرًا على رؤية دخان السيجارة.

هتفت بصوتٍ عال: «لقد هبط الظلام يا بيبيشي.. هبط منذ وقت طويل، ولن يراك أحدٌ لو جئتِ عندي الآن. يتحتَّم عليكِ أن تأتي الآن، يتحتَّم ذلك.. هل تسمعينني؟».

صررتُ على أسناني وحبست أنفاسي، محاولًا حشد تركيزي على فكرة مجيء بيبيشي في هذه اللحظة، أمرتُ بيبيشي في أعماقي بأن تأتي الآن. أغمضتُ عيني وتخيلتُ أني أراها خارجة من دار الكاهن، منصاعة لإرادتي، قاطعةً شارع القرية المغمور بالثلوج وهي تخطو خطوات صغيرة قلِقَة. أردت أن أسمع وقع خطواتها الخفيفة وهو تصعد الدَّرج الخشبي. وبينما كنت مستلقيًا، مرهفًا السمع، ومنتظرًا خطواتها التي لن تأتي، دقَّت ساعة الكنيسة. لا يمكن أن تكون السابعة، وإلا لكان العشاء في غرفتي. أم هل تأخرت زوجة صاحب النُزل للمرة الأولى؟ لم أحصِ دقَّات الساعة، لكني نهضتُ في النهاية وأشعلت المصباح ونظرت إلى الساعة.

مَلَكني الذهول، كانت عقارب الساعة تشير إلى الثامنة مساءًا. عجيب أني لم أفكر إلا في زوجة صاحب النُزل، صُعِقتُ لمشاعر الخوف على زوجة الخيّاط، لا بيبيشي! ماذا يكون قد وقع لها؟ تساءلتُ في نفسي: لماذا لم تأتِ بالعشاء؟ قلت لنفسي: لا يهم، ما الذي يعنيني بشأن زوجة الخيَّاط؟ بيبيشي! أين بيبيشي؟ لماذا لم تأتِ إلى الآن؟ ماذا حدث لها؟

في هذه اللحظة داهمني خوف، خوف حقيقي. لقد تناولَتْ بيبيشي العقّار. ومن يدري أيَّة آثار جانبية يمكن أن يسفر فيها؟ لم يـجـرِّب أحد ذلك العقّار المهلوس من قبل، صحيح أنه جُرّب على أحد الأشخاص

من قبل، لكني أحبطتُ المحاولة. الذنب ذنبي، ولو وقع لها مكروه فلا ألومنَّ إلا نفسي. وربما تكون مريضة، تعاني من مشكلة في القلب، وربما تنادي طلبًا للمساعدة ولا أحد يسمعها، إنها تحتاجُ إليَّ، لكني لستُ إلى جوارها.

في لمح البصر وصلتُ إلى الشارع. حينها قابلني سائق الدراجة البخارية. كانت صورة هذا الشخص الذي كان يقطع شارع القرية بدراجته وعلى ظهره أرنبان برِّيان، ثم يقفز من فوق دراجته أمام النُزل، هي أول ما خطر ببالي بعد أن استيقظت. لقد حاولتُ تفادي الاصطدام بسائق الدراجة النارية ولذلك سقطتُ على الأرض.

من أين أتى بالأرنبين؟ كنتُ أسأل نفسي بينما أحاول النهوض. ليس الآن موسم تكاثر الأرانب البَرِّيَّة. في تلك اللحظة تنبهتُ إلى أنني ممسكٌ بساعة الجيب في يدي، وقد كُسرت الواجهة الكريستال عندما وقعتُ على الأرض. دسستُها في جيبي وواصلتُ المشي. كان الباب المؤدي إلى قاعة المختبر مفتوحًا، فدخلت. كانت الغرف مظلمة باردة، بل شديدة البرودة. أشعلت المصباح، لكن بيبيشي لم تكن بالداخل.

تنفستُ الصعداء. لم تكن بيبيشي مريضة، لقد غادَرتْ للتوّ. لمع بداخلي بصيص من أمل خافت. ربما تكون الآن في غرفتي، من المحتمل أنها قد وصلت بيتي بعد أن غادرتُ مباشرة، بالأمس بقِيَتْ تنتظرني في غرفتي في حين كنت أواصل البحث عنها في كل مكان.

وفي لمح البصر عدت إلى النُزل وصعدت درجات السُلم ببطء وقلبي يخفق بين ضلوعي، تمهّلت وأنا أفتح الباب بهدوء، كنت أريد مفاجأة بيبيشي. لكنها لم تكن بالداخل، كانت الغرفة على حالها مثلما تركتُها باستثناء شعلة المدفأة التي انطفأت.

في هذه اللحظة تملّكني حزن قوي، وفقدتُ الأمل في فرصة قدومِها. لا بد أن شيئًا ما قد حال دون الحفاظ على وعدها الذي قطعته أمامي؟ ولكن ماذا؟ ما الذي يمكن أن يكون قد جرى؟ في تلك اللحظة وبينما كنت واقفًا أمام النار المطفأة، مرتعدًا من البرد، ومملوءًا بالأفكار القاتمة خطرت فجأة فكرة؛ بيبيشي في الكنيسة. لا بد أنها في الكنيسة الآن، كيف لم تخطر ببالي تلك الفكرة في الحال؟

العقّار المُهلوس. لقد استعادت بيبيشي إيمانها المفقود مجددًا، وها هي تصلي لله للمرة الأولى منذ سنوات طويلة، جاثيةً فوق الحوافِّ الحجرية الباردة وسط جموع الفلاحين المنتشين من أثر العقّار المهلوس، أو الرجال الفزِعين من عذاب الجحيم، بينما يهدر عزف الأرغون وسط الكنيسة، ويوزِّع الكاهن بركاته، والجميع يشدو بترنيمة آفا ماريا (العذراء)[1]، لتتَّحد روحها مع الذات الإلهية.

لأذهب إلى الكنيسة إذن. ولشدَّ ما أدهشني أن أرى الشارع فارغًا. لم أقابل شخصًا واحدًا في طريقي، كان الظلام الحالك يطوِّق الكنيسة والسكون يلفُّ المكان، ولم يكن من الممكن سماع أي صوت. فتحتُ بوابة الكنيسة الثقيلة ودخلت.كانت الكنيسة فارغة. اعترتني دهشة هائلة، لأني لم أرَ الكنيسة مهجورة هكذا من قبل. لكني قلت لنفسي إن قُدَّاس المساء قد انتهى، كانت الثامنة والنصف. لكن أين كانت بيبيشي؟ لم تكن في المنزل ولا في الكنيسة.

«أين تُراها قد ذهبت؟».

---

(1) موسيقى «آفا ماريا» عبارة عن صلاة كاثوليكية قديمة معترف بها في جميع أنحاء العالم المسيحي، واعتمادًا على هذه الصلاة كتب العديد من المؤلفين الموسيقيين أعمالًا موسيقية رائعة على مرِّ القرون، أشهرهم النمساوي شوبيرت. (المترجم).

في القصر. هكذا قلتُ في نفسي، في رفقة البارون فون مالشين. من المؤكد أنه كان متعكِّر المزاج وهي الآن تحاول تلطيف الأجواء وربما لم تأتِ لهذا السبب. هبّتْ عاصفة ثلجية وسفحَتْ وجهي ريح جليدية عنيفة، فرفعتُ ياقة معطفي بينما أحثُّ الخطى بصعوبة وسط الثلوج والرياح.

انقضى أسبوع على ذلك الحين. وفي يوم الأحد، الموافق الرابع والعشرين من شهر فبراير، وفي حوالي التاسعة مساءً قصدتُ قصر البارون فون مالشين للمرة الأخيرة. في الطريق لم ألتقِ إلا شخصًا واحدًا فقط تعرَّفت على ملامحه، كان الرجل نفسه الذي يشكو من آلام الأعصاب. مرَّ أمامي لكني استوقفتُه سائلًا:

«إلى أين؟ هل أنتَ قادم للعيادة؟».

لكنه هزَّ رأسه صارخًا في وجهي: «أنا ذاهب لسماع الموعظة».

«الموعظة!»، سألته، «وأين ستُلقى موعِظة اليوم؟».

«ستُلقى مواعظ كثيرة اليوم في كل ركن من أركان القرية. ستُلقى المواعظ على أسماع الفقراء، عند الخبّاز، والحدّاد وفي نُزُل «تسوم هيرشين»، أنا ذاهب إلى هناك».

قلتُ: «لتذهب إذن، ولكن خذ حذرك كيلا تُصاب بنزلة برد، واستمتع بمذاق البيرة هناك».

أجاب: «سأذهب». وواصل طريقه عبر الثلوج.

قابلتُ البارون فون مالشين في قاعة القصر، أما بيبيشي فلم تكن معه.

22

كان البارون فو مالشين جالسًا بمفرده في القاعة. فقد جاء اليوم الذي طالما تاق إليه. كان شاخصًا ببصره بهدوء من دون أن تبدو عليه أيّة ذرة من حماسة. على الطاولة المقابلة استقرَّت زجاجة ويسكي نصف مملوءة بينما كان يحمل السيجار في يده وقد ارتفعت سحب الدخان الأزرق إلى السقف. سأل عن الأمير براكاساتين الذي لم يره طوال اليوم. لم أتمكن من إفادته، فقد كان ذهني كله مشغولًا بالتفكير في بيبيشي. فهي أيضًا لم تكن هنا. أين ذهبت؟ لم أجرؤ على سؤال البارون عنها. أشار إلى كرسي بإيماءة قصيرة شبه آمِرةٍ، أردت الذهاب والجلوس لكني لم أقدر. عندما وقفت قبالته شعرت بهيبة اللحظة الراهنة، وكان عليَّ البقاء.

شرع في الكلام. للمرة الثانية يكشف النقاب أمامي عن ملامح الصَرْح القوطي المهيب الذي شيَّد عليه خُططه وآماله، بقيتُ مصغيًا إليه، مُبتهِجًا ومتأثرًا بجرأة تفكيره. كانت زجاجة الويسكي قد نفدت، بينما تزايدت حلقات دخان السيجار وصارت أثخن وأثقل. كان البارون يواصل كلامه عن الإمبراطور ابن الدم القيصري النبيل وعن الإمبراطورية الجديدة الذي يتحتَّم ظهورها إلى الوجود رغمًا عن أنف ما يراه الناس وما يطمحون إليه.

سألتُه وقد خامرتني مشاعر ريبة غامضة أثارتْ الرجفة في نفسي:

«وفيدريكو؟ هل يعرف فيمَ استُدعي إلى هنا؟ وهل يستشعر في نفسه القدرة على الاضطلاع بالمهمة؟ هل سيكون كفؤًا لها؟».

أشرقت عينا البارون ببريق وقال: «علَّمتُه ما علَّمه فريدريش الثاني لابنه مانفريد، لقَّنتُه دروسًا حول طبيعة العالم، عن صيرورة الأجسام ونشأة الأرواح، عن فناء المادة وديمومة الأشياء الأبدية، علَّمته أن يعيش وسط الناس، ولكن فوقهم في آن واحد، لكن سرَّ البركة كامن في الدم الملكي، تُمنح المعرفة لأولئك الذين ينحدرون من الدماء الملكية الأصلية، تلك المعرفة التي لا نستطيع نحن عامة البشر إلا حَدْسها أو تعلّمها بمشقة. إنه فريدريش الثالث الذي تكهّنتْ بقدومه العرَّافة، الرَّجُل الذي سيغيِّر الزمن وسيبدِّل القوانين».

سألته: «وأنت؟ ماذا سيكون دورك عندما يتغيَّر الزمن؟».

ارتسمتْ ابتسامة مُبتهجة على شفتيه.

قال: «سأكون إلى جواره مثلما كان بطرس إلى جوار المسيح، صيَّاد متواضع، ولكن دائمًا إلى جواره».

نهض وأرهفَ السمع سائلًا: «هل تسمع رنين الأجراس هل تسمعها الآن؟ يحتشد الفلاحون الآن في الكنيسة من أجل السير في الموكب، سيضلون الآن وهم يرتِّلون ويغنون ترانيمهم القديمة كما كانوا يفعلون أيام جَدِّي».

سمعت صوت الأجراس، لكن الكنيسة كانت فارغة، لا تضمُّ مخلوقًا. وكانت كل قرعة جرس تهوى على قلبي مثل المطرقة. شعرتُ بالخوف الذي كان يتزايد مع كل رنين لجرس من أجراس الكنيسة، وكان قرع الأجراس هادرًا حتى أني لم أقوَ على احتماله، وشعرتُ كما لو أن قرع الأجراس سيفجِّر قلبي.

هبَّت عاصفة من الرياح الباردة لتجتاح الغرفة، نظر البارون عبر جسدي إلى الباب وسأل مدهوشًا:

«أهذا أنتَ، ما تريد مني؟ لم أكن أتوقّع مجيئك في هذه الساعة».

التفتُّ، فرأيتُ المدرِّس يقف عند مدخل القاعة.

«أما زلتَ هنا سيدي البارون، لقد ركضتُ إلى هنا بأقصى سرعة، لماذا لم تَلُذْ بالفرار؟ ألا تعرف ما الذي يدور بالخارج؟».

قال البارون: «أعلم ما يجري، الأجراس تُقرَع، والفلاحون قادمون في موكب عظيم ينشدون تراتيل السيدة العذراء».

صاح المدرِّس: «أغاني السيدة العذراء؟ والأجراس تدقُّ؟ صحيح أن الأجراس تدق، لكنها تدقّ ناقوس الكارثة، وصحيح أن الفلاحين يغنُّون، لكنهم لا يغنُّون تراتيل السيدة العذراء، بل يغنُّون نشيد الأممية[1]. يريدون هدم السقف فوق رأس سعادتك يا سيدي البارون».

نظر إليه البارون ولم ينبس بكلمة. هتف المدرِّس: «ماذا تنتظر حضرة البارون؟ مستأجرو الأراضي قادمون يحملون المناجل ومقاصل الإعدام. صحيح أننا لم نكن يومًا صديقين، لكن حياتك الآن في خطر، نعم، حياتك على المحكّ. أما تزال جالسًا مكانك، لماذا لا تأخذ سيارتكَ من المرأب وتهرب؟».

سمعنا صوت الكاهن يقول: «لقد فات الأوان، لقد حاصروا المنزل. لن يسمحوا له بالخروج».

---

(1) كُتب نشيد الأممية تخليدًا لذكرى كومونة باريس الاشتراكية، واستخدمت الترجمة الروسية كنشيد وطني للاتحاد السوفيتي ما بين سنتي 1917 و1944، وقد تُرجم النشيد إلى أكثر من مائة لغة تعبيرًا عن ربط قوميات وثقافات وأديان مختلفة تحت راية واحدة. (المترجم).

متكئًا على ذراع فيديريكو نزل الكاهن من السُّلم الحلزوني. كان رداؤه الكهنوت ممزَّقًا، والمنديل الكبير ذو المربَّعات الزرقاء الذي كان يضعه على خده ملطخًا بالدماء. تناهى إلى سمعنا صوت صرخات، صوت صياح هادر قادمٍ من ناحية حديقة القصر والشارع. أغلق المدرِّس البابَ.

قال الكاهن: «هاجَموننني وأوسعوني ضربًا، شاركت النساء في ذلك أيضًا، قاموا بسحلي بعيدًا وحبسوني في حظيرة، لكنهم بعد هنيهة قصيرة نسوا أمري فتمكنت من الهرب».

«أين بيبيشي؟»

صرختُ لمَّا تذكرتها، «يجب الذهاب إليها، إنها بمفردها مع الفلاحين الغاضبين».

صرختُ في وجه المدرِّس: «دعني أخرج، يجب أن أنْجِدهـا»، لكنه تجاهل كلامي.

قال البارون: «لو كان لدي الوقت لأطلقتُ سراح الكلاب».

اقتربَ منه فيديريكو صامتًا، رأيته حاملًا سيف «الرسّوب» العربي الهائل، ربما كان قد انتزع هذا السيف عديم القيمة من فوق الجدار في الغرفة بالطابق العلوي.

صاح الكاهن: «أناشدك يا حضرة البارون، لا تطلق النار، أصغِ إلى الناس، حاولْ التفاوض معهم، رجال الشرطة في طريقهم إلى هنا».

أمسكتُ بذراع المدرِّس: «أريد الخروج. هل تسمعني؟ أعطني المفتاح».

إلا أنه تملَّص مني، فحاولتُ هزَّ الباب من دون طائل.

«رجال الشرطة؟ من الذي أمرَ باستدعائهم؟» قال البارون.

قال الكاهن: «أنا، تواصلتُ مع إدارة مدينة أوزنابروك اليوم ثلاث مرات، قرب الظهيرة وعند المساء».

ردّ البارون: «معنى هذا أنك كنتَ تعرف بالأمر قبل منتصف النهار؟

«لا، لم أكن أعرف شيئًا، لكني راودني هاجس ما، كنتُ أشعر بالخوف، طالما نبهّتكَ: كنتَ تعتقد أنك تستدعي الله، في حين أنك تستدعي الإله مولوخ، وها قد جاء مولوخ، هل تسمع صوتَه؟».

من الخارج سُمع صوت الطَّرق بالقبضات والهراوات والفؤوس. سحبَ البارون مسدسه من فوق الطاولة، ثم التفتَ إلى فيديريكو قائلًا: «اذهب الآن إلى غرفتك».

قال فيديريكو: «لا».

جَفَلَ البارون من كلمة «لا» كمن أصابته ضربة سوط.

كرَّر البارون: «اصعد إلى الطابق العلوي والزم غرفتك».

قال فيديريكو: «لا».

صرخ البارون فون مالشين: «فيديريكو! هل نسيتَ ما علَّمتك إياه؟ مكتوب في شريعة الإمبراطورية المقدسة: وحين يعصي الابن والدَه سيُهان إلى الأبد وسيفقد شَرَفه إلى الأبد».

قال فيديريكو: «أنا باقٍ».

كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أرى فيها الصبي. أتذكَّر صورته على النحو التالي: كان واقفًا ويداه معقودتان فوق صدره مستندتان إلى السيف الضخم، كان يقف بلا ذرَّة خوف، ثابت الجَنان مثله كمثل نُصب حجري لسلفِه العظيم».

من الخارج جاء صوت: «افتح»، ارتعدتُ خوفًا لأنه كان صوت بيبيشي.

«افتح وإلا سنكسر الباب».

أعتقدُ أن البارون نفسه هو من فتح الباب. وفي اللحظة نفسها اقتحم الصالة حشدٌ هائل من الفلاحين، مدجَّجين بالفؤوس، وأدوات الحرث، والسكاكين، والعصي. كانت تتقدَّمهم بيبيشي وعيناها طافحتان بكراهية قوية وملامح وجهها باردة جامدة، ومن ورائها وقف الأمير براكاساتين، آخر أفراد عائلة روريك، هاتفًا بكلمات النشيد الأممي الروسي، وملوِّحًا بعلَمٍ أحمر.

صاح البارون في الفلاحين: «توقَّفوا، وإلا أطلقتُ النار. ماذا تريدون؟ وكيف تجرؤون على اقتحام خلوتي؟».

«نحن مجلس قرية مورفيدي الثوري للعمال والفلاحين، لقد جئنا لنأخذ حقنا».

صاح بهذه الجملة صاحب النُزل، الخيَّاط.

صرخ البارون في وجهه: «أنتم حفنة رعاع، متمردون، قطَّاع طرق في حالة سُكْرٍ بَيِّن».

صاح الأمير براكاساتين: «استيقظوا أيها الملعونون في هذه الأرض! واندفع البقَّال في طريقه إلى الباب ونادى على الفلاحين الذين كانوا يقفون في الخارج:

«لقد وقع في قبضتنا، ها هو ذا».

صاح الأمير براكاساتين: «حرب على أصحاب القصور، عاش تحرير الطبقة الكادحة، الموت لأصحاب الأرض وأعوانهم».

«علِّقوه مشنوقًا.. علِّقوه، لدينا ما يكفي من الأشجار هنا، وما يكفي من أعمدة التليغراف».

هتفتْ الأصوات من الخارج.

نادى الكاهن: «أيها الناس.. بحق الله.. تحلَّوا بالعقل».

«اقطعوا رأس الكاهن»، صاح أحد الأصوات وبَرَز من بين رؤوس الفلاحين، وجه غاضب لامرأة تحمل سكِّينًا وتلوِّح به في وجه الكاهن.

«تراجعوا! » أمر البارون فون مالشين بحِدَّة وجرأة.

وساد الصمت للحظة.

«خطوة أخرى وسأطلق الرصاص. إذا كان لديكم ما تخبرونني به فليتقدَّم واحد منكم فقط خطوة إلى الأمام».

قالت بيبيشي: «أنا سأتحدث».

انحنى البارون فون مالشين إلى الأمام ونظر إليها في وجهها صارخًا: «أنتِ يا كاليستو؟ هل تتحدثين نيابة عن هؤلاء الرعاع؟».

قالت بيبيشي: «أتحدث نيابة عن المزارعين والعمال في مورفيدي، أتحدث باسم جميع العمال الذين يعانون هنا كما يعانون في كل مكان، أتحدثُ باسم جميع المستغَلِّين والمضطهَدين في العالم».

دنا البارون فون مالشين خطوة نحوها.

سأل البارون بهدوء شديد: «لقد خدعتِني، أليس كذلك؟ ويومًا وراء يوم كنتِ تخدعينني، كان هذا هو عملك. بماذا سمَّمتِ عقول الناس هنا؟ اعترفي!».

قبضَ البارون على معصمها، لكنها أفلتته.

نادت الفلاحين: «انظروا إليه.. هذه هي الآفة الطفيلية التي تفترسكم، هذا هو الرجل الذي سيسلبكم آخر بقرة في الحظيرة لو لم تتمكنوا من دفع إيجار حقل البطاطس، كل يوم تجوعون فيه من تحت رأسه، وكل يوم تعانون فيه ضنك العيش تزداد ثروته، ها أنتم أولاء أمامه وجهًا لوجه، يمكنكم تسوية حساباتكم معه».

قال البارون: «كفى، بل عليَّ أولًا تسوية حسابي معكِ أنتِ أولًا، لقد غششتني وأحبطتِ عمل حياتي. لماذا فعلتِ ذلك؟ من دفع لك مقابل هذا؟».

لا أعرف ما إذا كان بإمكاني وصف ما حدث بعد ذلك وصفًا دقيقًا، فربما يكون ترتيب الأحداث مختلفًا قليلًا عما جرى، رأيت شيئًا ثقيلًا، ربما فأسًا أو مطرقة هَوَتْ على رأس البارون، الذي رفع مسدسه وأطلق الرصاص، فأصابتني الطَلقة، بينما أرتمي على بيبيشي لأحميها. في البداية لم أشعر بأني مصاب. اندفع الفلاحون إلى الأمام واختفى البارون.

«ارجعوا!».

سمعتُ صوت فيديريكو، بينما صرخ الكاهن: «أيها الناس.. أيها الناس.. هذه جريمة قتل.. الشرطة في الطريق».

ركض الأمير براكاساتين أمامي ورأسه مضرج بالدماء. ترنَّحَ صاحب النُّزُل من أثر ضربة سيف عاجله بها فيدريكو ليسقط الرجل فوق الأرض. كان الحدَّاد قد أمسك بأحد الكراسي الثقيلة ذات الذراعين لرميها على فيديريكو، فسحبتُ زجاجة الويسكي وضربته على ذراعه حتى صرخ وأُسقطَ الكرسي من يده. شعرتُ فجأة بألم حادٍّ يغزو كتفي. بدأتُ الغرفة تهتز وتدور. رأيت مِنجلًا يحوم فوق رأسي، وارتفع في الهواء ليهبط على جسدي.

صاح الكاهن: «الشرطة.. الشرطة».

وسمعت صوت أبواق الشرطة، بينما كان المِنجل ما يزال معلَّقًا فوق رأسي.

بعدها فقدتُ الوعي.

23

كنتُ مستلقيًا في سريري، متدثرًا بغطاء ثقيل. فتحَتْ الممرضة النافذة لبضع دقائق، فهبَّ هواء الشتاء البارد المنعش وشعرتُ بتحسُّن حتى أنني لم أعد أشعر بألم وبِتُّ قادرًا على تحريك ذراعي. الشيء الوحيد الذي كان يزعجني هو أنني لم أحلق ذقني، تلمَّسْتُ وجهي فشعرت بخشونة لا تطاق. أردت مغادرة السرير والتجوُّل قليلًا في الغرفة لكن الممرضة منعتني وقالت إن عليها أن تسأل الطبيب أولًا.

كم أكره هذه المرأة! كانت تجلس إلى جوار النافذة ترتشف قهوتها بصوت عال، بينما لفَّة الكروشيه تنتظر أمامها فوق إفريز النافذة. أخذتْ ترمقني بنظرات طويلة من وراء فنجان القهوة الذي ترفعه إلى فمها من حين إلى آخر، وتعبير وجهها ينمُّ عن شيء من التأفُّف، أغلب الظن لأنها كانت تريدني أن استقلي بهدوء أو حتى أن أغفو، لكنني لم أكن قادرًا على النوم، ولم أشعر بأي تعب رغم أنني بقيتُ مستيقظًا أغلب ساعات الليل.

رقدتُ على ظهري مستيقظًا والأفكار تنهب رأسي. رأيتُ القصر ورأيت شجيرات الكروم البرِّية تتسلق الجدران، البئر ومقصورة حديقة القصر وبرج الكنيسة المربَّع ومنازل القرية التي طالما تجوّلت بينها وسط الضباب يومًا وراء يوم، صباحًا ومساءًا، ومثل من يفكِّر في فردوسه المفقود أخذتُ أفكِّر في حجرتي البائسة التي شهدتْ حُبِّي لبيبيشي. كيف تبدَّلتْ أحوالها تلك الليلة الموعودة؟ وأي جنون أصابها؟ وأهالي

مورفيدي؟ ما الذي دفعهم للهجوم على ذلك الحالِم، البارون فون مالشين. مثل قطيع كلاب مسعورة.

لم أعثر على إجابة عن هذه الأسئلة، فتخلَّيتُ عن إرهاق ذهني بالبحث والتفكير. شعرت وكأن حجرًا ثقيلًا يجثُم على صدري ولا أستطيع إزاحته. لم أنَم إلا مع تباشير الصباح الأولى. دخل كبير الأطباء في صحبة مساعديه الاثنين، في هذه المرة لم يُغيِّر ضمادة الجروح. سألني كبير الأطباء:

«ها.. كيف حالك اليوم؟ هل نمتَ جيدًا؟ هل تعاني آلامًا؟ وماذا عن شهيتكَ للطعام؟ معتدلة؟ لا بأس.. ستتحسن مع مرور الوقت. ألزِمْ نفسكَ بتناول كميات قليلة من الطعام.. ماذا أردتُ أن أسألكَ؟ نعم.. ما حكاية المِنجل؟ لقد وعدتني أن تخبرني بالمزيد؟».

قلت: «أنت لا تصدقني.. أنت لا تريد أن تصدقني».

داعب الرجل لِحيته الصغيرة وقال: «هذا ظلم، أنا أصدِّق كل ما يقوله مرضاي من حيث المبدأ، مرضاي دائمًا على حق».

لم يعاود طَرق الموضوع، وأعطى الممرضة بعض التعليمات حول نظامي الغذائي، ثم همَّ بمغادرة الغرفة فاستوقفتُه وطلبت منه إرسال شفرة حلاقة إليَّ.

قال الدكتور فريبه، مدوِّنًا ملاحظة على دفتر ملاحظاته: «سأرتِّب ذلك».

ابتسم كبير الأطباء وقال: «ها أنت قد عدتَ إلى العالم مرة أخرى. سيبدأ الغرور وستبدأ في الاعتناء بمظهرك الخارجي، هذه علامة جيدة».

غادر الغرفة وبعد خمس دقائق دخل الأمير براكاساتين إلى غرفتي مرتديًا سُترة مخطَّطة باللونين الأزرق والأبيض وفرشاة وأدوات حلاقة في يده. دخل عابسَ الوجه كما لو كان يؤدي مهمَّة كريهة. وكان يتجول في أرجاء غرفتي في أوقات كثيرة هنا وهناك، وكأنما يريد أن يتأكَّد أني لم أتعرَّف عليه. وحتى هذه اللحظة كان يتحاشى الاقتراب مني، وكان يرمقني بنظرات سريعة عابرة عندما يتيقَّن أني لا ألاحظُه، أم هل أسأتُ تفسير سلوكه؟ وأن الأمر لم يكن خوفًا أو شكًّا؟ ربما كان يبحث عن فرصة مواتية ليتحدَّث إليَّ سرًّا؟ ومن ثم لو كان لديه ما يقوله لي فلا أسنح من هذه الفرصة.

انحنى فوقي ووضع الرَّغوة فوق ذقني وشرع في الحلاقة، لشدّ ما أدهشني أن طريقته في الحلاقة لم تكن تخلو من مهارة. فكَّرتُ أنه لا بد وأن اكتسب هذه المهارة هنا في المستشفى. في القرية اعتاد الجلوس قبل العشاء أمام خادمه ليحلق له ذقنه. عندما أنهى الحلاقة أمسك بمرآة يدٍ صغيرة ووضعها أمام عيني. لم ينطق بكلمة، لكنني أردتُ الحديث إليه، أردت إنهاء المسرحية، لم أرد له السماح بالانصراف قبل أن يعطيني جوابًا شافيًا عن أسئلتي. أن أعرف مكان بيبيشي، وماذا حدث للبارون فون مالشين وفيدريكو؟ كان يعرف ذلك ولا بد له أن يخبرني.

سألته بهدوء: «من أتى بك إلى هنا؟».

لكنه تصرَّف وكأنني لم أخاطبه بكلمة. سألته «لِمَ جئتَ إلى هنا؟».

هزَّ كتفيه، ثم قال بصوته الناعم الغنائي: «لأنكَ أردتَ أن تحلق ذقنك فأرسلني الطبيب إليك».

نفد صبري عند تلك اللحظة فصحتُ بنبرة حازمة لكنها مكتومة كيلا تسمعني الممرضة:

«هل تتخيَّل أني لم أتعرَّف عليك؟».

انتابه القلق وبدأ تجنُّب نظراتي إليه وقال متجهِّمًا: «هل تعرفني؟ أنا شخصيًا لا أعرفكَ، لقد حلقتُ ذقنك، هل تحتاج إلى خدمة أخرى؟ لديّ مرضى آخرون ينتظرون دورهم».

قلت بهدوء شديد: «أركادي فيودوروفيتش.. المرة الأخيرة التي رأيتكَ فيها كنت تحمل العلم الأحمر وتغنِّي النشيد الأممي».

سأل: «ماذا كنتُ أحمل؟».

«علمًا أحمر».

تلبَّسه الذُّعر واحمرَّ وجهه في البداية ثم صار لونه شديد الشحوب، بعدها صاح بصوت عالٍ: «لا يعني أحدًا ما الذي أفعله في أوقات فراغي».

رفعتْ الممرضة رأسها وبدأت تصخي السَّمع.

«أنا أؤدي عملي هنا مثل أي شخص آخر».

حدَّقَ في وجهي بغضب بالغ، ثم جمع أدواته وبينما كان يتهيأ للانصراف استدار وصرخ:

«وأيًا ما كان الأمر فليس هذا من شأن أحد».

ثم غادر وأغلق الباب خلفه. بعد هنيهة من الوقت دخل الدكتور فريبه إلى غرفتي، وجلس على حافَّة سريري وبدأ في الدردشة، لكنه قال بغتة:

«قلْ لي: هل تشاجرتَ مع معاون التمريض قبل قليل، كان الرجل يشتعل غضبًا، جاء إليَّ وشكا منك، قال إنك اتهمته باعتناق ميول سياسية معيَّنة، نحن نعلم جيدًا أنه كان يحمل الراية الحمراء في المسيرات

الشيوعية، وهو عضو عامل في الحزب، صحيح أنه ليس ملاكًا من السماء، إلا أنه يؤدي وظيفته على خير وجه، وهو شخصٌ أبعد ما يكون عن إيذاء الآخرين».

قلت: «لا أظن أنه غير مؤذٍ، لكنه يتظاهر، يلعب دور العبيط هنا، ولا أعرف لأي غرض».

صاح الدكتور فريبه: «صحيح؟ لا.. قل الحقيقة، كيف تعرَّفت عليه؟».

«التقيت به في القرية، حيث كنتُ أعمل طبيبًا في الوحدة المحلية».

«هكذا! ما اسم القرية؟».

«مورفيدي».

كرَّر الطبيب بتمهُّل «مورفيدي»، نعم، هناك قرية في بقعةٍ ما تُسمَّى مورفيدي، في أحد المرَّات جاءنا مريض من هذه القرية، كان عاملًا في مصنع السكر».

قلت: «لا يوجد مصنع سكر في مورفيدي».

«مؤكَّدٌ أن هناك مصنع سكر في قرية مورفيدي، إذن قابلتَ معاون التمريض في مورفيدي.. هذا مثير للاهتمام، وماذا كان يفعل هناك؟».

«كان ناظر العزبة ومفتش الزراعة في القصر».

قال الدكتور فريبه: «بالله عليك فمعرفة صاحبنا بالزراعة لا تقلّ عن معرفتي بصيد حيوات الكَنْغَر، إنه بالكاد يستطيع التمييز بين البقرة والثور، وأنتَ تجعله ناظر عزبة ومفتِّش الزراعة في القصر!».

قلت باستسلام: «أنت لا تصدقني.. لا أرى فائدة من مواصلة الحديث.. هل تذكر الطالبة اليونانية التي كانت تعمل معنا في معهد علوم البكتيريا؟ إلي كاليستو تساناريس؟

«نعم، أذكرها جيدًا».

«لقد قابلتُها مرة ثانية في قرية مورفيدي».

«قابلتَها! إنها متزوِّجة وتعيش هنا في مدينة أوزنابروك. هل أنتَ متأكد من كلامك؟ هل تكلَّمتَ معها في مورفيدي؟».

لم أستطع كتم الضحك، فقلت: «تكلّمتُ معها؟ لقد ضاجعتُها حينما كنَّا في مورفيدي».

إلَّا أني سرعان ما ندمتُ على كلامي وغضبتُ من نفسي بعد أن أفشيت السرَّ بنفسي، وضعت إصبعي وإصبعها تحتَ ضرس ذلك الطبيب».

واصلتُ الكلام: «لكنك ستلزم الصمت طبعًا حيال ما أخبرتكَ به، سأخنقكَ لو نطقتَ بكلمة مع أحد حول الموضوع».

ابتسم وهو يومئ لتهدئتي.

«تمام.. والآن اسمع.. لاتقلق بخصوص كتمان السرِّ، هذا أمر مفروغ منه بين الرجال. تقول إنكَ نِمتَ معها؟».

«نعم، ليلة كاملة.. أم إنكَ ما تزال تكذِّبني؟».

«لا، لا أكذِّبك»، قالها الطبيب بجدِّيَّة بالغة وأضاف: «ولماذا أكذِّبكَ؟ لقد أردتَها عشيقة لك وسعيتَ وراء رغبتك وحقَّقتَ المستحيل، حقَّقتَه في الأحلام يا سيد أمبيرج، في حُمَّى الأحلام بينما كنتَ راقدًا تهذي».

تسلَّلت قشعريرة باردة كالزمهرير ببطء إلى جسدي، وشعرتُ كما لو أن يدًا باردةً تتلمس قلبي لإيقافه. أردت إطلاق صرخة باكية لكني لم أقدر. حدَّقتُ إلى الطبيب الجالس على حافة سريري، وبدا وكأنه ينطق بالحقيقة.

لا، لا، لا. انفجر صوت بداخلي: إنه يكذب، لا تسمع كلامه، إنه يحاول سرقة بيبيشي منكَ، أن يسلبكَ كل شيء، يجب أن يغادر الآن، لا أريد رؤيته مجددًا، ثم حلَّ عليَّ شعور مفاجيء بالتعب والإرهاق، كنت أتنفَّس بالكاد، كنت منهك القوى ثم داخلني شعور عميق بالقنوط، أدركتُ أن الرجل قد نطق بالحقيقة، وأن بيبيشي لم تكن يومًا حبيبتي.

«لا تغضب هكذا يا سيد أمبيرج»، قال د. فريبه مضيفًا: «لا تأخذ الأمور على محمل الجِدِّ هكذا، فالأحلام تجود علينا بسخاءٍ لتعوضنا عما تضنُّ به علينا حياتنا اليومية المقفرة، وحتى ما نُطلق عليه لفظ الحقيقة، قل لي ما الذي يسفر منها؟ وما الذي يبقى منها؟ حتى ما عشناه ورأيناه يُمسي شاحبًا ملفوفًا في غياهب الظل، ويتبدَّد مثلما يتبدَّد الحُلم».

«انصرِف الآن»، قلتها بعد أن أغمضتُ عيني. أردتُ أن أكون بمفردي، كل كلمة ينطق بها كانت تؤلمني.

نهض واقفًا وقال وهو يغادر الحجرة: كنتَ ستكتشف الأمر إن عاجلًا أم آجلًا، لا بأس، ستيغَّير تفكيرك تمامًا بحلول غدٍ».

والآن بعدما انفردتُ بنفسي بدأتُ أفهم ما حدث لي، فطوَّقني اليأس.

«لماذا تستمر في العيش».

انفجرتُ بالصراخ والعويل في أعماق نفسي، لماذا استيقظت من الحُلم؟ لقد استعملوا أبرع الوسائل لإعادتي إلى كآبة الحياة اليومية. قُضي الأمر، فقدت كل شيء وصِرتُ معدَمًا. هل يجب عليَّ مواصلة العيش؟

بيبيشي، مورفيدي، نار أمّ الإله.. كانت كلها أوهام رجل محموم، أضغاث أحلام. بالفعل أضحت الذكريات مشوشة والصور ضبابية والكلمات رماد تذروه الرياح، وتسرَّب الحُلم من بين يدي، وغمرَ النسيان منازل قرية مورفيدي وأهلها كما يغمرها الضباب. أطبق الظلام

على روحي. بيبيشي! أغلقِي عيني ولا تدعيني أستيقظُ مرة أخرى، لا يجب عليَّ مواصلة العيش مجددًا. بيبيشي.

صاحت الممرضة فجأة: «الحمد للربِّ».

«إلى أبد الآبدين.. آمين».

سمعت صوتًا ما وفزعتُ لسماعه لأني كنتُ أعلمُ صاحبه.

فتحتُ عيني فرأيتُ كاهن قرية مورفيدي واقفًا أمام سريري.

24

«هل هذا هو أنتَ؟ كيف ذلك؟ هل هذا هو أنتَ بالفعل أم أنك...».

صحتُ من فرط الذهول بينما أحاول لمس ردائه الكهنوتي. تـنـحـنح الرَّجُل بوقارٍ وفمه مغطّى بمنديله الأزرق، ثم انحنى عليَّ وقال: «يبدو أنكَ مذهول لرؤيتي. ألم تتوقّع قدومي؟ سمعتُ أنكَ استعدتَ وعيك، زيارتي لك واجب تفرضه إنسانيتي، هل أثرتُ الذعر في نفسكَ وبعثتُ في نفسك ذكريات مؤلمة؟».

اعتدلتُ ونظرت إليه، تدفقتْ إلى أنفي الرائحة المنبعثة من ردائه الكهنوتي، هذا العبق الخفيف المازج بين رائحة السُّعوط والبخور، كان هو بالفعل. قلتُ في نفسي: أين دكتور فريبه الآن؟ لماذا اختفى في هذه اللحظة؟

واصل كاهن قرية مورفيدي كلامه: «عِـشـتَ تجربة مريرة، لكن كل شيء انقضى بفضل الله، وستتمكن من مغادرة المستشفى في غضون بضعة أيام، ولكن صدِّقني، كانت لحظةً مفزعة لمَّا رأيتكَ تسقط».

«وأين سقطتُ تحديدًا؟».

«في قاعة القصر، في اللحظة التي وصل فيها رجال الشرطة. هل نسيتَ كل شيء؟».

«أنتَ كاهن قرية مورفيدي، أليس كذلك؟ لقد هبطتَ الدَّرج وأخبرتنا أن المكان محاصر، ثم جاء في إثرك الفلاحون حاملين مناجلهم

وفؤوسهم، وتمزَّق رداؤكَ الكهنوتي. كان هذا حقيقة واقعية، أم أنني كنتُ أحلُم؟».

هزّ الكاهن رأسه وقال: «تحلُم؟ كيف راودتكَ هذه الفكرة؟ للأسف كان كل شيء حقًّا وصدقًا مثلما أقفُ أمامك الآن. هل أخبركَ أحدٌ أنك كنتَ تحلُم؟».

أومأت برأسي قائلًا: «نعم، يحاول الأطباء هنا إقناعي أن سيارة صدمتني أمام محطة قطارات أوزنابروك قبل خمسة أسابيع، وأنني بقيت راقدًا طوال الوقت في هذه الحجرة فاقد الوعي، ولو لم تأتِ في هذه اللحظة يا حضرة الكاهن لـ....».

قاطعني الكاهن قائلًا:«لستُ متفاجئًا، كنتُ أتوقع حدوث ذلك، اعلمْ أن ثمة جهات تحاول التعتيم على ما جرى، فتَبِعات الأمر غير مأمونة العواقب، ما جرى واحدة من الحالات التي تتفق فيها المصالح الشخصية مع المصالح العامة، ثَمَّة رغبة في عدم إبلاغ دوائر القرار العليا باشتعال المشاعر الثورية بين الفلاحين، وأن الأمر لم يزِد عن كونه مجرد أعمال شغب محلية اندلعت بين الفلاحين دون خلفية سياسية، وهي أعمال وُئدتْ في المهد سريعًا ثم عادت الأمور إلى نصابها ورجع الفلاحون إلى حقولهم ومحاريثهم ودُفن الموضوع برُمَّته في طي الكتمان، باستثناء وجود شاهد عِيان واحد يرقد هنا في المستشفى، في مقدوره أن يبلِّغ بالواقعة وأن يبدأ بالثرثرة ثم يتطوَّر الأمر إلى فتح التحقيقات وربما يصل الموضوع إلى رفع دعوى قضائية ضد أشخاص بعينهم. هل فهمتَ الآن لماذا يسعون بشتى الطرق إلى إقناعكَ أن ما رأيته ليس إلا هذيان مريض محموم. هناك شهود يتحدثون، وآخرون يتحتم عليهم الصمت، وأنتَ يا حضرة الطبيب من بين الذين سيصمتون، أم أن لكَ رأيًا آخر؟».

أجبتُ بعد أن انشرح صدري مرة ثانية: «نعم، فهمت الآن كل شيء. يريدون أن يسلبوا جزءًا من حياتي، لكننا، أنا وحضرتك، نعلم تمام العلم أنني لم أكن أحلُم وأنني كنتُ في قرية مورفيدي بالفعل».

أكَّد الكاهن: «كلانا يعلم ذلك».

«وماذا عن البارون فون مالشين.. ألن يتكلَّم؟».

كانت شفتا الكاهن تُتَمْتِمان بصلاة خافتة.

«لا، لن يتكلَّم البارون فون مالشين لأنه مات. في غمرة هذه الاضطرابات أصيبَ بنوبة قلبية، ولا تضنُّ عليه بهذه النهاية البسيطة، وإلا لدقَّ الفلاحون عُنقه بالهروات».

لم أنبس بكلمة، لم أجرؤ على سؤاله، فواصلَ الرجل كلامه:

«انتهى حُلم امبراطورية «هوهينشتاوفين»، لا يوجد إمبراطور سري. ستسأل وماذا عن فيديريكو؟ لقد أعدتُه إلى أبيه في بيرجامو، سيشتغل بالنِّجارة، أما الصغيرة إلزي فقد ألحقتُها بمدرسة داخلية سويسرية، وهي لا تعلم بعد أن والدها قد مات، ربما تتذكِّر حبيبها يومًا ما في وقت لاحق، وربما تدفعه لمغادرة ورشة النِّجارة، وربما تنساه تمامًا».

«وماذا عنها؟ ما الذي جرى لها».

بقي السؤال على طرف لساني طوال الوقت، ويبدو أن الكاهن خمَّن سؤالي فابتسم قائلًا:

«إنها في أمان الآن. ربما لا تعلم أنها متزوجة، لم تكن تحب الحديث حول هذا الأمر، وهي الآن تعيش مع زوجها، عادتْ إليه هنا في مدينة أوزنابروك، كان هو وراء كل الأوامر الصادرة لقمع الموضوع والتَّستر عليه، وهو شخصية مرموقة هنا في المدينة، له صلات نافذة، لا تفكِّر في اعتراض طريقه، ستكون محاربًا وحيدًا في معركة واحد ضدَّ الجميع.

أما أنا؟ لا بحق السماء، لستُ ذا شأن، حينما أغادر هذا المبنى سترى أن أحدًا لم يلحظ وجودي من الأساس، سأكون مجرَّد جزء من حُلمكَ. تَحَلَّ بالحكمة يا حضرة الطبيب، ولو أخبروك هنا أن ما رأيتَه في قرية مورفيدي كان حُلم رجل مريض، فوافقهم على كلامهم، قلْ: نعم و آمين!»، وتذكَّر أن كل شيء إنما جرى لأجل خاطر هذه المرأة، لا تنسَ ذلك، ألم تكن تحبُّها؟».

«ولكن لماذا خانتْ عهد البارون؟ لِمَ أحبطَتْ عمل حياته؟».

قال الكاهن وهو يهزُّ رأسه هزَّة خفيفة: «لم تخن عهد أحد، إنها بريئة تمامًا، لم تنفِّذ إلا ما أمرها به البارون فون مالشين».

«كان الأمر إذن خطأً في حساباته، كيف ضلَّ الطريق؟ هذه النهاية؟!كيف انتهتْ التجربة إلى هذه النتيجة المفزعة؟!».

«حضرة الطبيب، لقد نجحتْ تجربته، لم يخطئ الرجل في شيء، أراد الرجل إعادة الإيمان بالله إلى العالم، لكن أي إيمان؟.. كنيسة المسيح باقية لا تتغيَّر.. تسأل عن الإيمان؟ لكل عصرٍ إيمانه، وإيمان يومنا هذا، كنتُ أعرف ذلك منذ أمدٍ بعيد، إيمان يومنا هو...».

أومأ بيده إيماءة تنمُّ عن العجز والضعف، وكان وجهه يفيض بعلامات الحزن والإرهاق والاستسلام العميق.

«الثورة؟».

سألتُ بصوت خفيض متشكِّك: «هل إيمان اليوم هو الثورة؟».

لكن الكاهن حار جوابًا. أغلقت عيناي وأعدت التفكير. الحُلم بإعادة تنظيم العالم بطرق عنيفة. أليس لهذا الإيمان إنجيله وأساطيره ومعتقداته وكهنته وأحزابه وشهداؤه وجنَّته كأنه نوع آخر من الإيمان؟ ألن يصير هذا المعتقد الجديد عُرضة للاضطهاد والتنكيل على يد الحُكَّام؟ ألا

تعيش هذه التعاليم سرًّا في قلوب كثير ممن ينكرونها بشفاههم؟ ألا تُهرَق أنهار الدماء في جميع أرجاء الأرض انتصارًا لهذا الإيمان وهذه التعاليم؟ هل هذا هو إنجيل يومنا أم إنه الإله مولوخ الذي يعبدون؟

صرختُ: «حضرة الكاهن.. ساعدني.. ما إيمان أيامنا هذه؟».

لكن الكاهن لزم الصمت، فتحتُ عيني واعتدلتُ ثانية في السرير. لكن الكاهن كان قد اختفى، لم يخِّلف وراءه سوى بقايا العبقَ الخفيف لرائحة السُّعوط والبخور.

قلت:«يا حضرة الممرضة.. من فضلك نادي على الرجل المحترم مرة ثانية».

نظرتْ الممرضة من وراء إبرة الكروشيه وقالت: «أيُّ رجل؟».

«رجل الدين الذي خرج للتو».

«لم يكن أحد بالغرفة».

«لكنني كنتُ أتحدَّث إلى كاهن منذ دقيقة، كان يقف إلى جوار سريري ثم غادر الغرفة. رجل الدين، الكاهن!».

سحبتْ الممرضة الترمومتر وهزَّته ووضعته تحت إبطي وقالت مدهوشة:

«كاهن؟ لم يكن ثَمَّة أحد بالغرفة، لقد كنتَ تتحدث إلى نفسكَ».

حدَّقتُ إليها باندهاش في البداية ثم باستياء. لكني سرعان ما تذكَّرت في النهاية. لقد تنبأ الكاهن بما سيجري، وقال: «خذ حذرك.. حينما أغادر هذا المبنى سترى أن أحدًا لم ينتبه إلى وجودي من الأساس، سأكون مجرد جزءٍ من حُلمكَ»، وهذا بالضبط ما جرى، لقد صدقتْ نبوءته.. بماذا نصحني؟ هل أقول نعم، وآمين؟ حسنًا سأفعل.

قلتُ: «معكِ حق.. كنتُ أتحدث إلى نفسي، أفعل هذا كثيرًا، أعرف أنها عادة قبيحة، هل سيأتي كبير الأطباء اليوم مرة ثانية؟ أنا بحاجة للتحدث معه على وجه السرعة».

كان كبير الأطباء واقفًا عند الباب وسأل: «كيف تسير الأمور؟» لقد أرسلتَ في طلبي، هل تشكو من شيء؟ حُمَّى؟».

«لا، لم أشْكُ من الحُمَّى، أودُّ فقط إخبارَكَ أنه يمكنني الآن أن أتذكَّر بوضوح كيف وقع الحادث، كنتُ أعبر الشارع إلى ساحة محطة القطارات، وكنت في غمرة جحيم من الضجيج وسقط من يدي كُتيب فانحنيت محاولًا التقاطه، وسمعت صوت بوق سيارة قادم من ورائي، ولا بد أن السيارة دهستني».

اقتربَ كبير الأطباء من سريري وسأل: «وماذا عن حكاية المناجل والفؤوس؟».

«لابد أنني حلُمت بذلك يا حضرة الطبيب».

صاح قائلًا: «عظيم، الحمد لله».

ارتسمتْ على وجهه ملامح الارتياح، وقال:

«انتابني قلق هائل بشأنك، وكنت أخشى من تكرُّر وقوع نزيف جديد بالمخ يؤدي إلى فقدان الوعي مجددًا، لكن يبدو أن الخطر قد زال، والأمر الآن مرهون بمسألة استعادة قواك الجسدية، أعتقد أنني سأكتبَ لك تصريح خروج في غضون أسبوع تقريبًا.. ما رأيك؟».

25

بعد مرور أسبوع تقريبًا أخذتُ أصعد درجات السُّلم قاصدًا غرفة كبير الأطباء، متوكئًا على عصاي. نهض من وراء المكتب واقترب منِّي مُرحِّبًا بي:

«حمدًا لله على السلامة.. لقد تعافيتَ بسرعة مفاجئة في غضون الأيام القليلة الماضية، إذن ستغادر اليوم؟ آه لو كنت أتذكَّر كيف جئتَ إلى هنا؟ أتشكرني؟ لا يا رجل.. لا شكر على واجب، علينا أن نشكر إرادتكَ القوية التي أوصلتْ الأمور إلى هذه النهاية الطيبة، لم أؤدِ إلا واجبي، ومن حسن الحظ أن هذا حقل تخصصي. عرفتُ أنك ستستقلُّ قطار العصر، سأكون سعيدًا لو استطعتَ المرور بمدينة أوزنابروك مجددًا».

«إدوارد.. هل ستعرِّفني بالأستاذ؟».

سمعتُ صوت من ورائي، فالتفتُّ لأراني واقفًا وجهًا لوجه أمام بيبيشي.

تبادلنا النظرات، لم تُفشِ تعابير وجهها شيئًا. كيف استطاعتْ التحكم في نفسها هكذا؟ أم أنها توقَّعتْ قدومي إلى هنا؟

قدّمني إليها كبير الأطباء: «دكتور أمبيرج.. هذه زوجتي.. ما الأمر حبيبتي هل تركتِ السيارة بالأسفل؟ ما يزال الوقت مبكرًا وعندي بعض الأعمال المهمة لأنجزها.. كان د. أمبيرج نزيلًا عندنا حتى اليوم.. حادث وقع في محطة القطارات.. ما الذي حدث.. أخبِرها بنفسكَ».

«بالفعل يا سيدتي، صدمتني سيارة».

داعبَ كبير الأطباء لحيته بسعادة بالغة ثم ضحك، بينما راحت بيبيشي تنظر إليَّ بعينين واسعتين مليئتين بالجِدِّيَّة.

تابع الطبيب: «مما أدى إلى كسر في قاع الجمجمة وتورم دموي في المخ».

قالت بيبيشي: «هل كانت الحادثة قوية هكذا؟».

وددتُ لو أني عانقتُها لِما لمستُه في صوتها من مشاعر شفقة وحزن.

أجاب كبير الأطباء بدلًا مني: «نعم، لم تكن حادثة بسيطة، شغلنا طَوال أسبوعين كاملين».

«يبدو أنك ستظلُّ تفكِّر في هذا الوقت بمشاعر سلبية.. أليس كذلك؟».

سألتني بيبيشي وعيناها تطفحان بنظرةٍ قَلِقة مرتابة من ردِّي عن سؤالها.

«سأظل محتفظًا بذكرى عذبة رائعة لهذا الوقت، لن أنسى هذه الفترة ما حييت».

انحنيتُ إلى الأمام قليلًا وسألت بصوت خافت:

«وأنت يا بيبيشي؟».

برغم خفوت صوتي سمعني كبير الأطباء وسألني:

«هل تعرف زوجتي؟ وهل تعرف لقب التدليل أيضًا؟».

وفي لمح البصر ردَّت بيبيشي: «وأنا أيضًا ما أزال أفكِّر أين رأيتُ حضرة الطبيب؟».

نظرَتْ إليَّ وكانت عيناها تقولان: كن حذرًا، لا تذع سرِّي، في رأسه ظنون بشأن ما دار بيننا، ولو تأكَّد فـ...».

لا يا بيبيشي.. لا تخافي.. لن أُفشي سرَّكِ.

قلتُ: «كان من دواعي سروري العمل مع زوجتك في معهد علوم البكتيريا في برلين».

ابتسمت بيبيشي وقالت: «صحيح، كم أنا حمقاء، كيف لم أتذكَّر ذلك على الفور، برغم أنه بالأمس القريب».

قلتُ: «نعم، لم يكن ذلك منذ فترة طويلة».

خيَّمَ علينا الصمت وفكَّرنا للحظات في قرية مورفيدي، وفي الغرفة البائسة الصغيرة التي كنا نصعد إليها عبر دَرَج خشبي يُصدر صريرًا. سعلَ كبير الأطباء ليجلو حنجرته ومدَّتْ بيبيشي يدَها.

«تصحبك السلامة يا حضرة الطبيب و..».

كانت مترددة وهي تبحث عن الكلمة الأخيرة، فأكملَتْ بهدوء:

«ولا تَنْسَنا».

انحنيتُ على يدها وقلتُ: «جزيل الشكر».

وشعرتُ بيدها ترتجف. خَمّنَتْ بيبيشي ما كنتُ أشكرها عليه.

عبرتُ ساحة المستشفى. كانت بيبيشي واقفة عند النافذة تنظر إليَّ. كنتُ أعرف ذلك، كنتُ أعرف أنها واقفة من دون الالتفات إلى الوراء. كنتُ أشعر بنظرتها.

مشيتُ بخطوات بطيئة، كان الثلج قد بدأ في الذوبان، والشمس أشرقت على استحياء من وراء السُّحب، وبدأ الماء يتساقط من فوق أسطح المنازل. كان الجوُّ صافيًا معتدلًا وكأن فصل الربيع يوشك أن يبدأ اليوم.

- تمت -

منشورات حيـــــاة

حبل الروح

حين أخلى الليل سبيلي كنت شيئًا بلا اسم، كنت مخلوقًا بلا هوية، لا يعرف شيئًا عن مصطلحات الماضي والمستقبل. بقيتُ راقدًا فوق السرير، ربما أكون قد رقدتُ بضع ساعات وربما أكون قد رقدتُ جزءًا من الثانية. طوَّقني نوع من الجمود الذي تعاظَمَ مداه ليصل إلى حالة أعجز عن وصفها الآن. لو وصفت حالتي بأنها كانت عبارة عن شعور بالوعي المُسَرْبَل بالغموض، والممزوج بفقدان الوعي التام، لمَا وفيّتُ هذا الوضع الاستثنائي والغريب حقَّه في الوصف. ربما كان من الأسهل أن أقول إنني كنتُ أسبح في الفراغ، إلا أن هذه الكلمات أيضًا لا تُنبىء بشيء. كل ما كنت أعرفه أن مخلوقًا ما كان موجودًا، لكني لم أكن أعرف أنّ هذا المخلوق هو أنا.

ليو بيروتس كاتب تشيكي نمساوي، عدّه خورخي لويس بورخيس أحد أعظم كُتَّاب الأدب الغرائبي في عصره، وسعى إلى ترجمة أعماله إلى الإسبانية باعتباره مؤسس الواقعية السحرية في ثوبها الشرق أوروبي. وقال عنه روبرت موزيل إنه ابتكر جنسًا أدبيًّا يخصُّه وحدَه، بينما أشار إيتالو كالفينو، وجراهام جرين وألفريد هتشكوك وفريدريش دورينمات إلى أنهم من كبار مُعجبيه.

منشورات حياة
HAYAT PUBLISHING

ISBN 978-1-7386435-4-7 الترقيم الدولي:
978-1-7386435-4-7